الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد المائة وعشرون. السنة العاشرة. يناير ٢٠٠٩. الثمن عشرة جنيهات

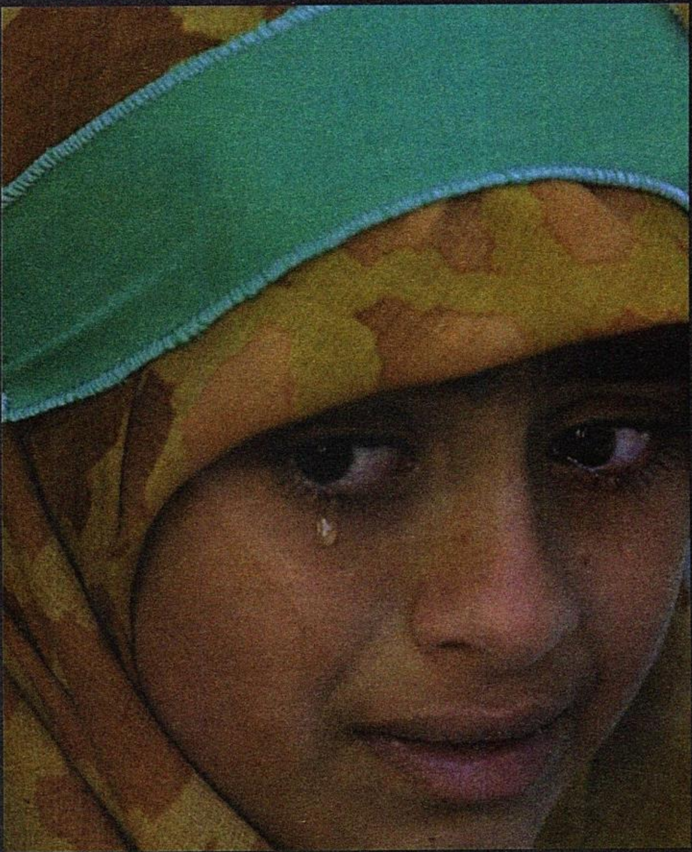
Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 120 - January 2009

غزة

الطريق إلى الأزمة!

■ سياحة الليل.. وسياحة النهار!

■ حيث لا مكان للحمائم!



كنائس مصر

السنة العاشرة
العدد ١٢٠
يناير ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- ألفت أحمد الخشاب.. باحثة فى التاريخ.
- امتياز دياب.. كاتبة فلسطينية تقيم فى جنيف.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- بشير نافع.. كاتب وأكاديمى فلسطينى مقيم بلندن.
- خالد محمد ياسين أبو الهيجاء.. قارئ.
- زكى سالم.. كاتب مصرى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة.
- ليسا ون.. باحثة أكاديمية في الأنثروبولوجيا بجامعة ماكوير - أستراليا.
- مارك دانر.. كاتب فى النيويوركر.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- مينا بديع عبد الملك.. أستاذ الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.

رسوم العدد للفنانين
James Gallray, Nerilicon

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير . اليمن ٣٠٠ ريال . فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

قراءة

ومازالت الحمائم

كان الوقت صيفًا، وكان العام ٢٠٠٣ قبل خمسة أعوام كاملة. حين التقط مصور وكالة «رويتر» تلك الصورة لأسراب حمام «فلسطينية»، تفزع واجفة أمام مجنزرة «إسرائيلية».

المكان (حسب البيانات المرفقة مع الصورة): الأرض الفلسطينية المحتلة.

والزمان (الذى بات شعاره «القوة فوق العدل»): هو هذا الزمان الذى يبدو أن لا مكان فيه لوداعة، أو سكينة، أو سلام.. أو حمام.

والتاريخ (حسب روزنامة الصراع الذي لاينتهي في الشرق الأوسط) هو عشية انهيار «هدنة» من بين عشرات تم الاتفاق عليها بوساطة عربية أو غيرها. وذلك بصاروخ انطلق - كالعادة - من طائرة أباتشي «إسرائيلية»، ليصيب سيارة مهندس الهدنة ذاته هذه المرة «إسماعيل أبوشنب»، ليخرج جثمانه متفحماً مع رفيقيه. ويمشى فى جنازته مائة ألف يطالبون بالثأر.

بقي أن نُذكّر كل المتسائلين اليوم عن المتسبب في «إنهاء التهدئة» أن إسماعيل أبوشنب، خريج جامعة المنصورة فى مصر كان الأكثر اعتدالاً بين قادة حماس جميعاً. (والتعبير ليديعوت أحرونوت الإسرائيلية). كما أنه كان مهندس الهدنة الأول. بل إنه - كما لابد أن يذكر كل من اقترب من المشاورات التى سبقت إعلانها، إن فى القاهرة أو غزة - ساعد فى إقناع قادة تنظيمات أخرى بقبولها، رغم قناعتهم التى بدت بعد ذلك صحيحة بأن الإسرائيليين الذين يعتقدون أنهم الأقوى لن يحترموها. وأن الأمريكيين؛ الرعاة المفترضين لن يضمنوها. (للاطلاع على قائمة كاملة بانتهاكات الجيش الإسرائيلي لاتفاقات الهدنة مع الفلسطينيين يمكن الرجوع إلى سجلات منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية B'Tselem على موقعها على الإنترنت)

لماذا نقلب في صفحات الماضي «القريب»؟

ببساطة، لأن لا شيء يتغير. أمامي مقال كتبه قبل أشهر فقط (مايو ٢٠٠٨) الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر (لا غيره) عقب عودته من زيارة إلى «السجن الكبير» كما أسماه. يقول فيه نصا:

«إن العالم يشهد الآن جريمة بشعة في حق الإنسانية على أرض غزة، حيث يعيش ١.٥ مليون إنسان داخل سجن كبير، ولا سبيل أمامهم للخروج، سواء بحراً أو جواً أو براً. إنه عقاب جماعي وحشي لأهل المنطقة بالكامل».

ليس هذا فقط - يضيف كارتر - فالقنابل والصواريخ الإسرائيلية تضرب بشكل دوري منتظم هذه المنطقة المعزولة المحاصرة. (هناك ١٠٦ فلسطينيين قتلوا في غضون بضعة أيام فقط، من السابع والعشرين من فبراير إلى الثالث من مارس، بينهم ٢٥ من الصبية والأطفال).

لماذا كل ذلك؟

يجيب كارتر: «إن إسرائيل بدأت في تصعيد إساءاتها البالغة واضطهادها للفلسطينيين من أهل غزة، على نحو غير مسبوق وبدعم من الولايات المتحدة، لأن مرشحين سياسيين يمثلون حماس فازوا بأغلبية المقاعد في برلمان السلطة الفلسطينية في انتخابات العام ٢٠٠٦، رغم أن كافة المراقبين الدوليين كانوا قد أجمعوا يومها على نزاهة وصحة الانتخابات».

كيف كان رد الإسرائيليين والأمريكيين على تلك الانتخابات «النزيهة»؟

يجيب الرئيس الأمريكي الأسبق بالأرقام: «تستضيف سجون إسرائيل الآن ٤١ من مرشحي حماس الـ ٤٣ الذين فازوا بالانتخابات والذين كانوا يعيشون في الضفة الغربية، علاوة على عشرة وزراء في حكومة الائتلاف التي لم تدم طويلاً».

ولم يكن هذا - سياسيا - كل شيء، فالكل يعرف. والشهادة هنا للرئيس الأمريكي - أن إسرائيل والولايات المتحدة رفضتا قبول حق الفلسطينيين في تشكيل حكومة وحدة وطنية بين حماس وفتح. ووقفتا بكل وسيلة ممكنة أمام محاولات «أشقاء عرب» للبحث عن «الصيغة الوسط». الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى سلطتين «فعليتين» إحداهما في غزة تستند في شرعيتها إلى صندوق الانتخابات والأخرى في رام الله تستمد شرعيتها من الاعتراف الإسرائيلي/ الأمريكي.. ومن ثم اعتراف الآخرين.

كما أنه - سياسيا - لافارق على الأرض بين ماجرى في صيف ٢٠٠٣ ومايجري في شتاء ٢٠٠٨ غير بعض التفاصيل، لاجديد في كلام الرئيس الأمريكي الأسبق. فكل متابع للقصة (تعرضها «وجهات نظر» في المقال التالي) يعرف تطوراتها. ويعرف كيف عاقب الجميع الفلسطينيين على اختيارهم «الديموقراطي» بدءا بالتجويع.. وليس نهاية بالترويع الذي تتولاه حاليا الـ (F16) ودبابات الميركافا.

أيا ماكان أمر مايجرى، أو ما ستنتهي إليه الأمور، تبقى ملاحظات (ولا أقول حقائق) ربما غابت وسط الركام وأصوات الانفجارات و«حسابات» المجتمعين تحت قبة الجامعة العربية، أو أولئك المعلقين على شاشات التليفزيون.

١ - إن قطاع غزة - طبقا للقانون الدولي - أرض محتلة. وأن إسرائيل هي دولة الاحتلال. وأن لذلك مترتباته ومسئولياته (كما أكد الرسميون المصريون)، إلا أن ذلك يعني أيضا أن «مقاومة الاحتلال» بأي وسيلة كانت، تبقى حقا مشروعا (طبقا للشرعية الدولية ذاتها)

٢ - إن «الحصار التجويعي» في التعريف العسكري عملٌ من «أعمال الحرب»، يبيح الرد بأي وسيلة كانت «دفاعا عن النفس».

٣ - إن مرحلة ما سمي «التهدئة»، (وهو مصطلحٌ آخر يضاف إلى مئات المصطلحات التي أضيفت إلى ملف القضية والتي يبدو وكأنها نحتت خصيصا للإيحاء بأن هناك جديدا) كانت في حقيقتها على الأرض «عدوانا مسكوتا عنه». كانت - بواقع الأمور - عدوانا يرد عليه بتهدئة.

٤ - إن جون دوغارد، المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان لدى الأمم المتحدة لم يكن مبالغا عندما وصف الصورة في غزة: «أكثر مناطق العالم اكتظاظاً بالسكان (٣٨٢٣ نسمة في كل كيلومتر مربع) : «غزة عبارة عن سجن وإسرائيل هي السجان الذي ألقى بمفتاح السجن بعيداً».

٥ - إن إسرائيل رفضت بكل إصرار - ومازالت - العروض المتكررة من جانب حماس بوقف إطلاق النار في مقابل رفع الحصار عن غزة. ورغم أن استطلاعات الرأي التي نشرتها صحيفة هآرتز اليومية الإسرائيلية أشارت إلى أن ٦٤٪ من الإسرائيليين يؤيدون إقامة حوار رسمي مع حماس. إلا أن السياسيين الإسرائيليين لحسابات ضيقة رفضوا على الدوام ذلك.

٦ - أن لا أحد فعليا - عدا محاولات شعبية لم يكتب لمعظمها النجاح - جرؤ على كسر هذا الحصار. (هناك قرار من الجامعة العربية صدر بالإجماع بكسر الحصار الاقتصادي على غزة إلا أنه لم ينفذ قط).

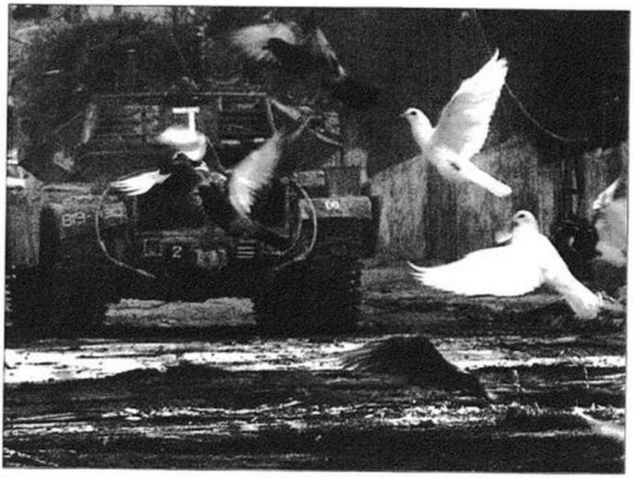
٧ - إن العرب الذين تنادوا إلى القمة عجزوا عن عقدها في نهاية المطاف (على الأقل حتى كتابة هذه السطور) في حين لم يكن صعبا على الأوروبيين أن يلتقوا في اجتماع وزاري طارئ لبحث الأزمة.

٨ - إن أي عارف بالخصوصية الفلسطينية، يعلم علم اليقين أن محاولات الفصل بين حماس «كفصيل» وبين الفلسطينيين «كشعب»، باستخدام الآليات المستخدمة مع جماعات أخرى في غير نظام عربي، غير قابلة للتطبيق. أو على الأقل النجاح. فالخط الفاصل هنا غيره هناك. والمنظومة السياسية الفلسطينية عبر رحلتها «العرفاتية» الطويلة اعتادت «التنوع»؛ واقعا وأسلوبا نضاليا. وهي التي نحتت تعبير «الفصائل».. وهو مصطلحٌ له - بمقتضى اللغة - دلائله ومعانيه. وأنه كأي حركة مقاومة، فإن عوامل الوحدة تساوي بالضبط عوامل الفرقة والخلاف حول الأسلوب الأمثل لتحقيق المطامح الوطنية. حدث هذا قبلا بين جماعتي الحسيني (الراديكالية) والنشاشيبي (الأكثر اعتدالا) في ثلاثينيات القرن الماضي، كما حدث هذا كثيرا في الستينيات والسبعينيات قبل أن تظهر حماس ذاتها على الساحة الفلسطينية.

٩ - إن «حماس» حديثة العهد بالدبلوماسية ومناوراتها، والتي تبدو أحيانا مفتقرة لخبرة سياسية مطلوبة، لها أخطاؤها بلا شك. وإن كان خطؤها الأول (وهي حركة مقاومة) أو بالأحرى حركة للكفاح المسلح، كان يوم قبلت - أو ربما استدرجت - إلى الانخراط في عملية سياسية داخلية. إذ لم تكن «حركة الكفاح

... تبحث

أيمن الصياد



المسلح، بحاجة أبدا إلى شرعية صندوق الانتخابات، وهي حائزةً - بحكم واقع الأشياء - ويحكم كونها حركة مقاومة، على شرعية الدم والبندقية.

١٠ - يخطئ من يعتقد بأن لدى «ساسة» إسرائيل رغبة حقيقية في السلام، أو بالأحرى «خريطة طريق» واضحة لذلك السلام. يذكر العرب - أو دعنا نقول - يتناسى العرب المتنادون اليوم إلى قمتهم، أنهم قبل سنوات في بيروت، عندما طرحوا مبادرتهم للسلام معلنينه «خيارًا استراتيجيا»، لم ينجحوا في أن يجبروا الإسرائيليين على أن يفرجوا عن زعيم أوسلو «المعتدل» المحتجز في المقاطعة.. «حتى الموت». وكان هذا ردًا بالغ الدلالة على مبادرة العرب واختيارهم الاستراتيجي.

١١ - إن الحقائق على الأرض تقول إن عدد المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة بلغ ٢٥٠ مستعمرة يسكنها نصف مليون نسمة. كما أنه في العام الأخير فقط، ورغم كل الآمال الزائفة التي أحاطت بمؤتمر أنابوليس في نوفمبر ٢٠٠٧ - يذكرنا كارتر في مقاله - أعلنت إسرائيل عن تشييد تسعة آلاف وحدة سكنية جديدة في المستعمرات الإسرائيلية القائمة على الأراضي الفلسطينية، كما تزايد عدد حواجز الطرق المقامة داخل الضفة الغربية، وأصبح حصار غزة أشد إحكاما(!)

١٢ - إن شعار «لا نريد أن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين» الذي يجري تسويقه عربيا، يحتاج إلى إعادة نظر بعد تدقيق - مطلوب - للتعريف.

١٣ - إن شعار «الشرعية الدولية» أيضا يحتاج من العرب إلى أن يوضع في مكانه الصحيح. يسخر روبرت فيسك في الاندبندنت من مساواة الغرب بين الفلسطينيين والإسرائيليين في المطالبة بضبط النفس، كما لو «كانت الدبابات الفلسطينية في شوارع تل أبيب». ويذكرنا الكاتب البريطاني بأنه في الوقت الذي كان الجيش الجمهوري الأيرلندي يقوم بإطلاق قذائف الهاون على أيرلندا الشمالية، وتقوم مجموعاته بعبور الحدود لمهاجمة نقاط الشرطة والبريطانيين البروتستانت، لم تقم بريطانيا بإطلاق سلاحها الجوي لضرب الجمهورية الأيرلندية. ويتساءل: «هل قام سلاح الجو الملكي بقصف الكنائس وناقلات البترول ونقاط الشرطة وقتل ٣٠٠ مدني لتلقين الأيرلنديين درسا؟». مجيبا: إن هذا لم يحدث «لأن العالم كان سيعتبر هذا سلوكا إجراميا». أما في الحالة الفلسطينية فالأمر يختلف (!)

ماذا بعد؟

الأمر السيئ.. أو الأسوأ في نتائج ما جرى/ أو سيجري (كُتب هذا المقال في اليوم الرابع للعدوان) أن أوراقا كثيرة قد اختلطت. وأن حسابات آنية إقليمية وداخلية قد تدخلت وتداخلت. وأن الرغبة في تبرئة النفس أمام نهر الدماء الجاري، وعداد الضحايا الذي لا يتوقف، بدت أحيانا أنها «الأولى بالاعتبار» بغض النظر عن الآثار والنتائج. وقبل ذلك.. عن الوسائل.

ماذا بعد؟

ربما يكون صحيحا تماما ماذهب اليه محلل «الواشنطن بوست» حين اعتبر أن إسرائيل أرادت من عمليتها التي قصدت بها محاكاة «الصدمة والترويع» الأمريكية في العراق، استباق قدوم الإدارة الأمريكية الجديدة بتوجيه ضربة لحماس، واستغلال الفترة المتبقية لإدارة الرئيس جورج بوش المؤيد للعدوان الإسرائيلي قبل مجيء أوباما الذي لا تستطيع التنبؤ بمواقفه. الا انه يبقى من المشكوك فيه تماما أن تنجح إسرائيل في «إزالة حماس من الخريطة» كما أعلنت أو تمنت ذلك تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الإسرائيلية الأنيقة الأكثر تطرفا. والتي تقول عنها «الجارديان» أنه إذا كانت زعيمة حزب العمل تظن أن تمهيد الطريق أمام إنشاء دولة فلسطينية معتدلة يكون عبر التصفية الجسدية لقيادة نصف الشعب الفلسطيني، فهي «باختصار وبساطة مخطئة».

ثم ماذا بعد؟

إننا قد لا نعرف بالضبط عدد ضحايا الضربة الجوية الأولى صباح السبت، ولكننا نعلمُ على وجه القطع أن الضحية الأولى هي ذلك «السلام» الذي كانوا يتحدثون عنه.

في عشاء على هامش ندوة خليجية قبل سنوات، كان على طاولتنا «لورد باتين» المفوض الأوروبي السابق للشئون الخارجية (يشغل حالياً منصب رئيس جامعة اكسفورد) وكان طبيعيا أن يتطرق الحوار إلى الأزمة التي تبدو وكأن لا أحد يعرف لها حلا: «الشرق الأوسط». فعنّ لأحدهم أن يسأل الضيف البريطاني: ما الذي يجعل ما نجح بالفعل في أيرلندا الشمالية - بضغط من الولايات المتحدة على بريطانيا - مستحيل الحدوث في الشرق الأوسط؟

لم يشأ الأكاديمي والدبلوماسي المخضرم يومها إلا أن يجيب على السؤال بسؤال. قال «تعلمون جميعا أن الأمن هو هاجس الإسرائيليين الأول.. وأتفهم ذلك. ولكني لا أفهم كيف يؤدي تحطيم مكاتب رخص القيادة في فلسطين إلى الحفاظ على الأمن الإسرائيلي؟ وكيف يتسنى الحفاظ على ذلك الأمن بتخريب ممرات الطائرات، واقتلاع أشجار الزيتون، وتسميم مياه الآبار؟

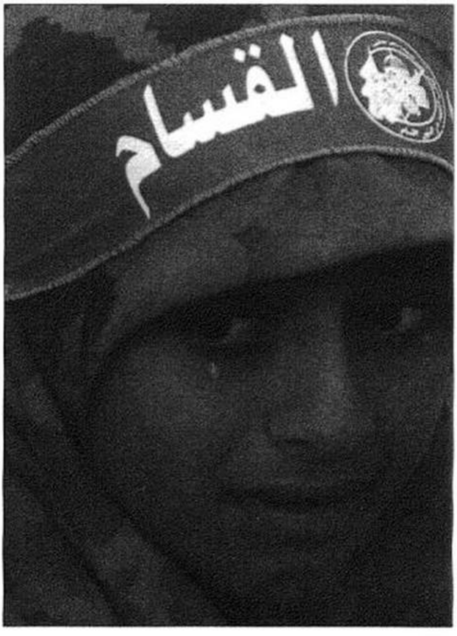
....

سؤال اللورد البريطاني الذي طرحه علينا في ذلك المساء البعيد، أظنه ما زال قائما. وأظنه ما زال بلا إجابة. بالضبط كما أن الحمائم التي أفزعتها المجنزرات الإسرائيلية في هذا اليوم من صيف ٢٠٠٣، مازالت هائمة تبحث عن مكان.. أو بالأحرى عن أمان. ■

انفجار الانقسام بالطريقة التي انفجر بها لم يكن مخططاً
من أي من طرفي الصراع

حماس.. الطريق إلى الأزمة

بشير نافع



بين التاسع والرابع عشر من يونيو/حزيران ٢٠٠٧، حسمت مجموعات من الجناح العسكرى لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والقوة التنفيذية الموالية للحركة، الصراع الدائر منذ شهور فى قطاع غزة بالقوة العسكرية.

وكانت المناطق الفلسطينية الواقعة فى نطاق الحكم الذاتى شهدت توتراً متزايداً منذ فوز حماس فى الانتخابات التشريعية فى مطلع ٢٠٠٦، ومن ثم تأهلها لتشكيل الحكومة الفلسطينية.

وصل هذا التوتر ذروته فى الاشتباكات التى شهدها قطاع غزة خلال الأسابيع السابقة على عقد اتفاق مكة.

جانب من هذا التوتر يعود إلى الحصار السياسى والاقتصادى الذى فرضته الدولة العبرية والقوى الغربية عامة على المناطق الفلسطينية بعد فوز حماس وتشكيلها الحكومة؛ ولكن الجانب الذى لا يقل أهمية عن ذلك يعود إلى سعى قوى وشخصيات داخل حركة فتح والطبقة الفلسطينية الحاكمة منذ أوسلو، وسعى قيادات ومؤسسات أمنية داخل سلطة الحكم الذاتى إلى تقويض دور حماس فى الحكم وإخراجها نهائياً من جسم السلطة.

أثار حسم الصراع فى قطاع غزة لصالح حماس ردود فعل سياسية سلبية، فلسطينياً وعربياً ودولياً، كما أثار جدلاً فكرياً حاداً فى الساحتين الفلسطينية والعربية. فقد شابت عملية الحسم تجاوزات بالغة من الطرفين، سواء من القوات الموالية لحماس أو تلك التابعة للأجهزة الأمنية؛ كما مثلت لحظة مؤلمة أخرى من الاشتباك الفلسطينى - الفلسطينى، وأضافت انقساماً فلسطينياً وطنياً إلى الانقسامات العربية الداخلية المتفاقمة فى العراق ولبنان ولكن دلالات الحسم السياسية هى الأهم بالتأكيد، سواء فيما يتعلق بالموقع الذى تحتله القضية الفلسطينية عربياً وإقليمياً ودولياً، أو بعملية التحول المرتبكة التى تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية ودور القوى الإسلامية السياسية ومستقبلها فى هذه العملية.

لقد قادت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى «فتح» النضال الوطنى الفلسطينى منذ سنة ١٩٦٩؛ وبالرغم من التعددية السياسية والأيديولوجية التى تتسم بها الساحة الفلسطينية، كانت فتح هى من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضى، ولكن دور فتح أخذ فى التراجع منذ الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وفعلا قدم فوز حماس فى الانتخابات التشريعية الأخيرة فى الضفة والقطاع مؤشراً ملموساً على التراجع الفتحاوى وعلى صعود التيار الإسلامى السياسى. وهناك مؤشرات عديدة أخرى تشير إلى أن حجم ودرجة التحول بين فلسطينيى الشتات لا يقلان عنهما فى الضفة والقطاع.

اتجهت الأزمة السياسية التى ولدتها عملية الحسم فى قطاع غزة نحو التعقيد، سواء لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية فى إبقاء الأوضاع على ما هى عليه، أو للضغوط التى تمارسها الإدارة الأميركية والحكومة الإسرائيلية على رام الله، أو لأن المفاوضات الجارية منذ نهاية ٢٠٠٧ حول تسوية نهائية ما للصراع على فلسطين تتطلب استبعاد حماس عن مواقع القرار للسلطة الفلسطينية، وأصبحت هذه الأزمة، بذلك، مفتوحة على احتمالات عدة. ولكن من الخطأ التعامل مع الأزمة الفلسطينية باعتبارها مجرد حلقة جديدة فى سلسلة التداعيات التى عاشتها الساحة الفلسطينية منذ انتصار حماس فى الانتخابات التشريعية. هذه أزمة ذات جذور عميقة فى التاريخ السياسى الفلسطينى؛ ومن غير الممكن التوصل إلى قراءة صحيحة للحظة الفلسطينية الراهنة، وللتحول الذى يشهده المجتمع الفلسطينى واتجاهاته، بدون قراءة السياق التاريخى لبروز حركة فتح والاتجاه الإسلامى الفلسطينى، وبدون استطلاع دقيق لشروط التحولات السياسية فى السياق الفلسطينى.

وبالنظر إلى أن صيف ٢٠٠٨ شهد بدايات حوار وطنى لمعالجة الأزمة وعواقبها، فإن من الصعب تصور إعادة بناء اللحمة الوطنية الفلسطينية بدون إعادة نظر فى النهج السياسى لقيادة سلطة الحكم الذاتى، لحركة فتح، ولحركة حماس على السواء.

الطريق إلى الأزمة

ساهمت الأجواء السلبية التى واجهت فوز حماس فى إخفاق محاولة تشكيل حكومة وحدة وطنية جامعة، لاسيما بعد رفض فتح، والفصائل الأخرى، الانضواء فى حكومة تقودها حماس. وربما لم تعمل قيادة حماس فى الضفة والقطاع بشكل كاف من أجل التوصل إلى حكومة وحدة وطنية، وانتهت إلى تشكيل حكومة حمساوية بقيادة إسماعيل هنية، حازت ثقة المجلس التشريعى وبدأت عملها فى نهاية فبراير/شباط. وفر الفوز فى الانتخابات وتشكيل الحكومة شعوراً قوياً بالشرعية لدى حماس، وتصور عدد من قياداتها ووزرائها أن بإمكان الحركة أن تقدم إنجازاً ما على

للاستزادة:
الوضع الفلسطينى..
الأزمة والمصالحة ومستقبل الحركة الوطنية
بشير موسى نافع
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة - قطر ٢٠٠٨



صعيد الحكم والإدارة. ولكن الواقع كان أكثر تعقيداً. تعرضت الحكومة الجديدة لمقاطعة دولية أثرت تأثيراً بالغاً على حجم الموارد المتوفرة، وهو ما حاولت تعويضه بالحصول على مساعدات من دول عربية وإسلامية صديقة. ولكن المشكلة الأكبر تعلقت بصراع الصلاحيات الذى انفجر بين الحكومة ورئيس السلطة الفلسطينية، لاسيما فيما يتعلق بالأجهزة الأمنية. وبينما تزايدت المؤشرات على توجه القيادات الفتحاوية فى الأجهزة لإفشال الحكومة، أعلن وزير الداخلية عن تشكيل قوة أمنية جديدة، باسم القوة التنفيذية، فى إبريل/ نيسان. وبالنظر إلى أن نفوذ حماس فى الضفة الغربية كان أضعف نسبياً عنه فى قطاع غزة، فقد نجح تشكيل القوة التنفيذية فى القطاع فقط.[1] وسرعان ما شهدت الأشهر التالية لتشكيل الحكومة انفجار حالة أقرب إلى الفلتان الأمنى، لاسيما فى قطاع غزة.

بعض من الحوادث الأمنية اندلعت على خلفية من خلافات عائلية، ولكن أغلبها كان سياسى الطابع، مثل تصاعدا فى التوتر بين حماس وفتح، أو بينها والأجهزة الأمنية التى تسيطر عليها فتح. وقد لعب جهاز الأمن الوقائى، الذى يدين بالولاء للقيادى الفتحاوى محمد دحلان، دوراً ملموساً فى تفاقم حالة انهيار الأمن وغياب الأمان فى شوارع ومدن القطاع، خصوصاً بعد تشكيل القوة التنفيذية. وبينما شهد شهر اكتوبر/ تشرين أول أسوأ الاشتباكات بين القوة التنفيذية وأجهزة السلطة الأمنية فى قطاع غزة، أصبح واضحاً أن العلاقة بين حكومة حماس وقيادة السلطة وأجهزتها انهارت إلى حد كبير، وأن الوضع الفلسطينى السياسى ذا الرأسين غير المتوافقين غير قابل للاستمرار.

تمحور الجدل الذى أسس لدخول حماس الانتخابات التشريعية حول مسألتين رئيسيتين: الأولى أن حماس وقوى المقاومة الأخرى مهددة بهجمة أمنية قريبة، يفرضها تقدم العلاقات بين السلطة والإدارة الأميركية وتوجهات السياسة الأميركية فى المنطقة ككل، وأن فوزاً فى الانتخابات ومشاركة فى الحكم ستمنع هذه الهجمة؛ والثانية، أن حماس باتت القوة الرئيسية فى الساحة الفلسطينية وأن من حقها أن تكون الطرف الرئيس فى الحكم وأن تشارك بالتالى فى تحديد جدول الأعمال الفلسطينى. المشكلة أن حماس لم تعمل على تحديد المهمات المطروحة على الحركة الوطنية الفلسطينية خلال المرحلة بعد الفوز فى الانتخابات، ولم تقدم رؤية واضحة لتصورها حول إمكانية الجمع بين المشاركة فى جسم السلطة والتصدى للمهمات الملقاة على كاهل القوى الوطنية والإسلامية الفلسطينية. ليس ثمة شك فى حق حماس السعى إلى المشاركة فى السلطة، بغض النظر عن أسس الشرعية التى تستند إليها سلطة الحكم الذاتى؛ إذ إن حماس لم تكن تستطيع الاستمرار فى تمثيل قطاع واسع من الشعب بدون أن تكون فى موقع يسمح لها برعاية مصالح هذا القطاع. هذا، وقد أصبحت سلطة الحكم الذاتى أمراً واقعاً. ولكن القضية الوطنية ككل كانت، ولا تزال، تواجه مهمات ملحة أكبر، أبرزها الجدار، تهويد القدس، تقطيع أوصال الضفة الغربية، وتوسع نطاق الاستيطان اليهودى فيها منذ توقيع اتفاقية أوسلو.

والحقيقة أن لا حكومة حماس، ولا الجهاد وقوى المقاومة الأخرى، تحركت بجدية كافية للتعامل مع المهمات الوطنية، وظلت المواجهة مع الاحتلال محكومة بردود الفعل. بكلمة أخرى، لم تستطع حماس إيجاد صيغة توفق بين متطلبات وشروط المشاركة فى حكومة سلطة الحكم الذاتى وحمل أعباء المسألة الوطنية؛ بل إن تشكيل حكومة حماس تم بتسرع نسبى، وبدون إعطاء وقت كاف لتشكيل حكومة وحدة وطنية، كان يمكن أن تخلص الفلسطينيين من الكثير من صعوبات وأعباء المقاطعة الدولية والعربية وتؤسس للمشاركة السياسية على أسس قوية. وبدا لبعض الوقت أن حماس تقدم المشاركة فى الحكم على التصدى للقضية الوطنية، ليس فقط على مستوى السياسات، بل أيضاً على مستوى الثقافة والخطاب.

بعد أسابيع قليلة فقط على تشكيل حكومة حماس، لم يعد خافياً أن الوضع الناجم عن الانتخابات التشريعية لا يمكن تنظيمه بدون حكومة وحدة وطنية. وفى الوقت الذى كان الوفد الأمنى المصرى فى قطاع غزة يحاول تهدئة الأوضاع، ولجنة الحوار الوطنى تحاول التوصل إلى صيغة للتفاهم حول حكومة وحدة وطنية تقبل بها حماس والرئيس عباس، كان السجين الفتحاوى البارز مروان البرغوثى يعمل على جمع سجناء بارزين آخرين من كافة التنظيمات الفلسطينية فى سجن هداريم. وفى مطلع مايو/ أيار توصل السجناء إلى وثيقة للتفاهم الوطنى، بصيغة فتحاوية، رحب بها عباس وأبدت قيادة حماس تحفظاً على بعض بنودها، خصوصاً تلك المتعلقة بالتزام الاتفاقات الدولية والمبادرة العربية.[2] أدى تباين المواقف من الوثيقة إلى مزيد من التأزم فى العلاقة بين الرئيس ورئيس وزرائه، وفاقم من حالة التوتر قيام القوات الإسرائيلية بحملة اعتقالات واسعة طالت عشرات عناصر حماس ونوابها فى الضفة الغربية، بعد قيام قوات القسام ومجموعتين أخريين بعملية «الوهم المتبدد» فى حزيران/ يونيو، التى انتهت بوقوع جندى إسرائيلى أسيراً لدى المهاجمين الفلسطينيين. فى النهاية، توصلت لجنة الحوار الوطنى إلى اتفاق حول صيغة جديدة لوثيقة التفاهم الوطنى، أبدت فيها حماس مرونة جزئية تجاه البند محل الإشكال، الذى أصبحت صياغته: «وضع خطة فلسطينية للتحرك السياسى الشامل، توحد الخطاب السياسى الفلسطينى على أساس الأهداف الوطنية الفلسطينية، كما وردت فى هذه الوثيقة وقرارات الشرعيتين العربية والدولية المنصفة لشعبنا...»[3]

لم تتوقف الوساطات الفلسطينية والعربية، التي اتفقت جميعها على أن المخرج يتمثل في تشكيل حكومة وحدة وطنية

بيد أن الاتفاق على وثيقة التفاهم الوطنى لم يضع حداً للخلافات بين الرئيس وقيادة حماس، واصطدم البحث عن حكومة وحدة وطنية بسلسلة لا آخر لها من المشكلات المتعلقة بتوزيع الحقائب الوزارية، بخطاب التكليف، وببرنامج الحكومة. اعتقد الرئيس عباس وعدد من مستشاريه أن حكومة حماس تسير نحو الانهيار، ولم يبد رغبة حقيقية فى التوصل إلى حل سريع. وسرعان ما اتضح أن التفاؤل الذى أحاط بالاتفاق على وثيقة التفاهم الوطنى كان مبالغاً فيه، وتصاعدت حالة التدهور الأمنى فى قطاع غزة، لتحصد أرواح العشرات من أبناء فتح وحماس أو من المواطنين الأبرياء.

خلال شهرى يوليو/ تموز وأغسطس/ آب، هدأت الأوضاع الأمنية والسياسية قليلاً على خلفية من الحرب الإسرائيلية على لبنان وحزب الله. ولأن الحرب أدت إلى مزيد من الانقسام العربى بين من وقفوا إلى جانب حزب الله أو من تعاطفوا معه (مثل سورية وحركتى حماس والجهاد)، ومن حمل الحزب مسؤولية اندلاع الحرب (مثل مصر والسعودية والأردن)، فقد بدا كأن نجاح إسرائيل فى توجيه ضربة مؤلمة لحزب الله لن تؤدى إلى تقرير مصير الأزمة اللبنانية وحسب، بل إلى تغيير المناخ الاستراتيجى فى المنطقة ككل. ولعل هذا ما قصدته وزيرة الخارجية الأميركية عندما رفضت القيام بمطالبة إسرائيل بوقف إطلاق النار، واصفة معاناة اللبنانيين بأنها «مخاض شرق أوسط جديد». انتهت الحرب بقرار مجلس الأمن الدولى ١٧٠١، الذى وفر لإسرائيل وجوداً دولياً إضافياً فى الجنوب اللبنانى بصلاحيات أعلى من الوجود الدولى السابق، الذى كانت مهماته تقتصر على الرقابة وحسب. ولكن الضغط الأميركى لصالح الدولة العبرية فى مجلس الأمن لم يستطع إخفاء الهزيمة التى تعرض لها الجيش الإسرائيلى فى الجنوب اللبنانى، وبدلاً من أن تؤدى



أخطأت حماس حين قدمت الانتصار على الأجهزة الأمنية باعتباره انتصاراً عقائدياً. وحين صورت الاشتباكات باعتبارها صراعاً بين الإسلام والكفر

الحرب إلى تغيير المناخ الاستراتيجي في المنطقة لصالح التوجهات الأميركية - الإسرائيلية، فقد أدت إلى تعزيز هائل في معنويات حزب الله والقوى المؤيدة له. في لبنان، تعمق الانقسام؛ وفي فلسطين، اعتبرت حكومة حماس أن انتصار حزب الله هو انتصار لها أيضاً، أو على الأقل لما تمثله.

لم تستطع الوساطات العربية، القطرية والمصرية، إيصال الطرفين الفلسطينيين إلى اتفاق. وقد شهد اكتوبر/ تشرين أول تصاعداً في حدة الاشتباكات بين القوات التابعة لحماس وحكومتها وتلك التابعة للأجهزة الأمنية أو جناح فتح المرتبط بمحمد دحلان. وبانفجار الوضع الأمني، وقيام وزيرة الخارجية الأميركية بإبلاغ الرئيس عباس بأن واشنطن غير معنية بوثيقة التفاهم الوطني الفلسطيني، لم يعد عباس يبدي اهتماماً كبيراً بالوثيقة. ومنذ نهاية اكتوبر/ تشرين أول قطع الرئيس ما تبقى من صلات مع رئيس حكومته، إسماعيل هنية.(٤) وقد تبلور موقف الرئيس عباس في خطاب صاخب ألقاه أمام اجتماع للمجلس التشريعي في ١٦ ديسمبر/ كانون أول ٢٠٠٦، أعلن فيه قراره إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية مبكرة. وبالرغم من الدفاع المستميت الذي قدمه مستشارو عباس، فقد كان الجميع يدرك أن الرئيس لا يملك صلاحية حل المجلس التشريعي، وأن الطريق الوحيد للخروج من الأزمة الفلسطينية الداخلية هو تفاهم حقيقي وجاد بين قطبي الأزمة الرئيسين: قيادة السلطة وحركة حماس. ما أضعف موقف عباس في الدعوة لانتخابات مبكرة، كان ضعف التأييد العربي الرسمي لهذه الدعوة، لاسيما من مصر، الجهة العربية الرئيسية المعنية بالوضع الفلسطيني الداخلي. والحقيقة أن الموقف المصري ظل منذ ما بعد الانتخابات التشريعية غير واضح تماماً. فمن ناحية، حافظت القاهرة على اتصالاتها التقليدية الوثيقة بقيادتي حماس في الداخل والخارج. ولكن حكومة هنية لم تلق ترحيباً يليق بها من نظيرتها المصرية؛ وكأن القاهرة لم تكن ترغب في استفزاز الإدارة الأميركية، أو أنها لم تكن تريد إسباغ شرعية عربية كاملة على حكومة تقودها حماس. ظل المسئولون المصريون في غزة والقاهرة يعملون بجد على محاصرة التدهور الأمني، وكانوا يعرفون بالتأكيد حقيقة توازن القوى بين فتح المنقسمة على نفسها وأجهزة السلطة الأمنية، من ناحية، وحركة حماس والقوات الموالية لها، من ناحية أخرى. ولذا، فإن التوجه الأساسي للسياسة المصرية كان العمل على أن تتوصل الأطراف الفلسطينية المختلفة إلى تفاهم وطني. وليس حتى بداية العام التالي، ٢٠٠٧، عندما ظهرت بوادر خطة أميركية أمنية للتعامل مع الوضع الفلسطيني، أن برزت مؤشرات على انحياز القاهرة لمشروع إطاحة حماس من الحكومة الفلسطينية.

في يناير/ كانون ثاني ٢٠٠٧، أخذت الاشتباكات في قطاع غزة طابعاً حاداً ومنظماً وأكثر بشاعة. أعلنت الإدارة الأميركية عن تخصيص ٨٦,٤ مليون دولار لإعادة بناء الأجهزة الأمنية الفلسطينية، تحت إشراف المبعوث الأمني الأميركي الجنرال كيث دايتون. في رام الله، أصدر الرئيس عباس مرسوماً ينص على عدم شرعية القوة التنفيذية، التي شكلتها حكومة حماس في قطاع غزة. وفي مهرجان لإحياء ذكرى انطلاقة فتح في مدينة غزة، وجه دحلان تهديدات سافرة لحركة حماس.(٥) لم تتوقف الوساطات الفلسطينية والعربية، التي اتفقت جميعها على أن المخرج يتمثل في تشكيل حكومة وحدة وطنية؛ ولكنها لم تحقق نجاحات تذكر. وفي نهاية يناير/ كانون ثاني، قام الرئيس عباس بزيارة لدمشق، اجتمع خلالها بالرئيس بشار الأسد وكبار المسئولين السوريين، ومن ثم برئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل. وفي حين بدا وكأن لقاءات دمشق حققت تقدماً ملموساً، طرح الوفد الأمني المصري في غزة مبادرة لوقف العنف. ولكن سرعان ما فوجئت الأطراف المختلفة بإعلان مسئولي السلطة الأمنيين في القطاع عن اكتشاف مؤامرة لاغتيال عباس أعدت لها حماس بحفر أنفاق قرب مقره بمدينة غزة.(٦) أنكرت حماس الاتهام الموجه إليها، جملة وتفصيلاً. ولكن اللغة التي استخدمها الرئيس في أحاديثه بعد ذلك أظهرت اقتناعه بوجود تلك المؤامرة بالفعل. وبينما تلبدت أجواء العلاقة من جديد بين الحكومة والرئيس وبين حماس وأجهزة السلطة الأمنية، طرح العاهل السعودي، الملك عبدالله، مبادرته، التي تضمنت دعوة الطرفين الفلسطينيين المتصارعين إلى مكة.

عقد مؤتمر مكة بين ٦ و٩ فبراير/ شباط ٢٠٠٧، بحضور عباس ودحلان وقيادات فتحاوية أخرى، وخالد مشعل وإسماعيل هنية وقيادات حمساوية أخرى. وقد توصل الطرفان إلى اتفاق عرف بـ «إعلان مكة»،(٧) الذي أكد حرمة الدم الفلسطيني وتضمن تفاهماً تفصيلياً على تشكيل حكومة وحدة وطنية، وعلى توزيع الحقائب في هذه الحكومة، وعلى بيان التكليف الذي سيوجهه الرئيس عباس إلى رئيس حكومته. عكس الاتفاق مرونة كبيرة من جانب حماس؛ فبالرغم من أنه أكد تولي هنية رئاسة حكومة الوحدة الوطنية، فقد أقر توزيع حقائب الوزارات الرئيسية على شخصيات مستقلة، كما حمل قبولاً صريحاً من حماس بدولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ (ولا يمكن اعتباره موقفاً جديداً، على أية حال)، وصيغة وسطية لتوضيح موقف الحكومة من القرارات الدولية والعربية المتعلقة بالقضية الفلسطينية التي تقبلها منظمة التحرير وتبنى عليها قيادة السلطة تحركها السياسي. خلال الأيام العشرة التالية، شكل هنية حكومة الوحدة الوطنية (التي شملت القيادي والنائب الفتحاوي، عزام الأحمد، نائباً لرئيس الحكومة؛ كما شملت عدداً من المستقلين)، وحصلت الحكومة الجديدة على ثقة المجلس التشريعي، وسط أجواء تفاؤل وأمل فلسطينية شعبية واسعة. ولكن لا على الصعيد الأمني، ولا على صعيد مواقف الرئيس من حكومته، بدا أن الأوضاع تغيرت كثيراً. كما كان عباس موزعاً قبل الانتخابات بين عقدها في موعدها أو تأجيلها، كذلك أصبح موقفه من الحكومة بعد فوز حماس في الانتخابات. لم يكن الرئيس الفلسطيني يريد انهياراً أمنياً شاملاً، ولكنه لم يكن قادراً على تجاهل الموقف الأميركي السلبي (والأوروبي، بدرجة أقل) من حكومة تقودها حماس. وبعد أن أبلغته وزيرة الخارجية الأميركية أن واشنطن غير معنية باتفاق مكة، وأنها ستواصل مقاطعتها لحكومة الوحدة الوطنية، بدأ عباس يميل إلى المعسكر الداعي إلى إخراج حماس من جسم سلطة الحكم الذاتي، ولو بالقوة.

في مطلع مارس/ آذار، وقبل أن يجف حبر اتفاق مكة، أعلن الرئيس عباس تعيين محمد دحلان مستشاراً لشئون الأمن القومي؛ بمعنى تسليمه ملف القوى الأمنية الفلسطينية بالكامل.(٨) وبالنظر إلى مواقف دحلان المعلنة من حماس، والدور الذي يلعبه جهاز الأمن الوقائي الموالي له في الصدامات المسلحة في قطاع غزة، فقد كان طبيعياً أن تستشعر حماس الخطر. أعلنت حماس معارضة قرار الرئيس على أسس دستورية، كون دحلان نائباً في المجلس التشريعي ومن المفروض ألا يتسلم موقعاً أمنياً تنفيذياً. ولكن عباس لم يتراجع. في منتصف إبريل/ نيسان، نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية تقريراً حول ما أسمته بـ «خطة دايتون»،(٩) التي يفترض أنها تحمل تصور الجنرال الأميركي المشرف على الأوضاع الأمنية الفلسطينية لكيفية إعادة بناء أجهزة سلطة الحكم الذاتي الأمنية وتأهيلها لمواجهة قوة حماس المتصاعدة.

خلال الشهر التالي، تدهورت الأوضاع الأمنية في قطاع غزة بتكرار الصدام بين عناصر الأجهزة الأمنية، لاسيما الأمن الوقائي، وعناصر القوة التنفيذية. وسرعان ما انفجرت أوضاع فتح الداخلية في القطاع عندما وجه القيادي الفتحاوي أحمد حلس أصابع الاتهام إلى جناح انقلابي في فتح. لم تجد محاولات الوفد الأمني المصري في القطاع نفعاً في محاصرة التدهور الأمني، وقد تحولت الصدامات خلال الأيام العشرة الأولى من يونيو/ حزيران إلى اشتباكات واسعة ودموية، طالت الجامعات والمساجد. وفي ١١ يونيو/ حزيران، تعرض مكتب رئيس الوزراء في



سارع الرئيس عباس بعد هزيمة الأجهزة الأمنية إلى القيام بانقلاب دستوري على مجمل الأسس التي يرتكز إليها نظام سلطة الحكم الذاتي

مدينة غزة لاعتداء مسلح، فيما أصدرت مركزية فتح بياناً غير مسبوق شنت فيه هجوماً حاداً على حركة حماس.[١٠] ولكن ما إن حل مساء ١٥ يونيو/ حزيران حتى كانت القوات الموالية لحماس قد حسمت الوضع نهائياً لصالحها فى كافة أنحاء القطاع. فى أغلب الحالات، تسلمت قوات حماس مواقع السلطة الرئيسية بلا قتال، بينما ترك قادة الأجهزة الأمنية قواتهم ومراكز عملهم، وفروا عبر الحدود إلى مصر، أو سمحت لهم السلطات الإسرائيلية بالذهاب إلى الضفة الغربية عن طريق المعابر الإسرائيلية. فى حالات أخرى، لاسيما فى معركة السيطرة على مقر قيادة الأمن الوقائى، سقط العشرات من الطرفين فى قتال نظر إليه أغلب الفلسطينيين باعتباره حلقة مؤلمة فى تاريخ نضالهم الوطنى.

من المنظور السياسى المباشر، كان تفاقم الأزمة الفلسطينية، ومن ثم حسم حماس العسكرى للوضع فى قطاع غزة، تعبيراً بالغاً عن انهيار اتفاق مكة، الذى ولد ضعيفاً على أية حال. فبالرغم من المساندة العربية عموماً للاتفاق، فإن القاهرة لم تخف امتعاضها من تولى السعودية شأناً اعتبر على نطاق واسع من شئون مصر الخاصة. من ناحية أخرى، لم تستطع السعودية تسويق الاتفاق دولياً أو الدفاع عنه فى مواجهة المعارضة الأميركية، ولم تتخذ إجراءات عربية عملية لكسر الحصار المالى على الفلسطينيين. ومن ناحية ثالثة، كان ثمة قوة نافذة داخل السلطة الفلسطينية وفى حركة فتح لم تقبل مطلقاً بمشاركة حماس فى جسم السلطة الفلسطينية، ورأت فى هذه المشاركة خطوة أولى نحو تغيير بنية الطبقة السياسية المسيطرة كلية. مشكلة هذه الدوائر أن توازن القوى الداخلى كان قد أفلت من يدها منذ زمن، وفى حين أنها خسرت الانتخابات بجدارة، فإنها لم تكن قادرة على فرض إرادتها العسكرية على مجمل الوضع الفلسطينى. ولكن الحسم العسكرى فى قطاع غزة لا يعنى أنه حسم الموقف السياسى الوطنى لصالح حماس.

بين مؤتمر مكة فى فبراير/ شباط والحسم العسكرى فى قطاع غزة فى يونيو/ حزيران، أخذت الأخطاء المتراكمة فى الارتداد على الساحة الفلسطينية السياسية وعلى دور وموقع حماس الوطنى. كان من الممكن، مثلاً، إعطاء مؤتمر مكة طابعاً وطنياً بالإصرار على مشاركة القوى الفلسطينية الأخرى، ولكن اقتصار المؤتمر على فتح (السلطة) وحماس أظهره كمؤتمر للاتفاق على تقاسم النفوذ والحكم بين الطرفين. قد تكون التنظيمات الفلسطينية خلاف حماس وفتح صغيرة بالفعل، ولكن اعتبارات الإجماع الوطنى لا تقاس بالحجم التنظيمى فقط، بل بالتأثير الإعلامى والسياسى أيضاً؛ وفى أحيان كثيرة من تاريخ الشعوب لا تقل الدلالات الرمزية عن دلالات الواقع الملموس. التباعد الذى أسسه اتفاق مكة بين حماس والتنظيمات الأخرى المختلفة، من ناحية، وما مثله الاتفاق من استفزاز للدور المصرى، من ناحية أخرى، أضعف مواقع حماس العربية عشية عملية الحسم فى قطاع غزة. ولا ينبغى تجاهل وقع عملية الحسم على مجمل النظام العربى الرسمى، الذى وجد نفسه أمام حالة غير مسبوقة من انتصار إسلامى مسلح (وإن كان جزئياً) على مؤسسة حكم رسمية (وإن كانت لا تمتلك شروط الدولة). إضافة إلى هذا كله، فإن عملية الحسم صاحبتها ممارسات فعلية وتصرفات رمزية شككت فى مؤهلات حماس لقيادة المشروع الوطنى، ابتداء من عمليات قتل ثأرى غير شرعية وغير قانونية، وتقديم الانتصار على الأجهزة الأمنية باعتباره انتصاراً عقائدياً، وقيام قناة الأقصى ببث خطاب تعبوى دينى، واختفاء العلم الفلسطينى عن المواقع التى سيطرت عليها حماس لعدة أيام، إلى تصوير الاشتباكات باعتبارها صراعاً بين الإسلام والكفر. منذ الاشتباكات السابقة على مؤتمر مكة، لم يعد هناك شك فى مقدرة حماس على الحسم العسكرى فى قطاع غزة. وعندما أخذ قرار الحسم مع الأجهزة الأمنية فى قطاع غزة، لم توضع العملية فى إطار وطنى بحت، يجعل من حماس وريثة لنضال وطنى طويل، من الحاج أمين الحسينى إلى ياسر عرفات، وحارسة لوحدة الشعب واتجاه بوصلته النضالية؛ بل كان أقرب إلى صراع فصائلى على الحكم.

بيد أن الحسم العسكرى فى قطاع غزة وما نجم عنه من انقسام فلسطينى كبير لا يجب أن ينظر إليه باعتباره حدثا غير مسبوق فى تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، أو أنه جاء نتيجة لمخطط انقلابى. شهد التاريخ الفلسطينى حدثين انقساميين لا يقلان خطورة عن أحداث يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، إن لم يفوقا تلك الأحداث: تمثل الأول فى انقسام الجسم الفلسطينى خلال الشهور الأخيرة من ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، عندما تحالف قطاع واسع من معسكر النشاشيبيين مع الاحتلال البريطانى ضد الثوار ومعسكر المفتى الحاج أمين الحسينى. وقد ساهم ذلك الانقسام، الذى شهد اشتباكات دموية وحوادث اغتيال متعددة، مساهمة مباشرة فى إخماد الثورة. أما الانقسام الثانى فقد تمثل فى تحالف جزء من قادة فتح العسكريين وبعض من مثقفيها، إلى جانب الجبهة الشعبية - القيادة العامة، مع سورية لطرد القوات الموالية لياسر عرفات من لبنان فى انشقاق فتح الدموى فى ١٩٨٣. فى كلتا الحالتين، كان ثمة خلافات سياسية عميقة وتدبير وتخطيط سبقا الانقسام الفلسطينى.[١١] خلف أحداث غزة ٢٠٠٧، كان هناك بالتأكيد خلاف سياسى جوهرى، وصراع مصالح ونفوذ، لكن انفجار الانقسام بالطريقة التى انفجر بها لم يكن مخططاً من أى من طرفى الصراع. والأرجح أن ما ذكره دحلان فى مقابلته مع معد تقرير «فانتى فير» الأميركية كان صحيحاً؛[١٢] بمعنى أن دحلان وقادة الأجهزة الأمنية فى قطاع غزة قدروا أن هزيمة حماس عسكرياً كانت هدفاً غير ممكن التحقق، وأنهم أرادوا بهجماتهم المتكررة على القوات الموالية لحماس خلق انطباع وهمى بقوتهم. المشكلة فى هذا التصور للأمور لم يكن فى فقدانه البعد الأخلاقى وحسب، بل وأيضاً فى فقدانه أى مستوى من الكفاءة الاستراتيجية. سفك الدماء لمجرد صنع انطباع وهمى فى صراع داخلى لم يكن له من مسوغ، بل كان عملاً غير أخلاقى بلا شك. ولكنه عبر عن سذاجة استراتيجية كذلك: فقد كان من البديهى أن يأخذ مخططو نهج الاشتباكات رد فعل حماس على الفوضى الدموية المصطنعة (والإصرار على تقويض حكومة الوحدة الوطنية) فى الحساب. وقد جاء رد فعل حماس كما هو معروف بالحسم العسكرى.

بالنسبة إلى حماس، ما ساعد على تخفيف وقع الأبعاد السلبية لعملية الحسم العسكرى فى القطاع، فلسطينياً وعربياً، أن الرئيس عباس سارع بعد هزيمة الأجهزة الأمنية إلى القيام بانقلاب دستورى على مجمل الأسس التى يرتكز إليها نظام سلطة الحكم الذاتى، وإلى إدارة ظهره كلية تقريباً للمطالب العربية الرسمية بالحوار الفلسطينى الداخلى، لاسيما تلك الصادرة من القاهرة والرياض. أعلنت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير قراراً بإقالة حكومة هنية، إعلان حالة الطوارئ، تشكيل حكومة انفاذ حالة الطوارئ، وإجراء انتخابات مبكرة.[١٣] ونظراً لأن القانون الأساسى الفلسطينى، الذى هو بمثابة دستور للحكم الذاتى فى الضفة والقطاع، لا يشرع لأغلب هذه الإجراءات، فقد نظر رئيس الوزراء هنية إلى أن القرارات غير شرعية، واعتبر حكومته لا تزال قائمة كحكومة تسيير أعمال. كلف الرئيس عباس الاقتصادى سلام فياض، الذى يحظى بتأييد أميركى وأوروبى، رئيساً لوزراء حكومة الطوارئ. وقد سارع الأخير إلى تشكيل حكومة من التكنوقراط والنشطين السياسيين السابقين، لاسيما من الموالين لياسر عبد ربه، نائب رئيس اللجنة التنفيذية. فى ٢٢ يونيو/ حزيران، وبعد أن أدرك الرئيس عباس صعوبة السيطرة على المجلس التشريعى، أصدر مرسوماً يلغى فقرة فى القانون الأساسى تنص على ضرورة موافقة المجلس على أية تعيينات وزارية.[١٤] بذلك، كان الرئيس قد أكمل انقلاباً مدنياً على أسس النظام الذى يرأسه. وكما كان الرئيس قد عمل على إحياء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير كمصدر شرعية مواز للمجلس التشريعى والحكومة على السواء، فقد سارع إلى إحياء المجلس المركزى للمنظمة كمؤسسة تشريعية بديلة بالكامل عن المجلس التشريعى.



لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية في إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، اتجهت الأزمة السياسية في غزة نحو التعقيد

تعرضت المؤسسات المدنية والخيرية وصناديق الزكاة المشكوك بصلاتها مع حركة حماس، أو التى يديرها إسلاميون، فى الضفة الغربية لحملة أمنية منظمة. اعتقل العشرات من مؤيدى حماس والجهاد، وأغلقت مدارس وروضات أطفال وجمعيات خيرية ومراكز خدمات اجتماعية وصحية. وأعطيت هذه الإجراءات صبغة قانونية بصدورها عن قرارات لوزارة فياض. وقد أطلقت حكومة فياض حملة واسعة للقضاء على مجموعات المقاومة المسلحة فى الضفة الغربية، بما فى ذلك تلك الموالية لحركة فتح. أصدرت حكومة فياض قراراً بإنهاء الجماعات المسلحة، وعرضت إغراءات مالية لكل من يسلم سلاحه؛ بينما وعدت بالحصول على عفو إسرائيلى عن العناصر المطاردة من القوات الإسرائيلية. بعض من الإجراءات التى اتخذت فى الضفة الغربية تم عبر ادعاء خشية إدارة رام الله من قيام حماس بالسيطرة على الضفة كما سيطرت على القطاع، ولكن بعضها الآخر عكس توجهاً حثيثاً لاستجابة رام الله لشروط التفاوض الإسرائيلية - الأميركية بقيام سلطة الحكم الذاتى بالتحكم الأمنى فى المناطق الخاضعة لها. وفى سياق تحضيرات السلطة لمستقبل غير واضح المعالم، اعتمد الرئيس الفلسطينى قانوناً انتخابياً جديداً فى مطلع سبتمبر/ أيلول، ألغى ثنائية العملية الانتخابية بقصرها على التمثيل النسبى للقوائم، واشترط التزام المرشح للانتخابات ببرنامج وسياسة منظمة التحرير الفلسطينية.[١٥]

ما بعد الانقسام

لم يكن من السهل، بالطبع، تجاهل الأخطار التى يمكن أن تنجم عن انفصال سياسى بين الضفة والقطاع؛ ولكن المرجح أن الرئيس الفلسطينى تعرض لضغوط أميركية وإسرائيلية كبيرة من أجل إبقاء حالة القطيعة مع حماس، ومع قطاع غزة كذلك. ولكن عباس فاجأ كافة الأطراف المعنية عندما أطلق فى الأسبوع الأول من يونيو/ حزيران ٢٠٠٨ دعوة إلى بدء حوار فلسطينى وطنى شامل، يعالج كافة الملفات الفلسطينية العالقة، بما فى ذلك القطيعة و الانقسام بين الضفة والقطاع. أثارت الدعوة أجواء من التفاؤل بالنظر إلى أن قلة فقط فى الساحة السياسية الفلسطينية تجد مصلحتها فى حالة الانقسام المستمرة منذ عام كامل بين غزة ورام الله. خلال الأيام القليلة التالية لصدور تصريح الرئيس الفلسطينى، تصاعدت الآمال وتراجعت طبقاً لردود الفعل العربية والدولية. ثم جاءت جولة عباس العربية، التى بدأت بزيارة الرياض والقاهرة، وتوكيد كل من قيادة السلطة وقيادة حماس على دور مصر المركزى فى إدارة عجلة الحوار الوطنى المرتقب، لتشير إلى أن الأمور فى طريقها إلى التحرك، وإن ببطء. السؤال الهام هو: لماذا أخذ عباس مثل هذه الخطوة وفى هذا الوقت بالذات.

منذ سيطرة حماس على قطاع غزة فى يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، قاوم الرئيس عباس كل دعوة فلسطينية أو عربية للحوار الوطنى ومحاولة العمل على تفاهم ينهى الانقسام الفلسطينى الداخلى، بما فى ذلك الدعوات من داخل حماس أو من أطراف فتحاوية. وحتى الرياض، والقاهرة على وجه الخصوص، كانتا ترغبان فى ألا تستمر حالة الانقسام وألا تتحول إلى أمر واقع. ولأن القاهرة والرياض تمثلان قوة الدعم العربية الرئيسة للسلطة الفلسطينية ولقيادة عباس، فإن عجزهما عن إطلاق عملية المصالحة أشار إلى أن العقبات لم تزل كبيرة، والجانب الأكبر من هذه العقبات تعلق بالموقف الأميركى - الإسرائيلى. فقد واجهت السياسة الأميركية خلال ٢٠٠٥-٢٠٠٦ نكستين متتاليتين فى منطقة المشرق العربى، إلى جانب الأزمة العراقية المستحكمة: أولها، كان فوز حماس فى الانتخابات الفلسطينية، وثانيها الهزيمة الإسرائيلية فى الحرب على لبنان. فى ٢٠٠٧، حاولت الإدارة الأميركية استيعاب النكستين، ومن ثم فرض التراجع على خصومها العرب. وعندما أجهض مشروع إطاحة حكومة حماس، تحولت سياسة الاستيعاب إلى المحافظة على الانقسام الفلسطينى الداخلى ومحاصرة غزة. أما الجانب الإسرائيلى فقد رحب بالانقسام بين غزة ورام الله لأن فيه إضعافاً للطرفين؛ ورحبت به الدوائر الفلسطينية المعادية لحماس لأنها اعتقدت أنه سينتهى بثورة شعبية فى غزة تضع نهاية لحركة حماس، أو تؤدى إلى إضعافها على الأقل. أما السلطة الفلسطينية، فقد قدمت لها وعود كبيرة بالتوصل إلى اتفاق سلام فلسطينى - إسرائيلى قبل نهاية ٢٠٠٨. وبالرغم من تردد العواصم العربية الرئيسية، وانتقاداتها المعلنة ونصف المعلنة لإطار أنابوليس، فقد اقتنعت على هذا النحو أو ذاك، بدعم عباس والمفاوضات التى يجريها وخيار الانقسام الفلسطينى ومحاصرة غزة، أو السكوت على هذا الخيار، مقابل إيجاد حل نهائى للمسألة الفلسطينية قبل اختتام ولاية الرئيس بوش.

بيد أن النتائج لم تأت كما ترغب الأطراف المختلفة، بل وأثارت أسئلة كبرى حول مصداقية سياسة الانقسام/ الحصار/السلام، ليس فقط فى الساحة الفلسطينية ولكن أيضاً فى المجال العربى المشرقى ككل. أخفق الحصار فى فرض الاستسلام على قطاع غزة؛ وبالرغم من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية الهائلة، ومن الضغوط العسكرية الإسرائيلية التى لم تنقطع عن نشر الموت والدمار، كانت الانتفاضة الوحيدة التى يشهدها القطاع هى الانتفاضة ضد الحصار. لا القوى الدولية، لا الأنظمة العربية، ولا الطبقة الفلسطينية السياسية، فهمت المزاج الشعبى الفلسطينى. ولكن الأمور لم تتوقف عند إخفاق سياسة الحصار، بل ورافق هذا الإخفاق تراجع حثيث فى أفق الوعود التى أطلقت قبل وأثناء مؤتمر أنابوليس. ثمة من رأى أن القبول العربى - الفلسطينى بعملية سلام لا مرجعية دولية لها سوى مرجعية الوساطة الأميركية كان خياراً محفوفاً بالأخطار منذ البداية. وهذا صحيح بالتأكيد، ولكن حتى الوعود التى أطلقتها واشنطن أخذت فى التبدد. ومع بداية صيف ٢٠٠٨، وعدم تبلور أى اتجاه أميركى للضغط على الإسرائيليين، واقتراب إدارة الرئيس بوش من محطة الأفول، بدأ عباس يدرك صعوبة التوصل إلى اتفاق سلام.

من جهة أخرى، واجهت الإدارة الأميركية عثرات كأداء فى ثلاثة مواقع أخرى بالغة الحساسية من المشرق العربى. فقد أثبت النظام السورى أنه أقدر على البقاء مما كان يظن قبل عام أو عامين، وسرعان ما فاجأ العرب والأميركيين بفتح خط تفاوضى مع الإسرائيليين عن طريق تركيا، بدون أن يخرج عن ثوابته التفاوضية المعروفة. وبغض النظر عن دوافع الطرفين الحقيقية من فتح هذا الخط التفاوضى، فليس ثمة شك أن المفاوضات مع سورية تؤشر إلى انحسار الجدية الإسرائيلية فى التفاوض مع الفلسطينيين. وفى لبنان، وبالرغم من تفاقم الأزمة الداخلية خلال شهر مايو/ أيار ٢٠٠٨، فقد أسفر تصاعد الأزمة عن حل فى مباحثات الدوحة، ولو جزئيا ومؤقتا، سمح بانتخاب رئيس للجمهورية والاتفاق على حكومة تآلف وطنى. وفى العراق، بدأ المقترح الأميركى لاتفاقية تنظيم العلاقات الأميركية - العراقية طويلة المدى فى مواجهة معارضة شعبية واسعة النطاق، عززتها ضغوط إيرانية معلنة على حكومة المالكى لرفض الاتفاق. المهم فى كل هذه الحالات أن الدور الأميركى الشرق أوسطى أظهر تراجعاً ملموساً؛ إذ أن ثمة شواهد على أن واشنطن فوجئت بحجم الوساطة التركية فى المفاوضات السورية - الإسرائيلية، كما أن اتفاق الدوحة كان فى جوهره انعكاساً لرغبة لبنانية وإرادة عربية. وبالرغم من الوجود العسكرى الهائل فى العراق، تبدو واشنطن وكأنها مجبرة على أخذ المعارضة الشعبية الوطنية والضغوط الإيرانية فى الاعتبار، بعد أن كانت فى موقع صاحب القرار المتفرد فى الشأن العراقى.

لم يكن من الصعب على القيادة الفلسطينية رؤية جملة المتغيرات المتلاحقة، وقد وصلت إلى قناعة بأن قبولها بحالة الانقسام لم يعد مسوغاً، لا على صعيد عملية التفاوض، ولا على صعيد البقاء الفلسطينى الوطنى. استمرار الانقسام بدون ثمن تفاوضى هو فى الحقيقة دفع بسياسة الرئيس عباس نحو الانهيار الكلى. وربما قدر الرئيس عباس أن الدعوة للحوار ستفيد فى كلتا الحالتين؛ فمن ناحية، تمثل الدعوة وسيلة ضغط على واشنطن وعلى الجانب الإسرائيلى لدفع عملية التفاوض المتعثرة إلى الأمام، ومن ناحية أخرى، تحفظ له

خيار التوصل إلى مصالحة وطنية حقيقية فى حال أخفق المسار التفاوضى. بيد أن المشكلة لم تكن فى جدية الدعوة وحسب، بل فى تصور كل من الطرفين الفلسطينيين لمادة الحوار الوطنى ومسائله، وللتحولات المتسارعة والملموسة فى الساحة الوطنية الفلسطينية.

على المدى القصير، يمكن رؤية جملة من الإشكاليات، أهمها بلا شك يتعلق بالموقف الأورو-أميركى، الذى يعبر عنه أحياناً من خلال اللجنة الرباعية، والذى يعمل باتجاه إبقاء حالة الانقسام من خلال وضع شروط تعجيزية على حماس. من ناحية أخرى، يعكس إصرار الرئيس عباس على ضرورة تراجع حماس عن «انقلابها»، وإعادة الأجهزة الأمنية إلى القطاع، تصورات غير واقعية للحوار الوطنى. إن كان مطلب «التراجع» شرطاً للحوار، فمن الصعب انطلاق هذا الحوار ابتداء، بعد أن أكدت حماس، ومعها عدد من القيادات والتنظيمات الفلسطينية الأخرى، أن الحوار الوطنى لابد أن ينطلق بلا شروط مسبقة. كما أن الدعوة إلى «تراجع» إدارة حماس فى القطاع عن مجمل الإجراءات التى اتخذتها بعد السيطرة على القطاع، بدون إشارة إلى تراجع إدارة رام الله عن الإجراءات التى تعهدتها، ينم عن مقاربة غير عادلة وغير متوازنة للملف الوطنى. الأوضاع فى قطاع غزة لن تعود إلى ما كانت عليه، ليس لأن حماس لا تريد وحسب، بل لأن أهالى القطاع يرفضون ذلك أيضاً. وليس ثمة شك فى أن عودة القيادة الفلسطينية إلى مطالبها السابقة بضرورة الموافقة على كافة الاتفاقات التى وقعت عليها منظمة التحرير، والإقرار بأن المنظمة فى صيغتها الحالية هى الممثل الشرعى والوحيد، سيشكل حجر عثرة كبيرا فى طريق الحوار. الأكثر واقعية وعقلانية، ربما، إطلاق عملية الحوار على مرحلتين: تعالج الأولى ما نجم عن حال الانقسام فى المنطقتين، ليس فقط على صعيد مؤسسات السلطة، ولكن أيضاً على صعيد القرارات ذات الطابع الدستورى والقانونى التى استهدفت العزل والتضييق السياسى، فى صورة مباشرة وغير مباشرة. وتعالج المرحلة الثانية كيفية التوصل إلى اتفاق حد أدنى بين كافة القوى والاتجاهات الفلسطينية حول إطار مرجعى للعمل الفلسطينى الوطنى. هذا إن كان لدى عباس من إرادة كافية لمواجهة الضغوط الخارجية، الإرادة التى تحتاج بالتأكيد دعماً وغطاء عربياً، لاسيما من مصر والسعودية.

ما أصبح واضحاً فى صيف ٢٠٠٨ أن الحوار الوطنى الفلسطينى بات حاجة لجميع الأطراف: حاجة لإدارة حماس فى غزة، التى يحيط بها وبالشعب حصار يشارك فيه العرب والعالم؛ وحاجة لإدارة رام الله، التى يخيب ظنها تدريجياً بوعود اتفاق السلام، والتى توشك على مواجهة استحقاق انتخابى رئاسى يستحيل إنجازه بدون عودة الوحدة بين جناحى سلطة الحكم الذاتى؛ وحاجة عربية، لأن العرب، وعلى رأسهم مصر، كانوا يقفون موقفاً لا يحسدون عليه فى منطقة فراغ قرار بين الشعب الفلسطينى، من ناحية، والدولة العبرية والحليف الأميركى، من ناحية أخرى؛ وحاجة فلسطينية وطنية جامعة بعد أن أصبح الانقسام عامل إضعاف للطرفين الفلسطينيين.

بيد أن الإشكاليات الأكثر تعقيداً هى تلك التى تتعلق بكيفية تعامل كل من فتح وحماس والجسم الفلسطينى السياسى عامة مع عملية التحول التى تشهدها الحركة الوطنية منذ أكثر من عقد. بدون مراجعة شاملة من كافة الأطراف المعنية، فحتى إن استطاع الفلسطينيون تجاوز حالة الانقسام الحالية، فإن المستقبل سيظل محفوفاً بأخطار الأزمات الداخلية المتكررة والانقسامات. ■

---

(١) حول الأزمات المتلاحقة التى واجهتها حكومة هنية، انظر بشير موسى نافع، «الوضع الفلسطينى الداخلى: سنة التغيير والحصار، فى محسن صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجى الفلسطينى: ٢٠٠٦ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والنشر، ٢٠٠٧)، ٢٨-٣٦.

(٢) نص الوثيقة فى السفير، ٢٧ مايو/ أيار 2006.

(٣) القدس العربى، ١٩ يونيو/ حزيران.2006

(٤) نافع، «الوضع الفلسطينى الداخلى».46-7

(٥) الحياة، ٧ و٨ يناير/ كانون ثانى.2007

(٦) الحياة، ٢٩ يناير/ كانون ثانى.2007

(٧) الشرق الأوسط، ٩ فبراير/ شباط.2007

(٨) الحياة، ٣ مارس/ آذار.2007

(٩) هآرتس، ١٧ إبريل/ نيسان.2007

(١٠) الشرق الأوسط، القدس العربى، الحياة، ١٢ يونيو/ حزيران.2007

(11) Basheer M. Nafi, Arabism, Islamism and the Palestine Question: 1908-1941 (Reading: Ithaca Press, 1998), 261-4; Sayigh, Armed Struggle, 561-73.

(12) David Rose, "The Gaza Vanity Fair, April 2008..Bombshell,

(١٣) الحياة، ١٥ يونيو/ حزيران.2007

(١٤) الحياة، القدس العربى، الشرق الأوسط، ٢٣ يونيو/ حزيران2007

(١٥) القدس العربى، ٣ سبتمبر/ أيلول.2007

كتاب الزاوية

التحدث بنعمة الله

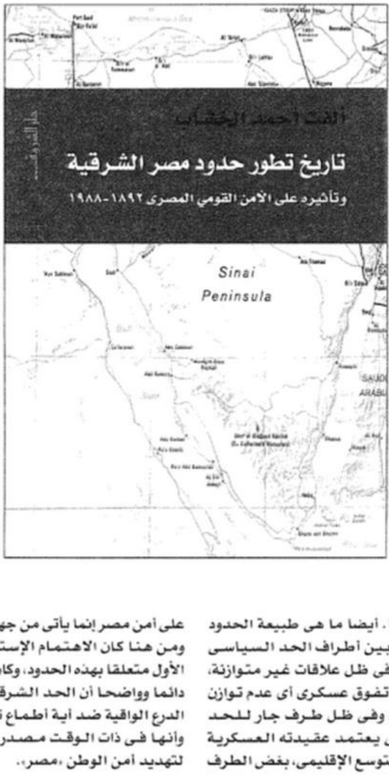
جلال الدين السيوطى

سيرة ذاتية، صاحبها عالم مصرى هو جلال الدين السيوطى. جاء اختيار العنوان (التحدث بنعمة الله) انطلاقًا من إيمان المؤلف بأن كتابة الإنسان تاريخ حياته هى نوع من الإقرار بنعمة الله عليه، إضافة إلى شكره عليها. الأمر اللافت فى هذه السيرة هو انصراف صاحبها الكامل إلى العلم، فالعلم وقضاياه والدفاع عن الصواب والحق ومقاومة الخطأ والباطل، وإعظام شأن الاجتهاد وتسفيه الركون إلى التقليد، والتمسك بأخلاق العلماء فى الخلاف والرد والمناظرة.. هى المحاور التى يدور عليها الكتاب. هذا إلى إشارات طريفة تؤكد أن مصر هى مصر.. بعظمتها وأخطائها.. عظمتها حين تنجب مثل هذا العالم الفذ، وأخطائها ـ المتكررة ـ التى يشير السيوطى إلى بعضها، كالسرقات العلمية وبيع الوظائف والبناء على شاطئ النيل بطريقة تضر بالنهر العظيم، تحقيقًا لقول الشاعر (من الحب ما قتل) وتأكيدًا لحقيقة أن بعضنا (يحب) مصر على نحو غير مفهوم.

وقد حقق الكتاب المستشرقة الغربية الدكتورة إليزابيث مارى سارتين، وكان التحقيق جزءًا من رسالتها للدكتوراة من جامعة كيمبردج عام ١٩٦٨. وصدر الكتاب ضمن سلسلة الذخائر للهيئة العامة لقصور الثقافة بمقدمة للدكتور عوض الغبارى أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب جامعة القاهرة. وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات من الكتاب.

حدود مصر

أطماع صهيونية قديمة



■■ إن الدراسات المتعلقة بالحدود السياسية للدول عامة، تعتبر من الموضوعات والمجالات البحثية التى مازالت تستغرق وتستحوذ على قدر كبير من اهتمامات الباحثين فى مختلف فروع العلم. يعزى ذلك إلى عدة اعتبارات: الاعتبار الأول المتمثل فى كون الحدود السياسية هى التى تعين النطاق الإقليمى الذى تباشر من خلاله الدول مختلف مظاهر السيادة بوصفها شخصا قانونيا ودوليا. الاعتبار الثانى: وهو المتمثل فى حقيقة أن الحدود الدولية تضطلع، ولا شك، بدور أساسى فى مجال تدعيم قوة الدولة سلبًا وإيجابًا. والاعتبار الثالث: هو الاعتبار الاقتصادى أى ما يحويه الإقليم الذى تعنيه الحدود من ثروات وموارد. الاعتبار الرابع: هو الاعتبار الجغرافى وهو العامل الثابت الخاص، بالموقع الجغرافى وانعكاساته بالنسبة لتدعيم أو إضعاف الأمن القومى. والاعتبار الخامس: هو الاعتبار الإستراتيجى والأمنى وهو يتمثل فى حقيقة أن المنازعات بشأن الحدود غالبا ما تؤدى إلى إضعاف الدول المتنازعة وتبدد مواردها.

إن دراسة الحدود الدولية هى مجال يحظى بأولوية كبيرة رغم التراجع النسبى المحدود فى أهمية هذه الحدود ووظائفها بفعل عوامل التقدم غير المسبوق فى علم الاتصالات على المستوى العالمى. والواقع أن التطورات النوعية العديدة التى شهدها المجتمع الدولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أخذا فى الاعتبار التطورات الراهنة فيما يسمى «النظام الدولى الجديد» أو العولمة، فقد طرحت تساؤلات عديدة لمستقبل الحدود السياسية الدولية عامة، وبالخصوص فى شأن العولمة وتأثيرها على الحدود الدولية ووظائفها. أيضا ما هى طبيعة الحدود الدولية بين أطراف الحد السياسى الفاصل فى ظل علاقات غير متوازنة، وفى ظل تفوق عسكرى أى عدم توازن تسليح، وفى ظل طرف جار للحد السياسى يعتمد عقيدته العسكرية سياسة للتوسع الإقليمى، بغض الطرف عن الاعتبارات القانونية والسياسية والتاريخية والجغرافية، وبغض النظر عن قواعد القانون الدولى التى استقر عليها المجتمع الدولى. وبالتطبيق على العرض السابق، نجد أن حدود مصر من جهة الشرق تحتل مكان الصدارة من بين حدودها الدولية على مختلف الجهات. ولا تقتصر أهميتها الإستراتيجية على الخبرة التاريخية فحسب بل تستمدها من كونها الحد الوحيد مع دولة غير عربية باعتبار أن الحد الشمالى يتعلق بالبحر المتوسط.

لقد أثبت التاريخ دوما أن الخطر على أمن مصر إنما يأتى من جهة الشرق، ومن هنا كان الاهتمام الإستراتيجى الأول متعلقا بهذه الحدود، وكان الإدراك دائما وواضحا أن الحد الشرقى يمثل الدرع الواقية ضد أية أطماع توسعية، وأنها فى ذات الوقت مصدر رئيسى لتهديد أمن الوطن «مصر».

حقيقة لقد تعرضت مصر لبعض الاعتداءات والحملات العسكرية من اتجاه الغرب، ويثور أحيانا قدر من المنازعات حول حدود مصر الجنوبية، واتخذت الحدود الشمالية «البحر المتوسط» قاعدة لانطلاق أعمال عسكرية عدائية عن طريق البحر، ولكن، تبقى دائما الحدود الشرقية هى مصدر الخطر الدائم على أمن مصر، وقد ثبت ذلك تاريخيا وتأكد ورسخ بعد أن أصبحت هذه الحدود تفصل بين مصر وإسرائيل وهى تمثل تكتلاً بشريًا وعرقيًا وثقافيًا مختلفًا، وتمثل قاعدة استعمارية هدفها الأصلى «مصر» وممارسة دورها من على أرض فلسطين. أيضا ارتبط الحد الشرقى لمصر بالصراع العربى الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٧ وحتى اليوم.

إن الهدف من هذه الدراسة هو البحث فى المراحل التاريخية لنشأة الحد الشرقى المصرى، وتأصيل هذه المراحل لإثبات أن هذا الحد وهو يبدأ من نقطة رفح على البحر المتوسط فى خط مستقيم تقريبا إلى نقطة على خليج العقبة رأس طابا وتبعد ٣.٧٥ ميل عن ميناء أم الرشراش على الخليج، هو حد مصر الذى مارست عليه السيادة الكاملة وفق الاعتبارات العسكرية والجغرافية والسياسية والتاريخية والديموجرافية.

إن أهمية هذه الدراسة إنما تأتى فى كونها دراسة تاريخية وثائقية مرفقة بتحليل سياسى واف لدحض أى ادعاء بحقوق فى أرض شبه جزيرة سيناء، ولدحض فكرة التشكيك فى مصرية سيناء كاملة، ولدحض أى ادعاء بحق تاريخى أو حق دينى أو حق سياسى، أو حل سياسى تحت جميع المسميات الإنسانية لتسوية قضية العرب.

لذلك تناقش وتعرض البدايات الحقيقية لأزمة فرمان ١٨٩٢، وأصولها التاريخية وأسبابها السياسية، كما تناقش الدراسة ما هى الأسباب الحقيقية وراء صناعة الخط الحدودى الشرقى لمصر، وهل أضافت اتفاقية ١٩٠٦ لمصر أراضى أم أنها وثقت الحد الفاصل بين الممتلكات العثمانية والممتلكات المصرية؟ هل تمت الاتفاقية برضاء الطرفين، وفق القواعد الدولية المعمول بها فى تعيين وتعليم الحدود الدولية، وهل اتصفت هذه الحدود بالدولية ونالت الاعتراف الدولى؟ هل مارست مصر سيادتها كاملة؟ هل هذا الخط الحدودى أو الحد الفاصل أدى إلى عزل مصر، وهل هذا الحد هو صناعة بريطانية استعمارية؟ لماذا لم تجر

تاريخ تطور حدود مصر الشرقية وتأثيره على الأمن القومى المصرى (١٨٩٢ - ١٩٨٨)
د. ألفت أحمد الخشاب
دار الشروق ٢٠٠٨ - ٥٣٦ ص

الشـــرقيـــة

ألفـــت أحمـــد الخشـــاب

بريطانيا. وهى دولة الانتداب على فلسطين، ودولة المحتل فى مصر. أية تعديلات على الحد الشرقى. وما هو موقف وزارة الخارجية المصرية الثابت تجاه هذا الخط الحدودى؟ هل الحد السياسى بين مصر وفلسطين فى ظل وجود إسرائيل كان رادعا ضد أى عدوان، وما هو الموقف الدولى تجاه تجاوز إسرائيل عام ١٩٤٨، وعام ١٩٥٦، وعام ١٩٦٧، وعام ١٩٧٣ حتى معاهدة السلام المصرية. الإسرائيلية ١٩٧٩. ما هى أهم ملامح معاهدة السلام فى البنود الخاصة باسترداد شبه جزيرة سيناء كاملة السيادة؟ هل قيمة الخط الحدودى فقط فى علاماته الحدودية المرقمة، أم أن قيمة الخط الحدودى تنبع من قوة الدولة بالمفهوم الشامل؟

اعتمدت هذه الدراسة على عدة نقاط تتمثل فى قراءة التاريخ قراءة حركة إنسانية، وهو حركة تغير وتطور، أى أن مادة التاريخ العلمية متسعة للرصد والتسجيل للحصول على صورة متكاملة الأحداث. أيضا إن دراسة علم التاريخ باعتباره. ملفاً أغلق. ليس مفصولاً عن الحاضر، وإنما بداخله جزء ديناميك ونشط، فإذا ما أحسن قراءته ودراسته، يمكن التفاعل مع الحاضر، ويمكن استشراف المستقبل. لاشك أن تاريخ الأمم يمثل مخزوناً هائلاً ومتراكماً وهو مدد فكرى، ومعين لا ينضب، لذا لا يجب أن يتجمد، وإنما لابد أن يتفاعل مع كل معطيات العصر. للتطبيق على ما سبق، فإن الدراسات التاريخية لتطور الحدود السياسية هى إحدى وسائل تكريس مشاعر الوطنية والولاء، وهى وسيلة لاستنفار الوجدان المصرى لأهمية حدوده السياسية وزيادة وعيه القومى، ووعيه بالتهديدات التى تواجه مصر وبالخصوص الحد الشرقى لكونه الحد الوحيد مع دولة غير عربية تعتمد عقيدتها السياسية والعسكرية على التوسع الإقليمى وفرض الهيمنة.

إن هذه الدراسة ترتكز على الوثائق البريطانية، ومن ثم يمكن استشعار قيمة وأهمية الوثيقة التاريخية كمرجعية هامة، فإن الحقوق لا يمكن الحفاظ عليها، أو استردادها فى حال فقدانها، فقط بالقانون والجغرافيا والسياسة والآلة العسكرية، وإنما لابد من مرجعية تاريخية ووثائق لها مكانة هامة ولعبت دورا فى تاريخ الأمم. هذا بالتحديد ما يبدو واضحا من دراسة تاريخ تطور الحد الشرقى المصرى، حيث إن الأمر ذو طبيعة شديدة التعقيد، لماذا؟ أولا: لأن طبيعة الحد ذات طابع قانونى، جغرافى، وسياسى وعسكرى وتاريخى وديموجرافى، ثانيا: لأن الطرف المجاور للحد هو إسرائيل ولديها من الأطماع التوسعية سواء فى البر أو البحر الكثير، لكى تتمكن من الهيمنة على المنطقة العربية بمواردها الغنية المتنوعة، مما يؤهلها لتكون قوة إقليمية لها دور فاعل فى الهيكل الدولى، ثالثا: هناك فارق هائل أن يكون الطرف المجاور للخط الحدودى عربيا، لأن طبيعة وأهداف أى نزاعات حدودية عربية. عربية مختلفة كل الاختلاف، وهى عادة ما تثار لأسباب داخلية، أو أسباب شخصية أو لأسباب اقتصادية، أو لأسباب لم يراع فيه الخط الحدودى الطبيعة الديموجرافية للمناطق الفاصلة، وبالنهاية يمكن تهدئة هذه النزاعات الحدودية العربية. العربية بشكل ودى. دون حل جذرى ونهائى. ولكن تظل بين جنبات أمة عربية واحدة. ما عدا حالة العراق، معنى هذا أن هناك فارقًا هائلاً بين أن تكون دول الجوار الحدودى عربية، أو أن تكون إسرائيل ملاصقة للخط الحدودى وهى فى حالة استعداد وتأهب للفوز بغنيمة من الأرض العربية.

ولا شك أن شبه جزيرة سيناء لها أهمية قصوى، فهى جناح مصر الشرقى، وهى الجناح الأسيوى الذى يربط قارة آسيا بقارة أفريقيا، ولاشك أن المصريين بذلوا كل نفس ونفيس من أجل سيناء، ونحن نجهل الكثير عن تاريخ سيناء، وعن تاريخ صناعة الحد السياسى الفاصل بين مصر وفلسطين، ونجهل الكثير عن جغرافية سيناء وخيراتها ومواردها، التى تفوق المعلومات المتاحة كقرى ومنتجعات سياحية شهيرة مقصورة على طبقة شديدة الثراء. إننا نتغنى بأرض الفيروز، ونفخر بتضحيات أبناء الوطن حفاظا على سلامة مصر الإقليمية، دون أن نعتنى بدراسات تاريخية، وسياسية تغذى الفكر الوطنى المصرى وتغذى مشاعر الانتماء الوطنى، والفكر القومى العربى.

وتحتوى هذه الدراسة على سبعة فصول تمتد تاريخيا منذ عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٨٨، أى على مدى قرابة القرن. يتناول الفصل التمهيدى، وهو فصل مفاهيمى يتعرض لمفهوم الحدود السياسية وأنواعها وتصنيفاتها ووظائفها، كما يستعرض الحدود فى الأديان، مع تعريف بتاريخ وجغرافية شبه جزيرة سيناء، ويتناول الفصل الأول الخلفية التاريخية للمسألة الشرقية والمسألة المصرية ونظام توازن القوى الأوروبية، وكيف أثرت المسألة المصرية على النظام الأمنى الأوروبى، وهو ما يعتبر الخلفية التاريخية والسياسية الحقيقية وراء التدخل الأوروبى ضد مصر، وهى البداية الأساسية لتحجيم دور مصر ومشروعها العربى، ومن ثم محاولة الشد والجذب بين الدولة العثمانية والقوى الأوروبية بشأن مصر مما أدى إلى إصدار فرمان ١٨٩٢ حيث ينتقص من مصر أغلب شبه جزيرة سيناء، والفصل الثانى يستعرض كيف أصبحت شبه جزيرة سيناء ساحة للصراع الدولى حيث إنها البعد الإستراتيجى لقناة السويس، ويتناول بالتفصيل أزمة طابا الأولى ١٩٠٦ التى أدت إلى تعيين وتعليم الحد الفاصل الإدارى بين الممتلكات العثمانية والممتلكات المصرية وهو ما يتناوله بالتفصيل اليومى من خلال الوثائق البريطانية عن كيفية مسح وتعيين الحد الفاصل، وكيفية سير المفاوضات الرسمية وصولا إلى اتفاقية ١٩٠٦، مع التوضيح لطبيعة هذا الحد الفاصل، ويتناول الفصل الرابع تداعيات أزمة طابا الأولى ١٩٠٦ على الرأى العام المصرى الذى تأرجح بين مظاهر الوطنية القطرية والولاء الدينى للدولة الإسلامية المركزية، وأثناء الحرب العالمية الأولى، لعبت شبه جزيرة سيناء دورا هاما مما أدى إلى تغيير وضع مصر السياسى، كما مارست دورا مختلفا أثناء الحرب العالمية الثانية، وزادت أهمية شبه جزيرة سيناء من المنظور الإستراتيجى والأمنى وبخاصة بعد ظهور إسرائيل على الساحة الدولية، ومقيمة على أرض فلسطين العربية وهذا ما يتناوله الفصل الخامس بشأن إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية، وكيف أن شبه جزيرة سيناء جزء أصيل فى الفكر الإسرائيلى التوسعى، وهو ما ظهر واضحا فى تصريحات بن جوريون بعد العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦. ويستعرض الفصل السادس أزمة النظام الثورى المصرى وكانت شبه جزيرة سيناء هى الثمن. ويستعرض كيف تواطأت الإدارة الأمريكية مع الهدف والداخل الإسرائيلى لضرب التيار القومى العربى فى مصر، وضرب مصر الدولة القائد للمنطقة العربية.

كانت هزيمة حرب يونيو ثمنا فادحا تحملته مصر بسبب الداخل المصرى المأزوم، وبسبب المواقف العربية ضد التيار القومى. كما يتناول هذا الفصل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة، وكيف أثرت على أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، وكيف حطمت ثوابت فكرية إسرائيلية وهزت المجتمع الإسرائيلى ودفعته لإعادة حساباته بشكل واقعى وحقيقى.

ويتناول الفصل السابع والأخير كيف أن استرداد شبه جزيرة سيناء كاملة السيادة، وأن الحفاظ على سلامة مصر الإقليمية حتى الخط الحدودى. وفق اتفاقية ١٩٠٦. بين مصر وفلسطين كان هدفا مستمرا للسياسة الخارجية المصرية، ومن أجل ذلك أقدمت مصر على مفاوضات سلام وعقدت اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة سلام مع إسرائيل.

واستطاعت مصر إجبار إسرائيل على التراجع خلف حدود مصر الدولية، رغم أن

لإسرائيل محاولات عديدة للإفلات بغنيمة من الأرض وبخاصة فى منطقة رأس النقب وطابا . ودارت معركة بأدوات وآليات مختلفة لا تقل شراسة عن حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وحصلت مصر على أراضيها كاملة وأذعنت وتراجعت إسرائيل خلف حدود مصر الدولية عام ١٩٨٨.

أما الخاتمة فتشتمل على ملاحظات وتوصيات عامة خاصة بشبه جزيرة سيناء، وكيف أنها هدف مستمر للتوسع الإسرائيلى، وكيفية إكساب هذا الجناح الشرقى المصرى مناعة حقيقية تكون درعا حاميا لسلامة مصر الإقليمية، وسلامة المنطقة العربية.

الصهيونية وحدود الدولة اليهودية

قامت الحركة الصهيونية السياسية على أساس الإيمان بأن اليهودية ليست مجرد ديانة، وإنما حركة علمانية للرد على نزعة العداء للسامية، ودعوة مقاومة الاندماج، حيث ترى أن اليهود يشكلون عنصرًا متميزًا بجنسه وثقافته وتاريخه، وبالتالى هم يكونون شعبا له الحق فى وطن مستقل يشملهم ولهم الحق فى تكوين دولة. استهدفت الصهيونية السياسية التأكيد على أن اليهود أمة واحدة مهما اختلفت أعراقهم وجنسياتهم وهم يشكلون شعبا، كما استهدفت إضفاء صفة القومية على هذا الشعب، ثم إنشاء الدولة اليهودية تمارس سيادتها على الشعب اليهودى فى الوطن اليهودى. كان الهدف الأكيد للصهيونية السياسية هو إنشاء الدولة اليهودية بغض النظر عن أية اعتبارات خارج أوروبا أو داخلها مثل قضية اضطهاد اليهود، تلك الورقة الرابحة التى أحسنت الصهيونية السياسية استغلالها والترويج لحركتها(١).

قبل التعرض للفكر الصهيونى اليهودى التوسعى، لابد من الإشارة إلى عدة محددات(٢) لعبت دورا مؤثرا فى الفكر الصهيونى بشأن حدود الدولة اليهودية، منها الإمكانيات البشرية والاقتصادية التى تؤثر على النشاط الصهيونى للإقليم المراد الاستيلاء عليه، أيضا تواؤم وتشابك المصالح المشتركة بين الحركة الصهيونية والدول الاستعمارية، إضافة إلى رد فعل المقاومة تجاه الاستعمار الاقتلاعى الاستيطانى الصهيونى، وإحلال يهود ذوى جنسيات مختلفة أو أعراق وثقافات وبيئات متباينة بدلا من شعب واحد له تاريخ أصيل على أرضه.

رغم أن الأفكار الصهيونية الخاصة بحدود الإقليم المزمع استيطانه ليكون وطنا قوميا لليهود لم تتبلور إلا اعتبارًا من عام ١٩١٧، إلا أنه يمكن رصد الكثير من الأفكار الصهيونية التى تعكس التطلعات الإقليمية لقادة الفكر الصهيونى.

بدأت إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية التى تؤصل للأطماع اليهودية منذ عام ١٦١٩ كدعوات فكرية تؤهل مشروعاتها للاستيطان فى شبه جزيرة سيناء، وعليه يمكننا رصد الكثير من الأطروحات الفكرية الصهيونية التى تعكس التطلعات الإقليمية لقادة الفكر الصهيونى، ثم يمكننا رصد المحاولات اليهودية الفعلية لاستيطان شبه جزيرة سيناء.

فى عام ١٦١٩ نشر السيد هنرى فنش كتابه بعنوان «نداء اليهود» ليكون أول دعوة فكرية علنية لإنشاء وطن قومى ليهود العالم. كما نشرت رسالة بعنوان «إلى إخوانى فى الدين» طالب فيها كاتب الرسالة بإقامة دولة يهودية تمتد حدودها من عكا إلى البحر الميت، ومن جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر، وطالب بضم جنوب مصر.

أما الحاخام زفى هيرش كاليشر ١٧٩٥ - ١٨٧٤، فقد نشر كتابه «البحث عن صهيون» ودعا فيه إلى استيطان فلسطين بمساعدة دولية عن طريق إنشاء منظمة تقوم بشراء الأراضى الزراعية، وهاجم التدين وانتظار المسيح، كأسلوب لحل المشكلة اليهودية، وطالب اليهود بأن يبحثوا عن قوميتهم مثل الإيطاليين والمجريين وغيرهم(٣). كما شاركه فى فكرة البحث عن الهوية القومية لليهود (موسى هيس ١٨١٢ - ١٨٧٥)(٤) وأصدر كتاب «روما والقدس» عام ١٨٦٢، وأعلن رفضه لفكرة الاندماج والذوبان فى المجتمعات، وطالب بالاقتناع بوجود قومية يهودية. كما دعى لورانس أوليفانت إلى استعمار سوريا الجنوبية، وقد أعد كتابا عن فلسطين، وأرفقه بخريطة تشتمل على نطاق لهذه الدولة حيث تمتد من جبيل إلى غزة على طول الساحل، ومن بعلبك مرورا بدمشق ومنطقة الجولان وحوران حتى طريق قوافل الحج المتجهة صوب مكة والحجاز(٥).

كما أصدر ليوبنسكر ١٨٢١ - ١٨٩١ كتابه «التحرر الذاتى» والذى قال فيه: إن التحرر الحقيقى يكمن فى خلق قومية يهودية يعيش شعبها على أرض محددة. فقد تحول ليوبنسكر وهو طبيب روسى، يهودى من إيمانه بفكرة الاندماج إلى التعصب اليهودى القومى بسبب حوادث ١٨٨١ - ١٨٨٢.

لم تكن شبه جزيرة سيناء بغائبة عن فكرة الكاتب أرثور ستانلى «فى سيناء وفلسطين» عام ١٨٥٦، وأرفق بكتابه خريطة لكل من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حيث يرى الوطن القومى لليهود يمتد من صيدا على ساحل البحر المتوسط ودمشق فى الداخل حتى رأس محمد جنوب شرم الشيخ حتى خليج السويس.

أما المحاولات الفعلية ذات المرجعية التوراتية، ويمكن أن نطلق عليها محاولات فردية، فقد بدأت منذ عام ١٥١٧. شعر السلطان سليم الأول عقب دخول مصر بالأطماع اليهودية فى سيناء فأصدر فرمانًا للحد من أطماع اليهود، ثم ألحق سليمان القانونى هذا الفرمان بآخر مؤكدًا الأول وذلك عام ١٥٢٠. ولكن لابد من رؤية الموقف العثمانى فى إطاره الحقيقى، فالدولة العثمانية قد اعتمدت ومارست مبدأ التسامح الدينى إزاء أهل الكتاب، واستوعبت اليهود المطرودين من أسبانيا وبريطانيا فكانت ملاذا ووطنا بديلا. لاشك فى أن هناك فارقًا هائلاً بين استيعاب الدولة العثمانية لمضطهدين ومطرودين من بلادهم، وبين السماح لهم باستيطان واستقطاع جزء من الممتلكات العثمانية لصالح جماعة دينية محددة.

وبعد وفاة سليمان القانونى، تولى سلاطين ضعاف، فنشطت الأطماع الصهيونية لتجد لها ثغرات للتسلل، وبدأت موجات متتالية للهجرة اليهودية إلى الطور، ويطلق على هذه الموجات الاستيطانية جماعة إبراهام، وقد نجحت فى التسلل فى صمت وهدوء حتى لا تثير حفيظة الدولة العثمانية، وتفطن إليهم، لولا حادثة عارضة، فقد اشتكى رهبان دير سانت كاترين إلى السلطان العثمانى لتعرضهم للأذى من جماعة إبراهام وتم طردهم، ومن ثم صدرت ثلاثة فرمانات منذ عام ١٥٨١ إلى ١٥٨٥ لمنع الهجرة اليهودية.

ومع ما سبق، لم تتوقف محاولات التسلل اليهودية إلى شبه جزيرة سيناء لاستيطانها. ففى عصر محمد على وتحت شعار البحث عن الفحم الحجرى، حضر عدد من المهندسين الإنجليز إلى مصر، ولكن بعد البحث والتدقيق فى أغراضهم الحقيقية، تأكد أن الهدف هو إقامة مستعمرة تجارية فى الطور، فأمر محمد على بمنع بيع ولو شبر واحد من الأراضى لهذه البعثة.

أيضا محاولة بول فريدمان عام ١٨٩٠ الذى حاول استيطان بعض الأراضى فى جزيرة العرب وبالتحديد فى المويلح «مدين» على ساحل البحر الأحمر وعلى مقربة من خليج العقبة. فقد اختار الرجل موقعا ساحليا لأهميته، ويتوسط الأرض العربية ليمتد وطنه ليضم شبه جزيرة سيناء، وخليج العقبة ويكون على مقربة من فلسطين، أى امتدت رؤية

بدأت إرهاصات الفكر الصهيونى بشأن إقامة الدولة اليهودية التى تؤصل للأطماع اليهودية منذ عام ١٦١٩ كدعوات فكرية تؤهل مشروعاتها للاستيطان فى شبه جزيرة سيناء

فريدمان الواسعة لتشمل مساحة شاسعة ضمت جزءاً من جزيرة العرب، وشبه جزيرة سيناء وخليج العقبة بإطلالته على البحر الأحمر. كان الرجل طموحا متطلعا معبرا بشدة عن معتقدات وطموحات اليهودية تجاه وطنهم القومى المزعوم، مستوحيا رؤيته للوطن من التوراة. فقد نشر كتابا بعنوان «أرض مدين» طارحا إمكانية استعمار هذه الأرض، وطرح فكرة حفر قناة تربط بين حيفا والبحر الأحمر عن طريق العقبة لضرب وتحطيم أهمية قناة السويس كممر دولى وبالتالى ينزع عن مصر إحدى مميزاتها الحيوية، وما تدره عليها من أموال طائلة، علاوة على ضرب بروز مصر كدولة لها شأن فى العلاقات الدولية. ولكن وبناء على شكوى من عربان المنطقة من سوء معاملتهم بالإضافة إلى خشيتهم على أراضيهم، فقد تم طرد فريدمان وجماعته المسلحة وفشلت محاولاته الاستيطانية فى المويلح، وهى نقطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر وكانت تحت الإدارة المصرية فى القاهرة. ومن ثم أصدر السلطان عبد الحميد ثلاثة فرمانات لمنع الهجرة اليهودية، وإعادة المتسللين إلى بلادهم الأصلية.

شبه جزيرة سيناء فى الفكر الصهيونى

ازدادت المطامع الاستعمارية بشبه جزيرة سيناء لكونها خلفية إستراتيجية لحماية قناة السويس. تحركت تلك المطامع مع المطامع الصهيونية، ووضع اليهود أنفسهم فى خدمة الاستعمار البريطانى أملا منهم فى تحقيق أهدافهم بالمساعدة على توطيد أركان الاستعمار، وسعت الصهيونية متمثلة فى تيودور هرتزل فى تحقيق وطن قومى لليهود فى شبه جزيرة سيناء لتجمع غالبية يهود العالم.

استغل هرتزل مشكلة هجرة اللاجئين اليهود المضطهدين فى أوروبا الشرقية وروسيا، والمتدفقين على بريطانيا، وعرض على الحكومة البريطانية فى يونيو ١٩٠٢ الدخول فى مفاوضات من أجل الحصول على أرض يتجمع فيها اليهود المضطهدون. كان هرتزل يعلم جيدا أن بريطانيا برئاسة حكومة المحافظين فى مأزق، ولا يمكنها إيقاف الهجرة بمقتضى السياسة الليبرالية التى هى من تقاليد الإمبراطورية، وذلك أيضا ما سيعارضه الرأى العام البريطانى. أما الجانب الآخر والأكثر إلحاحا على حكومة المحافظين، فإن الأفواج اليهودية المتدفقة على المجتمع البريطانى سوف تساهم بشكل سلبى على مشكلة البطالة بين العمال البريطانيين[٦].

قدم هرتزل حلا للحكومة البريطانية وهو تحويل وترحيل هذه الأفواج اليهودية المهاجرة إلى إنجلترا إلى منطقة يتفق عليها بشرط أن تكون صالحة لاستيطان اليهود لإقامة وطن قومى. بداية كرر هرتزل طلب استيطان قبرص وذلك بالتنازل عنها من قبل بريطانيا لليهود، ثم يقايض اليهود قبرص بفلسطين وفق ما جاء فى مؤتمر بازل الخامس. وكان هذا القرار قد صيغ بعبارات غامضة مثل «تسعى الصهيونية إلى تحقيق وطن قومى لغالبية اليهود فى فلسطين وفى الأراضى المحيطة بها تلك التى تؤمنها من جميع الوجوه»[٧].

وترى الدراسة أهمية قصوى لهذا القرار، حيث يمثل هدفا إسرائيليا . بعد قيام إسرائيل، مستمراً حتى الآن. لم يكن هدف الصهيونية فلسطين فقط، وإنما أراض محيطة بها، أى يمكنها الاستيلاء على أجزاء من لبنان ومن سوريا، ومن شرق الأردن وشبه جزيرة سيناء، إضافة إلى قبرص تلك النجمة الذهبية فى البحر المتوسط وهى مركز إستراتيجى فى غاية الأهمية. وهدف الصهيونية هو تحقيق الأمن المطلق، لأنها تعلم أن عملية استيطان يهودى يعنى اقتلاعاً عربياً، يعنى خلق أعداء محيطين بهذا الكيان الاستيطانى الغريب.

تقدم هرتزل إلى اللورد رودتشلد وعرض مطلبه لإنجلترا بالتنازل عن أحد الممتلكات البريطانية لصالح إنشاء مستعمرة يهودية فى الأماكن التالية: شبه جزيرة سيناء «فلسطين المصرية»[*]، قبرص.

فشلت المفاوضات بشأن قبرص[٨] سواء مع الحكومة البريطانية لاعتبارات إستراتيجية لصالح بريطانيا، ولاعتبارات ديموجرافية خاصة بالتكوين السكانى لجزيرة قبرص. كما فشلت المحاولات الصهيونية مع الحكومة العثمانية سواء بالضغط أو بغواية المال والذهب.

ولكن استمرت المفاوضات هذه المرة بين الصحفى اليهودى جاكوب جرينبرج ووزير المستعمرات البريطانى جوزيف تشمبرلين المعروف بنزعاته الاستعمارية، وأيضا المعروف بميوله المعادية لليهود. كانت المفاوضات بشأن العريش وشبه جزيرة سيناء[٩]. كان جوزيف شمبرلين يرغب بشدة فى التخلص من اليهود القادمين إلى بلاده والاستفادة بهم فى الخارج. ولكن لأن شبه جزيرة سيناء ليست فى دائرة اختصاص وزير المستعمرات، وإنما فى دائرة اختصاص المعتمد البريطانى فى مصر وهو اللورد كرومر. تبنت الحكومة البريطانية المشروع الصهيونى رغم كونهم من الممتلكات العثمانية. كانت الحكومة البريطانية تعتبر وجود الأعداد المتزايدة من اليهود القادمين من روسيا وأوروبا الشرقية تهديدا للمصالح البريطانية، لذا كان مشروع استيطانهم فى شبه جزيرة سيناء يخدم المصالح البريطانية، ويساهم فى مد النفوذ الاستعمارى نحو فلسطين فى حال الانهيار القريب للدولة العثمانية، كما لوح هرتزل بتولى الدولة اليهودية مهمة حماية الضفة الشرقية لقناة السويس، ومهمة عزل مصر عن الولايات العربية المشرقية.

عرض هرتزل المفاوضات الجارية على المؤتمر الصهيونى السادس فى أغسطس ١٩٠٣ فى مدينة روزيك. وأقرها المؤتمرون داعين إلى التفاوض المباشر مع الحكومة المصرية، مع السعى للحصول على توصيات من الحكومة البريطانية بتحقيق هذا الغرض. وتدعيما للآمال الصهيونية اقترحت الحكومة البريطانية على هرتزل إيفاد بعثة فنية إلى مصر لدراسة المنطقة، وتحديد صلاحيتها لإنشاء مجتمع بشرى. كما زودت المستر جاكوب جرينبرج بالتوصيات اللازمة. وكاتبت وزارة الخارجية البريطانية اللورد كرومر تطلب منه استقبال البعثة الفنية، وتقديم جميع المساعدات والتسهيلات للقيام بمهمتها، وبتمهيد السبيل أمامها مع الحكومة المصرية. كانت وجهة النظر الصهيونية هى أن شبه جزيرة سيناء هى دولة المستقبل، فهى المكان المناسب لأنها مركز شبكة الخطوط الجديدة للعالم، وسوف تشارك مع قناة السويس الدور، وقد تحل محلها للوصول بين أفريقيا وآسيا وأوروبا. ■

كانت الحكومة البريطانية تعتبر وجود الأعداد المتزايدة من اليهود القادمين من روسيا وأوروبا الشرقية تهديدا للمصالح البريطانية، لذا كان مشروع استيطانهم فى شبه جزيرة سيناء يخدم المصالح البريطانية

هـــوامـــش

(١) أحمد طربين، فلسطين فى خطط الصهيونية، والاستعمار، ١٨٩٧ ـ ١٩٢٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٥ .

(٢) عادل محمود رياض، الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٧ .

٣) أحمد طربين، فلسطين فى خطط الصهيونية، والاستعمار، ١٨٩٧-١٩٢٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٠ .

(٤) محمد عبد الرؤوف، الصهيونية فى مائة عام، محاضرات، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٩ .

(٥) سعد رزوق، إسرائيل الكبرى، سلسلة كتب فلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٨، ص٦٢ .

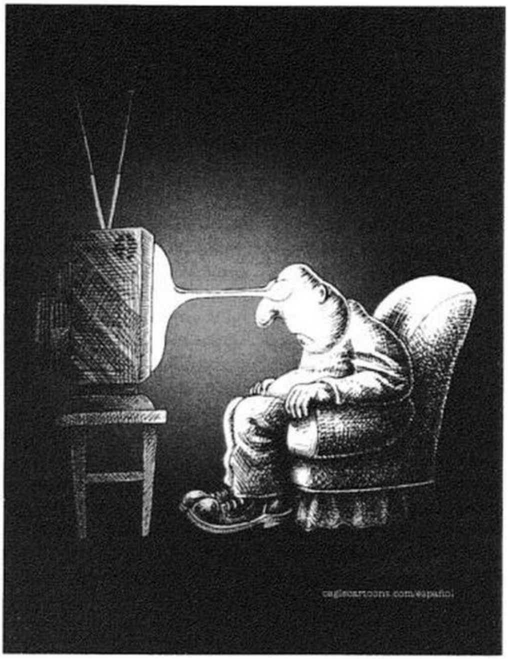
(٦) صموئيل أتينجر، اليهود فى البلدان الإسلامية (١٨٥٠-١٩٥٠)، عالم المعرفة، ١٩٧٤، ص١٠ .

(٧) إبراهيم أمين غالى، مرجع سابق، ص٢٦٦ .

(*) كثيرا ما يطلق على شبه جزيرة سيناء «فلسطين المصرية» فى الأدبيات الإسرائيلية وبعض قليل من الأدبيات العربية. انظر، مها بسطامى حدود فلسطين والسيادة فى سيناء، شئون فلسطين، عدد ٢٠٢ .

(٨) المرجع السابق، ص: ٢٦٧ : ٢٦٨ .

(٩) أحمد طربين، مرجع سابق، ص٧٥ .



إعلام الفضيحة

مارك دانر

إن الفضيحة هي الصناعة النامية في دولتنا. فالكشف عن دلائل الآثام لا يفضي إلى تحقيق وعقاب وتكفير واضح لا لبس فيه إنما إلى المزيد من الفضائح. فضيحة دائمة. فضيحة مجمدة. أسلحة دمار شامل اتضح عدم وجودها. تعذيب لمعتقلين سوف يمكثون معتقلين إلى الأبد. فصل نائب عام سوف يظل قيد التحقيق إلى ما لا نهاية. إن هذه الفضائح وغيرها من فضائح مجمدة أخرى تنبث وتتشعب وتكرر نفسها بنفسها كي تستنسخ البرامج الإخبارية في الفضائيات وعالم المدونات والمكتبات. قصة تدغدغ المشاعر دون أن تصل إلى حد قط، حوار طويل لا نهاية له بين المختصين، هدية لا تكف عن العطاء؛ فالمستعصي على التدمير والتحليل والتكفير ذو قيمة يجب أن تتحول إلى مصدر للربح. إن فضيحة لا يكفر عنها المذنب ولا تقبل الحل لا بد أن تتجاوز الواقع السياسي لتصبح حقيقة تجارية.

يستحضر العديد منا عهداً مختلفاً. ومهما نظرنا إلى ماضينا السياسي بعين السخرية، سوف نجد فيه جنتنا السياسية: فيتنام ونتيجتها على المستوى المحلي المتمثلة في ووترجيت، ذروة فضيحة مختلفة أنهت حرباً وقوضت رئيساً. ومع التطلع إلى الماضي سوف تتكشف تلك الأحداث بمنطق واضح خليق بحلم من أحلام المدينة الفاضلة. في البداية الكشف: يفضح صحفيون جسر جرائم سقيمة متشابكة اقترفتها إدارة نيكسون. وبعدها التحقيق: ليس بواسطة الصحافة فحسب - فهي لم تكن إلا نذيراً، الشرط الأساسي - لكن من قبل الكونجرس والمحاكم. وعليه فإن تحقيقات الحكومة عملت من خلال مؤسساتها على بناء قصة حقيقية كالحة يمكن للمواطنين جميعهم قبولها. وفي النهاية التكفير؛ إصدار الأحكام واقتياد السياسيين في الأصفاد إلى السجن ثم الانغماس المفرط في التوبة أمام العامة. نسيان العار وتطهير النظام السياسي والعودة إلى دولة سمتها الاحترام الاجتماعي مهما خلت من كمال.

لا شك أنها أسطورة لكنها أسطورة جميلة. تستند إلى مفاهيم القوة والصحافة وشعب ينسجم مع ما نتوق إليه جميعاً - العدالة والبطولة والخير المطلق الكامن في شعب يصر بمجرد تحذيره من إثم على تقويم الأوضاع. تقف عقبة واحدة أمام هذا التطهير الذاتي الطبيعي لحياتنا السياسية، ألا وهي جهل الناس. لأنهم لو أحاطوا بالفساد وتتابعت الفضائح، كيف لنا أن نطلق عليهم خيرين؟ لا، لا بد أن المفقود إذن هو الوضوح والصراحة حسبما توحي الأسطورة. المفقود هو الحراس على جهلنا الواجب عليهم تعرية الفضيحة وإظهار كل شيء أمام الناس، ومن ثم وضع الدولة على طريق عدالة لا تشوبها شائبة. المعلومات هي كل شيء. إذ تؤدي المعلومات بالإضافة إلى إحساس الناس الطبيعي بالخير والحق إلى الكفارة والتطهر المحتوم للمجتمع.

ومهما تعنت صانعو الأساطير في مجتمعنا - ولا سيما الصحفيين الذين يمثلون في النهاية نجوم هذه الدراما المثالية - في التمسك بهذا السيناريو السعيد، لم يبد التاريخ الحديث وداً تجاهه. فهو يتكل على صورة صحفيين وصحافة صارت على أقل تقدير عتيقة، صحفيين ناكرين للذات في سعيهم إلى الحقيقة ودفاعهم عن ضمير المجتمع: لو صدق هذا الوصف حتى أثناء ووترجيت، فهو بالكاد يشبه الآن العالم المتاجر بالفضيحة في برامج الفضائيات وحوارات المثقفين المطولة. عالم تقدم فيه الفضيحة - التي كلما زادت اشتعالاً زادت جمالاً - حكايات ضخمة معقدة تجسد قوام الحياة لدوائر الأخبار على مدار الساعة. ومثلما تسببت حرب الخليج الأولى في بزوغ قناة سي إن إن على الساحة، كذلك أبرزت شفتا مونيكا لوينسكي العابستان قناة فوكس نيوز.

كلما تعقدت الفضائح واغتنت حبكتها، تجملت وتواصلت واستمرت. إن الفضائح توفر الوقود لمواجهات تجري على الهواء مباشرة وكذا الهجوم اللفظي وردود الأفعال عليه - وهو ما يبرع فيه التليفزيون باعتباره وسيلة شنيعة لتوصيل أية معلومة معقدة برخص التراب. فالفضائح تزود المتفرجين بالحبكة الفرعية والشخصيات الثانوية والنتائج غير المتوقعة. وتزود الصحفي البطل المشهور المهندم زميل الأقوياء بالمسرح الحقيقي للممارسة المثلى لفنه، أستوديو التليفزيون. وهل من الممكن أن تبتعد الحقيقة عن مسرحية هاوارد هوكس Howard Hawks مساعدته His Girl Friday (١٩٤٠)؟

إن هذا الفن يعتمد على الفضيحة، أو على أية حال يزدهر بها. فالفضيحة تنم عن النجاح. تدل على أن الشخص المعني ينجز عمله على خير وجه. الفضيحة ما هي إلا مصدر للثروة. فهي تمثل حلم عصر الإعلام، القصة الأبدية. يمكن إفراغ الفضيحة في قالب جديد، ويمكن إثارة الجدل حولها وتصويرها من مصدرها الرئيسي حتى عملية القبض على المتهمين وجلسات الاستماع والمحاكمة والاستئناف. تقدم الفضيحة تياراً لا نهائيا لما تسعى إليه التجارة في النهاية: الأخبار. فكما يقول الناس: ما هو الجديد؟ تجلب الفضيحة فورة تضخ معها القلوب الدماء ويتجرع بها الناس الأنفاس، فورة من حماسة بلا انقطاع، حتى نعلم أن آلهة الأحداث الجسام أقبلت أخيراً من الأعالي كي تتداخل في عالمنا المنحل. تجسد الفضيحة الحركة، تجسد التصدع المسموع للثلوج. ومع ذلك فهي وهم الأوهام، فأسفل القطار المتحرك سريعاً لآخر الأخبار، المصحوبة بالدعاية المبهرجة، أسفل كل المجادلات الهامة اللاهثة أمام أعمدة المباني العامة، أسفل سلسلة الأوهام الحلزونية للفضيحة يكمن نوع من الركود البائس. كل شيء يتغير ولا شيء يتغير.

جثسيماني Gethsemane
مسرحية من تأليف ديفيد هير افتتحت بالمسرح القومي بلندن في نوفمبر ٢٠٠٨.
«جثسيماني» في الكتاب المقدس هو بستان في شرق أورشليم كان المسيح يتردد إليه طلباً للعزلة. وهو الآن مكان مقدس لأنه كان مكان القبض عليه من قبل الرومان.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

«داربـبـالـي، «يـا إلـهـي، إنـهـا لـن تـفـلـت بمـا ارتـكـبـتُـه» لـكـنـك أفـلـت...»

جشـيمانى

«ثمة شيء خطأ... ثمة شيء خطأ تماماً. لا يسعني أن أحدد إذا ما كانت حكومتك هي العرَض أم أنها المشكلة الوسخة. أيا كانت، فهي قبيحة...»

جشيمانى

ليست المعلومات هي المعضلة، إنها السياسة. لو كنا تعلمنا أي شيء خلال هذا العقد الفائت فهو أن «الشعب» ذلك المستودَع المتباهي من الحق العام - «يكتشف دوماً الحقيقة» - أن الشعب مستعد وقادر على التعايش مع الكثير والكثير. إنهم يقرءون المطبوعات ويشاهدون التليفزيون ثم ينصرفون إلى حيواتهم. والفضل يعود إلى عصر الفضيحة في معرفتنا الحالية لما قد يتعايش معه العامة. «لقد أظهرتَ الآن استقلالية، استقلالية جديرة بالثناء» هكذا أبلغ باراك أوباما جون ماكين أثناء مناظرتهما الثالثة، «فيما يخص بعض القضايا الأساسية - التعذيب على سبيل المثال». لقد تم مسخ صورة التعذيب خلال هذه السنوات القليلة الماضية ليتحول من جريمة حرب مقيتة إلى «قضية رئيسية»، من شيء تحرمه الاتفاقيات الدولية ويدينه القانون المحلي إلى... شيء يدور حوله الجدل. شيء يمكن للمرء أن ينحاز إليه أو عنه. شيء بمقدورنا التعايش معه.

أما قصة كيفية حدوث هذا فطويلة ومعقدة لكن الجلي هو أنها لم تقع بسبب الافتقار إلى الصراحة. تفجرت فضيحة أبو غريب في ربيع عام ٢٠٠٤. وسرعان ما أصبحت صور الرجل ذي القلنسوة والرجل ذي المقود والكلب وهو يهدد الرجل صوراً «رمزية»، لتغدو أبرز اللقطات الإخبارية في نهاية العام وتتحول إلى لوحات جدارية باهتة على حيطان المدن الصغيرة بالشرق الأوسط. وفي تلك المرة الأولى والأخيرة التي تجلى فيها التعذيب واضحاً، بزغت الفضيحة المثمرة - مع اعتبار التعذيب بفضل الصور من أثمن المنتجات: الفضيحة المتلفزة - في ربيع وصيف ٢٠٠٤ لتخلف محصولاً من الصور والوثائق المُسرّبة. إن تلك الوثائق - المئات من الصفحات التي روت بالتفصيل الممل الدقيق قصة مسئولين أمريكيين، بدءاً من الرئيس وحتى الأقل منه نفوذاً، أمروا الأمريكيين بتعذيب المعتقلين في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر - ما لبثت أن نشرها صحفيون وكُتّاب، وأنا من بينهم، توقعوا ولا شك أن تلحق بها سريعاً لجان التحقيق وجلسات الاستماع المتلفزة والأحكام بالسجن.

وعندما وقع ما وقع، أجريت التحقيقات بالفعل، اثنا عشر تحقيقاً أو أكثر، وقد ساهمت كثرتها نفسها في تحويل القصة من جريمة مذهلة إلى خبر لا نهاية له ثم إلى قصة ثانوية وفي النهاية إلى «قضية رئيسية». لكن بالنسبة لحفنة من الجنود قليلي الحظ - أصغر السمك الصغير - لم تعقد محاكمات فعلية ولم يلتقط المصورون صوراً لمسئولين كبار تكبلهم الأصفاد. لا بد أن خيبة أمل عميقة نزلت بمسربي الصور المخاطرين بمستقبلهم من أجل إذاعة هذه الوثائق أمام العامة. إذ اتفق أنهم قد ارتكبوا واحدة من أفدح جرائم العصر: المثالية غير المحمية. وهكذا استمر التعذيب المعلوم وغير المعلوم في جوانتانامو و«المواقع المظلمة» والعديد من الأماكن حول العالم فيما تراءت المحاكم وكأنها تتمسك بأفكار أخرى. وفي غضون كل هذا أجاد المراسلون نقل القصة ولا سيما في الجرائد - فبعد هذه الفورة من الصور التي سرعان ما أضحت أكليشيهات، لم تظهر أية قصة مثيرة بما يكفي لترتفع إلى المستوى الذهبي للقصة المرئية المتلفزة - وعليه توالى نقل الفضيحة حتى عندما دلفت إلى مرحلة التحول المعقدة الغامضة التي استحالت فيها جريمة الحرب إلى «قضية رئيسية».

لا بد من الإقرار بأن العامة - ذلك المستودَع من الحق - أبدوا اهتماماً قليلاً نسبياً هي أثناء كل هذا. وكذلك حذا السياسيون حذو ناخبيهم. أتى جون كيري، المرشح للرئاسة في أعقاب «أبو غريب»، بالكاد على ذكر المسألة. (وعليه فإن اعتراف باراك أوباما «بالقضية الرئيسية» مهما كان عرضياً يُعتبر تقدماً واضحاً).

الحق أن أوضح آثار لجوء أمريكا الرسمي إلى التعذيب على الضمير العام خلال هذه الفترة هي النجاح الساحق لمسلسل ٢٤ الذي تعرضه قناة فوكس. فقد ضمت كل مجموعة من الحلقات في ذروتها حالة تعذيب واحدة على الأقل وأحياناً العديد من حالات التعذيب الرهيبة التي ترعاها الحكومة. إذ يقوم العميل الخارق جاك باور - العامل على إنقاذ البلد من كارثة وشيكة - بكل ما يقدر عليه في سبيل إنجاز المهمة. أنا شخصياً أُفضل مشهداً يأمر فيه الرئيس كبير عميلي الاستخبارات بتعذيب مدير وكالة الأمن القومي لشكه في خيانته داخل بدروم البيت الأبيض باستخدام صادم كهربائي يدوي على حين يتفرج القائد الأعلى للقوات المسلحة على الأحداث من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة. ربما لا ينبغي أن تُوقع فينا هذه الحماسة الدهشة: فقد وقفنا من قبل على الأثر المطمئن لصورة السلطة المنحلة على العامة، على الأقل منذ نجاح فيلم كلينت إيستوود Clint Eastwood هاري القذر Dirty Harry (١٩٧١). غير أن هاري كان شرطياً شاذاً عن غيره يهيج ضد «النظام» في مستهل العقد الثامن من القرن العشرين؛ أما جاك باور فهو يعمل عند الرئيس مباشرة كما ذكرنا المسلسل مئات المرات.

«لذلك فإن عمل المرء في السياسة مثير غاية الإثارة في هذه الأيام. أسف، لكنك لا بد أن تثق بنا. فلا خيار آخر لديك.»

جشيمانى

لا يمكن أن تكتمل أية ملاحظات عن الفضيحة بدون ذكر فضيحة عصرنا الكبرى الأساسية، الحرب. إن المرء لا يستخدم الأحرف الغليظة للإشارة إلى مجموعة من الأحداث المنفصلة - مجموعة أناس تقتلهم أو تفجرهم أحداث عنيفة محددة خلال أوقات محددة - إنما للإشارة إلى حالة عقلية. لم يعد الخطر مجرد درع سياسي لكنه صار في نهاية الأمر ما هو أخطر: صار مصدرا لتبرير الذات يتعذر فهمه. لا يكمن الخطر في إصرار قادتنا المتصل أنهم على حق بل في اعتقادهم أنهم على حق. إذ صرح جورج بوش للعالم بجملته المؤكدة الفخورة أنه قد ولد ثانية «كرئيس حرب».

ألقى جورج أورويل George Orwell نظرة شاملة على هذا الموضوع منذ أمد طويل في روايته الأشهر ١٩٨٤، في حربه السرمدية بين إستيجيا ويوريجيا وأوشيانيا، صراع أبدي لا يسلم المنخرطون فيه من التبدل والتحول. صراع لو حكمنا عليه استناداً إلى معايير الحروب السابقة، سوف يلوح مجرد دجل وخداع. فهو أشبه بمعارك تنشب بين حيوانات مجترة بقرون مضبوطة في زوايا معينة يعجز معها الحيوان عن جرح الآخر. لكن على الرغم من افتقار هذه الحرب إلى الواقعية فهي لا تعدم المغزى... فهي تساعد في الحفاظ على جو عقلي خاص يحتاجه المجتمع الهرمي.

يعد محتلو قمة «المجتمعات الهرمية» الحروب قيمة هائلة لأنهم يزودون السلطة بأساس منطقي حيوي لبقائها وتعاظمها. وفي الوقت ذاته يكبحون الأسئلة ولا سيما بتقييد معلومات يجب أن تعتمد عليها هذه الأسئلة. لا شك أن الحرب على الإرهاب لم تخل مطلقاً من الدماء، فقد جسدت نفسها في حربين «حقيقيتين» على الأقل - شُنت واحدة منها في أفغانستان كرد فعل مباشر على الهجوم؛ والأخرى في العراق لتحقيق أهداف أقل تحديداً وأكثر عجرفة - وكذلك جسدت نفسها في عدد ضخم من عمليات سرية ذات مطامح متباينة جرت «في الخفاء». ومع ذلك برغم عدم انحصارها مكانياً وزمنياً وكونها أساساً منطقياً ملائماً لا ينضب للسلطة المركزية المتزايدة، اقتربت الحرب على الإرهاب أكثر ما اقتربت حتى الآن من حرب أورويل الأبدية المتخيلة لتفاقم سلطة الحاكمين الملازمة للحرب إنما بدون خسائرها اللا نهائية. ربما تعرضوا لتلك الخسائر لولا أن جلبت الحرب في أذيالها فضيحتها المجمدة.

«ثمة إحساس عام بالغرابة - حروب تستمر إلى الأبد بلا هدف. وسياسات ما هي إلا لغة منمقة... لا علاقة لها بالحقائق...»

جشيمانى

كيف سيختار التاريخ تفسير حرب اندلعت بغرض تخليص العالم من أسلحة للدمار الشامل تبين عدم وجودها؟ إنه سؤال معذب. هل ستحتل حرب العراق مكانتها بوصفها أعجوبة تاريخية إلى جانب حرب جوانو في القرن التاسع عشر وحرب كرة القدم في القرن العشرين؟ وكيف سيهتم أبناؤنا برد فعل حكومتنا الديمقراطية: إجراء تحقيقات بطيئة للغاية شأنها شأن ديناصورات ترفع نفسها من حفر الوحل. وبعد سنوات من المجهود المتثاقل - مئات الساعات من الشهادات وفحص آلاف الوثائق - اكتشفت... ماذا؟ في النهاية لا وجود للأسف «لأي دليل».

إنها إرث آخر لووترجيت، تلك الصورة الملتقطة لعرضها في عصر أبسط، حينما تمكن رجل مخادع كريتشارد نيكسون بكل لا مبالاة من تسجيل كل كلمة نطق بها. وفي عهدنا الأقل سعادة، بمقدورنا أن نتأمل مذكرة داونننج ستريت Downing Street Memo الواضحة البينة وأعداداً لا حصر لها من وثائق مشابهة تسربت سريعاً من أصحاب السلطة. لكننا قد نجدها وفقاً لقواعد لعبة الفضيحة ضخمة ضخامة وواضحة وضوحاً لا يمكن معها أن تعني لأي شخص طبيعي ما تعنيه بالضبط، الا وهو أن أصحاب السلطة - الراغبين في الحرب لا الدبلوماسية والعاملين باجتهاد من أجل «خداع صدام» لشن الحرب كما توضح مذكرة داونننج ستريت بمنتهى الجلاء - كذبوا علينا لتوريطنا في الحرب. وقد تورطنا الآن في حرب لا ضرورة لها ولا نهاية لها.

لا ريب أن «قانون الدلائل القاطعة» ينهي إلينا بأن تلك القضية، مهما اتضحت حقيقتها لأعيننا جميعاً، لا يمكن إثباتها قط إثباتاً لا يتطرق إليه الشك. (في حال عدم اكتشاف شريط تسجيل نسمع فيه الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني وهما يقهقهان كالشياطين على تمثيلية كبرى يوشكان على ارتكابها في حق جماهيرهما). يعني قانون الفضيحة المجمدة أن القضية لا بد أن تظل مفتوحة على الدوام، «مزعومة» على الدوام، وقوداً لا ينضب لآلاف التقارير وآلاف الاكتشافات التي تكشف ما هو معلوم بالفعل. هل تعجز عن سماع عجل الفضيحة الدائر؟ إنه موسيقى عصرنا. ■

فى الدفاع عن الاقتصاديين



توماس هوبز
١٥٨٨ - ١٦٧٩

زكي سالم

قبل عددين نشرت «وجهات نظر» مقالا مهمًا للدكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد. وقدمنا له بأنه «يعود بكاتبه إلى أكاديميته» ليستكمل مابدأه قبل سنوات بكتابه المهم «كشف الأقنعة» عن نظريات التنمية الاقتصادية. وتوقعنا أن المقال الذي ضمه كتاب صدر لاحقا عن «دار الشروق» من شأنه أن يثير جدلا أكاديميا «مطلوبا»... وقد كان.

هنا تعقيب و«مناقشة» لما ورد في المقال/ الكتاب من أفكار.

وجهات نظر

هذا أحدث كتب الدكتور جلال أمين، وعنوانه بالكامل «فلسفة علم الاقتصاد - بحث فى تحيزات الاقتصاديين وفى الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد».

وأول ما نتوقف أمامه هو ما يقوله المؤلف عن استخدامه لكلمة «فلسفة»، إذ يذكر أنه يستخدمها بمعنى تلك النظرة أو الرؤية الخاصة التى رأى من خلالها العالم رواد علم الاقتصاد الأوائل، أو طريقة الاقتصاديين فى النظر إلى الأمور، ونوع نظرتهم إلى النشاط الاقتصادى.

أما العنوان الفرعى فهو منهج الكتاب وطريقته فى التعامل مع الرؤى الاقتصادية المختلفة عبر تاريخ هذا العلم الحديث نسبيا، فالكتاب فى الحقيقة لا يقدم فقط عرضا لفلسفة علم الاقتصاد، ولكنه دراسة نقدية فى الأسس التى قام عليها هذا العلم، أو هو بحث دقيق فى نظرية المعرفة بالمعنى الفلسفى، ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى العلاقة بين «أم العلوم» وعلم الاقتصاد، فكل منهما قائم على نسق متماسك من الأفكار أو التصورات العقلية، ولذلك ليس غريبا إن كان أبو علم الاقتصاد من رجال الفلسفة، ففى عام ١٧٧٦م، ظهر كتاب آدم سميث (Adam Smith) أستاذ الفلسفة فى جامعة جلاسجو والمتخصص فى علم الأخلاق «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم» An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations

وقد عد هذا الكتاب بداية لظهور علم جديد هو علم الاقتصاد.

والحديث عن الفلسفة والمنطق يدعونا للإشارة إلى التناقض الواضح فى تعبير د. جلال «الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد»، إذ كيف يبنى علم على أسس غير علمية؟! وإذا صح كلامه أن علم الاقتصاد قام على أسس غير علمية، فهل يصح أن نطلق عليه اسم علم؟!

ويتضمن هذا الكتاب بداخله بحثا آخر عن طبيعة العلاقة بين علم الاقتصاد وعلم الأخلاق الذى يعد التخصص الدقيق لآدم سميث، ففى دراسة د. جلال سعى دائم إلى فهم أعمق للإنسان ومتطلباته، وثمة محاولة إلى الوصول لدرجة أكبر من الحكمة فى التعامل مع الموارد الطبيعية وثمرات العمل الإنسانى.

بداية من المقدمة يقرر المؤلف أن للاقتصاديين تحيزات وأهواء، فيما يدعون إليه من سياسات اقتصادية، وفيما يقدمونه من نظريات تقصر عن الإحاطة بالحقيقة! وهذا كلام يثير فى الذهن سؤالا فلسفيا، وهو: من الذى يمكنه أن يحيط بالحقيقة؟!

أما تأثر الفكر الاقتصادى بالأحوال الاقتصادية، والظروف الاجتماعية، ومجموعة الأفكار والمفاهيم السائدة فى عصر ما، أو فى مجتمع ما، فهذا أمر طبيعى ولابد منه، إذ إن الاقتصاد كعلم لم ينشأ فى أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر، إلا بسبب نشأة تحيزات جديدة، وهذه التحيزات والأهواء لم تكن أكثر من عواطف جياشة، أو معتقدات عامة، أو أفكار مسبقة اعتنقت بلا دليل، واعتبرها هؤلاء الاقتصاديون من المسلمات التى لا تحتمل الجدل، ومازال علم الاقتصاد، كما يدرس اليوم، يحمل نفس الملامح التى كانت له فى نشأته الأولى! وكل هذا الذى يؤكده المؤلف مراراً وتكرارا يعد جزءا من طبيعة العلوم الإنسانية جميعا.

ويأمل المؤلف فى تحرير علم الاقتصاد من قيود استمر مكبلا بها لأكثر من ثلاثة قرون، وإذا كان هذا الأمل - فيما أرى - بعيد المنال، فإبراز بعض التحيزات غير العلمية للحضارة الغربية الحديثة، يساهم فى تحرير أبنائنا من الاعتقاد بعمومية هذه الحضارة، ومن الاعتقاد بصلاحية كل ما نأخذه منها كمسلمات نافعة لكل زمان ومكان.

وبعض أفكار هذا الكتاب المهم أختلف معها اختلافا كبيراً، فحينما يعبر المؤلف بلغة شديدة الجمال والجاذبية عن شعوره - وشعور بعض طلابه فى الجامعة - بخيبة الأمل فيما تعلموه من علم الاقتصاد الذى اتضح لهم أنه ليس علما أصلا، كالبناء الجميل المقام على رمال متحركة، أى على أسس غير علمية، ومن ثم شعر الطلاب مثلما شعر أستاذهم بالتحرر منه، وكأنهم كانوا فى أسر حب جارف نحو شيء غير جدير بهذا الحب، وبعد اكتشاف عدم جدارته، انطلقوا أحرارا! وأصبحوا على استعداد لرؤية وتقدير أوجه الجدارة والاستحقاق فى أشياء أخرى جميلة، لم يمنعهم من رؤيتها من قبل غير ذلك الحب الأعمى القديم!

فهل يتناسب مثل هذا الكلام الرومانسى مع التحليل النقدى لأسس علم من العلوم؟! وهل علاقاتنا بعلم الاقتصاد هى علاقة حب أعمى؟! أم أن طبيعة التطور العلمى أنه قائم على الفحص والنقد والتمحيص من أجل تعديل المنهج وتصحيح الرؤية؟

فكلما تقدمنا خطوات فى نقد مناهج البحث

فلسفة علم الاقتصاد «بحث فى تحيزات الاقتصاديين وفى الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد»
جلال أمين
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨



Edmund Burke



Adam Smith (1723-1790)



David Hume (1711-1776)



Montesquieu (J1689-1755)



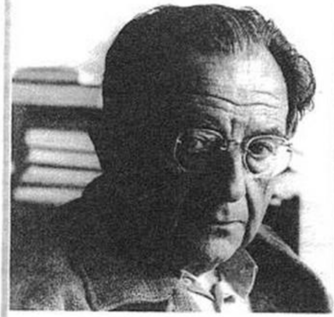
Sir William Petty (1623-1687)



A-R-J Turgot (1727-1781)



Jean Jacques Rousseau (1712-1778)



Erich-Fromm



Knut-Hamsun-Postcard (1910)

العلمى، كلما اقتربنا أكثر من المنهج العلمى السليم القادر على أن يقربنا من الحقيقة، وكلما كشفنا بعض نقاط الضعف فى جانب من جوانب النظرية الاقتصادية، كلما اقتربنا أكثر من الوصول إلى رؤية اقتصادية أكثر صحة، ودقة، وشمولا.

هذا، وأتفق تماما مع ما قاله د. جلال من أن صاحب التحيز هو أقل الناس قدرة على اكتشافه، ومن ثم فالكشف عن هذه التحيزات وهذه الأسس غير العلمية، وإبرازها له فائدة كبيرة، ولا تقل عن فائدة دراسة علم الاقتصاد نفسه، لأنها جزء مهم من هذا العلم، وهو يسعى - من خلال هذه البحوث والدراسات النقدية - إلى تصحيح مناهجه وتطوير نظرياته.

وعالم الاقتصاد لا يرى الأشياء نقية صافية، ولكنه يراها كما يراها سائر البشر، مختلطة بما فى ذهنه من أفكار مسبقة وبما فى قلبه من مشاعر دفينة. ونحن عادة نتبنى هذه الأفكار والمشاعر كمسلمات لا تقبل المناقشة، لا نشك فيها ولا نتفحصها للتحقق من صحتها، ومن ثم فمن أصعب الأمور أن يكتشف المرء تحيزاته الخاصة التى يحملها معه كمسلمات، وهذه المواقف المسبقة مواقف شخصية أو ذاتية لا موضوعية. وهنا يذكر المؤلف تعريف كارل بوبر karl Popper للكلام العلمى بأنه ذلك الكلام الذى توجد طريقة لإثبات إذا كان خاطئا. ومن ثم فكثير مما يفرضه الباحث على الظاهرة محل البحث، لا يمكن اعتباره من قبيل الكلام العلمى.

وهذا الإقحام لمشاعر وأفكار وتحيزات مسبقة على الظاهرة التى نقوم ببحثها، وما يترتب عليه من تأثيرات على نتائج البحث، يبدو وكأنه أمر حتمى لا فكاك منه، على الأخص فى العلوم الاجتماعية، ولعله أيضا أمر حتمى فى أى علم من العلوم بما فى ذلك العلوم الأكثر انضباطا وموضوعية. ومن ثم فالمطلوب فى البحث العلمى ليس غياب التحيزات والأفكار المسبقة، فهذا يكاد يكون مستحيلا، لكن فى الوقت نفسه لا يصح أن نطلق العنان لتحيزاتنا وأهوائنا ثم نتمسح بثياب العلم! بل المطلوب فقط الاهتمام بمراعاة الأمانة العلمية والنزاهة العقلية.

ويشير د. جلال إلى ظاهرة نراها فى بعض الكتب والرسائل الجامعية التى تعترف فى المقدمة أن الظاهرة محل البحث تعود إلى عوامل كثيرة، أو تحدث آثارا عديدة غير العوامل أو الآثار التى يناقشها البحث، ثم يهمل أصحاب هذه الكتب والرسائل هذه الحقيقة المهمة فى بقية الكتاب أو الرسالة! وهكذا تسقط العوامل والآثار الأخرى من حساب القارئ كما سقطت من حساب الباحث بسبب تحيزاته واهتماماته الخاصة.

وتتجلى التحيزات والأفكار المسبقة فى أمور عدة، كنوع الأسئلة التى يختار الباحث إثارتها والبحث عن أجوبة عنها، وكذلك نوع الإجابة المقدمة عن السؤال المطروح، ثم اختلاف موضع التأكيد الذى يركز عليه الباحث أو الأهمية التى يوليها لعامل من العوامل دون غيره، وأيضا الطريقة التى يختارها الباحث لتصنيف العناصر أو الظواهر التى يقوم ببحثها. وأخيرا لنتأمل فى اللغة التى يستخدمها الباحث عند إجراء البحث وحينما يعرض نتائجه، لنتبين مدى خضوع البحوث العلمية لأثر اللغة والتعبيرات المستخدمة، ولنتأكد أنها أكثر بكثير مما نتصور، لأننا - كما يقول المؤلف - وثنيون أكثر بكثير مما نظن، بمعنى أن لدينا ميلا إلى التعبير عن الأفكار المجردة وكأنها أشياء محسوسة، أى تجسيد المجردات فى محسوسات، وهذا الاستخدام للصور المحسوسة يفسح مجالا واسعا لنقل التحيزات والأفكار المسبقة من الكاتب أو المتكلم إلى القارئ أو المستمع.

وفى صفحة (٣٨) يعلق المؤلف على التطور الذى حدث بظهور كتاب سميث الشهير «ثروة الأمم» بقوله: لم يكن بالضبط هجرانا لمواقف غير علمية فى شرح الظواهر الاقتصادية وإحلالاً للموقف العلمى محلها، بل كان فى الحقيقة أقرب إلى إحلال نظرة غير علمية محل نظرات أخرى غير علمية بدورها. ثم فى صفحة (٤٠) يتحدث عن الجزء التقدمى أو الأقرب إلى روح العصر الحديث الذى تبناه سميث فى كتابه وأضاف إليه وجعله أكثر علمية! وطبعا المؤلف كان يقصد هنا شيئا، وهناك شيئا آخر، ولكن الأمر كان بحاجة إلى ايضاح أكثر.

أما الظروف التى نشأ وترعرع فيها علم الاقتصاد فظروف خاصة جدا، ذات سمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتكنولوجية معينة، لبلاد بعينها، فى فترة تاريخية محددة، وبالتالى يصعب تكرارها بحذافيرها فى بلاد أخرى، أو فى فترات تاريخية مختلفة.

وهذه السمات تعكس أهواء مجتمع معين، وتحيزات طبقة معينة داخل المجتمع، ومن ثم ظهرت تأثيرات كثيرة لكل هذه المؤثرات فى مختلف النظريات الاقتصادية.

ويشير المؤلف إلى بعض الفروض التعسفية لدى الاقتصاديين، كتصور «الإنسان الاقتصادى» Economic Man الذى يحركه العقل وحده، وكذلك السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة فقط لا غير! فالأنانية هى المحرك الوحيد للسلوك الاقتصادى! ثم افتراض أن سعى المرء لتحقيق مصلحته الخاصة يؤدى دائما إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع ككل. بينما ثمة أمثلة كثيرة تؤكد على تعارض المصلحتين فى ظروف وأحوال كثيرة جداً.

والسبب وراء مثل هذه الفروض التعسفية، هو أن التركيز على الصفات «الألية» فى الإنسان يسمح بالوصول إلى تعميمات أكثر دقة، ويسمح بالقول بوجود قوانين تحكم السلوك الإنسانى، أشبه بتلك التى تحكم الظواهر المادية، بعكس الجوانب الإنسانية التى يؤدى الاعتراف بها إلى صعوبة صياغة قوانين منضبطة عن السلوك الإنسانى، وبالتالى صعوبة التنبؤ به.

وإذا نظرنا إلى فكرة «نظام السوق» الذى يعد حصيلة تفاعل إرادات المنتجين والمستهلكين، ويعمل بطريقة آلية، وكأنه مدفوع بقوة عمياء ليصل إلى نتيجة مستقلة عن كل هذه الإرادات! هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادى قد سمحت بصياغة قوانين أقرب إلى الدقة، لكنها فى الحقيقة أبعد عن الواقعية، وأقل حكمة.

ويقدم الاقتصادى تعريفا لعملية الإنتاج بقوله: «الإنتاج هو خلق منفعة أو زيادتها» to create or increase utility لكنه لا يلتزم بهذا التعريف حين يتجاهل بعض أوجه النشاط التى يتوفر فيها شرط خلق منفعة أو زيادتها، كالأعمال المنزلية وغيرها لمجرد أنها غير صالحة للبيع! وهذا تحيز لا يقوم على أساس من المنطق أو العلم.

وعند تحليل الاقتصادى لعناصر الإنتاج نرى فيها من التحيز أكثر مما فيها من العلم، ثم القول بأن الباعث على الإنتاج «تحقيق أقصى ربح» لا يبدو صحيحا كتفسير لعملية الإنتاج التى لا تتم بقصد البيع، وقد يكون الباعث الأقوى شيئا مختلفا عن تحقيق الربح، فكثيرا ما يضحى المنتج بأقصى ربح إذا تعارض مع اعتبارات أخرى أكثر أهمية، كالتضحية - مثلا - ببعض الربح فى سبيل مبدأ أخلاقى.

وبعد ٢٢ عاما من صدور كتاب «ثروة الأمم» ظهر كتاب روبرت مالثس (Robert Malthus) مقال عن مبدأ السكان» An Essay on the Principle of Population وأثار ضجة واسعة بسبب القانون الذى يتضمنه الكتاب عن العلاقة بين زيادة السكان والإنتاج الغذائى، ويفسر المؤلف سر الاهتمام بنظرية مالثس لمدة تزيد على قرنين من الزمان - على الرغم من أنها تكاد تكون بديهية - أن علم الاقتصاد يحتوى على كثير من المقولات التى لا تكتسب مكانتها من دقة أو صحة وصفها للواقع، أو من اكتشافها لشىء لم يكن معروفا من قبل، بقدر ما تكتسبها من مجاراتها لبعض الأهواء والمصالح القوية التى لا علاقة لها بالعلم. فثمة فريق من شراح مالثس حاولوا استخدام نظريته لإعفاء الرأسماليين من أى مسئولية عن فقر العمال، كما حاول الداروينيون الاجتماعيون استخدام نظرية دارون Charles Darwin صاحب كتاب «أصل الأنواع» The origin of species لخدمة تحيزاتهم الطبقية، فاعتبروا الرأسمالى الناجح هو «الأصلح» داروينيا، والرجل الفاشل اقتصاديا، محكوم عليه بالفشل لأسباب طبيعية وحتمية!

أعلن بوضوح عن اختلافى التام مع تصورات المؤلف المستقبلية، وكذلك مع رأيه القائم على أفكار مسبقة، ومشاعر دفينة، وتحيز واضح من ناحيته تجاه الفكر اليسارى

وعند هذه النقطة يطرح السؤال نفسه : وهل المؤلف ذاته يخلو من أفكار مسبقة ومشاعر دفينة، أو أهواء وتحيزات؟ والإجابة عن هذا السؤال بسيطة وواضحة للغاية. فلا أحد منا يخلو من الأهواء والتحيزات. والمؤلف فى حديثه - مثلا - عن طبقة الرأسماليين (الأغنياء) يبدو منحازاً للغاية إلى جانب العمال (الفقراء)، وكذلك عند كلامه عن الحضارة الغربية يبدو انحيازه الشديد لبلاده التى تعرضت لسنوات طويلة من الاحتلال واستنزاف ثرواتها.



وإذا رجعنا إلى العصر الذهبى للفلسفة اليونانية، سنجد أن الفيلسوفين الكبيرين أفلاطون وأرسطو قد أثارا قضية الملكية العامة والملكية الخاصة. ففضل أفلاطون الأولى تجنبا لسبب من أسباب النزاع والمنافسة، ومال أرسطو إلى الثانية لأنها تحفز الإنسان على بذل المزيد من الجهد.

أما الدكتور جلال أمين فينظر إلى موضوع الملكية الخاصة من خلال رؤيته الذاتية المستمدة من علمه الغزير، وثقافته الواسعة، وخبرته الشخصية المتنوعة. فهو يذكرنا بالمعتقدات الشائعة عن الملكية الخاصة كنظام طبيعى يستجيب لحاجة أصيلة عند الإنسان، ومن ثم فهو نظام قديم بل لعله كان موجودا منذ وجد الإنسان، وسيظل كذلك ما بقى الإنسان على الأرض. وقد تم إسباغ نوع من القدسية على نظام الملكية تجعل الاعتداء عليها بمثابة خروج على مبدأ دينى. ثم يؤكد لنا المؤلف أن كل هذه المعتقدات المتداولة غير صحيحة! فالملكية الخاصة نظام نشأ فى ظروف تاريخية معينة، وتغيرت صوره عبر العصور، والأرجح أن هذا النظام ستلحقه تغيرات أخرى بسبب التطور التكنولوجى، وربما اختفى اختفاء تاما!!

ويساير المؤلف ماركس وإنجلز عندما قدما تفسيرهما لنشأة نظام الملكية الخاصة، وربطا بين ظهوره، وظهور نظام الزواج! ثم بصيغة السؤال يطالبنا أن نتوقع أن تطرأ على مؤسسة الزواج تغيرات مهمة بتغير نظام الملكية الخاصة! ويذكرنا بارتفاع معدلات الطلاق، وما طرأ من ضعف على النظرة التقليدية للزواج كعلاقة أبدية لا تنتهى إلا بالموت! ومن ثم يرى أنه لابد ستتغير نظرتنا كذلك إلى جريمة السرقة، بل قد يصبح ارتكاب هذه الجريمة غير متصور أصلا لاختفاء الملكية الخاصة!!!

وهنا لابد أن أعلن بوضوح عن اختلافى التام مع تصورات المؤلف المستقبلية، وكذلك مع رأيه القائم على أفكار مسبقة، ومشاعر دفينة، وتحيز واضح من ناحيته تجاه الفكر اليسارى، ولا أنكر - أيضا - أفكارى المسبقة، ومشاعرى الدفينة، وتحيزا واضحا من ناحيتى تجاه الفكر الدينى القائم على احترام الملكية الخاصة، والمجرم لفعل السرقة، والداعى إلى تقديس مؤسسة الزواج.

يقول المؤلف : «لاحظت على تلاميذى فى بداية عهدهم بدراسة الاقتصاد، وقبل أن يتعرضوا لأى نوع من غسيل المخ الذى يتعرضون له بالتدريج مع تقدم دراستهم لهذا العلم، أنهم فى هذه المرحلة المبكرة من دراستهم يتمتعون بقدر عال من البراءة والاستعداد لاستلهام البديهية بدلا من ترديد ما سبق لهم تعلمه، وأنهم لذلك قد يعطون إجابات عن الأسئلة التى توجه إليهم، قد تكون أفضل، بسبب هذه البراءة نفسها، مما يقدمه علماء الاقتصاد». وهذه ملاحظة رائعة، ولكن برغم استخدام المؤلف لفظ «قد» مرتين إلا أن فكرة أفضلية إجابات الطلاب الجدد على إجابات العلماء أمر يحمل قدرا من السخرية - فيما أرى - أكثر مما يحمل من دقة العلم!

إذ إن الاقتصادى يصر على تحديد هدف واحد ينطبق على جميع صور الاستهلاك، وهو : «تحقيق أكبر قدر من المنفعة، أو أقصى قدر من الإشباع». بينما إجابات التلاميذ أن الهدف يختلف من سلعة لأخرى، وهو - كما يرى المؤلف - أفضل! أما تعريف عالم الاقتصاد فيراه بالغ العمومية وخاليا من المضمون!!

ثم يؤكد المؤلف على أن المستهلك فى الواقع أبعد ما يكون عن صورة «المستهلك الرشيد» الذى يفترضه الاقتصادى. ويشير د. جلال إلى ملاحظة ثاقبة تخص السلوك البشرى عامة، وهى أننا نتصرف أحيانا كما يتصرف الأطفال الذين لا يستطيعون تأجيل استهلاكهم إلى الغد، وكأننا سنموت غدا. فنتصور أننا إذا لم نحصل على السلعة الآن فلن يكون لنا فيها منفعة، وأحيانا نتصرف بالعكس بالضبط، أى كما لو كنا سنعيش إلى الأبد. فنستمر فى تأجيل الاستهلاك، على أمل أن نستمتع به فى المستقبل، ثم نفاجأ بأن الفرصة المتاحة لهذا الاستمتاع قد ضاعت. بالمرض أو الشيخوخة أو الموت! ومن ثم فمن الحماقة أن نتخذ قرارات الاستهلاك بفرض أننا نموت غدا أو أننا نعيش إلى الأبد.

ويجنح المؤلف فى بعض الأحيان إلى نغمة ساخرة، وهى بالفعل شيقة ومعبرة، ولكنها تقوده - فيما أرى - إلى المبالغة التى تتجاوز الحقيقة، إذ يقول مثلا : «إن الإعياء الذى أصبح يصيب المستهلك (أو المستهلكة) وقد عاد (أو عادت) من رحلة الاستهلاك كثيرا ما يزيد على الإعياء الذى يصيب الرجل العامل أو المرأة العاملة عند عودتهما من يوم أنفق فى الإنتاج». وهذه بالتأكيد مفارقة ومبالغة، وإن صدقت فى بعض الأحيان. فستعبر عن انحياز واضح إلى طبقة عالية جدا، لا تعمل إلا فى أجواء من الرفاهية المطلقة.

وقد دأب الكتاب الاشتراكيون على الكلام عن الاستغلال، وكأنه يتمثل فقط فى علاقة المنتج الرأسمالى بالعمال، ولم يشر أكثرهم إلى استغلال الرأسمالى للمستهلك الذى يتعرض لعمليات تأثير وخداع واسعة من وسائل الدعاية والإعلان حتى يخضع ويشترى ما قد يحتاجه، وما لا يحتاجه أيضا!

وثمة مفارقة ومبالغة أخرى حين يقول : «إن نظام التعليم يتحول الآن، أكثر فأكثر، إلى نظام وظيفته تخريج (المستهلك الكفء) الذى يتطلع إلى نفس ما يتطلع إليه المجتمع بأسره، وقد لا يجيد العمل ولكنه يجيد الاستهلاك والتمتع بالحياة». وهنا نسأل: عن أى نظام تعليم يتحدث المؤلف؟ إنه - كما فهمت - يقصد نظم التعليم جميعا. فهل يمكن أن نضم نظام التعليم عندنا مع أى نظام للتعليم فى أى دولة متقدمة؟!

ويشير المؤلف إلى ظاهرة مثيرة للتأمل، وهى وجود أعداد متعاظمة من الناس قد أصبحوا يحصلون على دخول كبيرة جدا لا تتناسب على الإطلاق مع ما يساهمون به من إنتاج! فشخص عصرى، يجيد الحديث فى الحفلات، ويحسن اختيار ملابسه وطعامه، وينطق بالكلمات المناسبة فى المجتمعات، ويعرف أكثر من لغة، ولا يتساءل عن الهدف مما يعمل، ويرسل بأطفاله إلى مدارس أجنبية، سوف يدعى إلى كثير من المؤتمرات، بصرف النظر عما إذا كان لديه شىء ذو بال

يقوله، ولعدد من الرحلات مدفوعة التكاليف، ولن يكون هناك حد أقصى لما يمكن أن يصل إليه راتبه، بصرف النظر عما يؤديه من عمل! وتأمل التوسع الهائل فى عدد موظفى الهيئات الدولية، ولتقارن مرتباتهم بما يؤدونه بالفعل من عمل، أو فلتتأمل ركاب الدرجة الأولى فى الطائرات أو نزلاء الفنادق الذين لم يدفعوا شيئا من تكاليف سفرهم أو إقامتهم، وعدد المؤتمرات التى تعقد فى كل عواصم العالم دون أن تنتهى إلى شىء، أو بدلات السفر السخية التى يحصل عليها موظفو الدولة الكبار أو ممثلو الشركات فى تنقلاتهم اليومية، إن القدرة الحقيقية التى يحوزها هؤلاء جميعا ليست هى القدرة على الإنتاج بل هى القدرة على الاستهلاك!

والحقيقة أن هذه الظاهرة العجيبة جديرة بدراسة مستقلة تقودنا إلى فهمها وتفسيرها بطريقة علمية دقيقة.

بعد أرسطو بنحو ستة عشر قرنا عبر القديس توماس الإكوينى (T.Aquinas) عن رأيه فى بعض الأمور الاقتصادية، وميز بين الثمن العادل وغير العادل، وبين الأجر العادل وغير العادل، ومناقشته هذه تعبر عن رؤية أخلاقية بحتة، أو انحياز كامل للجانب الأخلاقى. ثم جاء الفيلسوف جون ستيوارت ميل John Stewart Mill الذى اعتبر أن علم الاقتصاد لا يمكن تصور وجوده ما لم نفترض وجود نظام المنافسة الكاملة الذى يؤدى إلى تفاعل كل من العرض والطلب للوصول إلى الأثمان الحقيقية للسلع والخدمات.

أما ماركس (K. Marx) فقد اعتبر أن الاقتصاديين التقليديين مجرد أبواق للرأسمالية، ورأى أن دعوتهم إلى الحرية الاقتصادية مجرد دفاع عن مصالح البرجوازية، وهكذا سار على خطى ريكاردو (Ricardo) فى اعتبار العمل الإنسانى هو المحدد للثمن، وفى القول بأن اختلاف ثمن سلعتين لا يفسر إلا باختلاف كمية العمل الذى يحتاجه إنتاج كل منهما.

وهذا التصور يتفق أيضا مع الاعتبارات الأخلاقية، ويتضمن إثبات حق العمال دون غيرهم فى الحصول على كل ما ينتج من سلع، وهذه الإضافة تتمثل فى نظرية ماركس فى مفهوم «فائض القيمة».

ولعل أبلغ رد على هذا التصور - المبنى على انحياز واضح - جاء من خلال تعبير مدهش لأحد الاقتصاديين المحدثين حين قال : «إن اللؤلؤ ذو قيمة عالية لا لأن الناس يغوصون فى الماء بحثا عنه، بل إن الناس يغوصون فى الماء بحثا عنه لأنه ذو قيمة عالية». فتحديد ثمن السلعة لا يقاس فقط بنفقة الإنتاج، إذ ثمة تفسير شخصى أو نفسى للقيمة.

ويشير د. جلال إلى ملاحظة مهمة خاصة بافتتان كثير من الاقتصاديين بعلم الرياضيات، واشتداد الميل إلى تقديم تفسيرات للسلوك الاقتصادى فى صياغة رياضية، لإكساب نظريتهم مسحة مما تتمتع به العلوم الطبيعية من درجة عالية من الدقة واليقين، ومن القدرة على التعبير عن قوانينها تعبيرا رياضيا. ومن ثم فكثيراً ما توضع معادلات رياضية، وجداول حسابية، ورسوم بيانية لا تكاد تضيف أى شىء إلى معلوماتنا، ولا تقدم لنا فى الحقيقة سوى مجموعة من البديهيات!

ثم يذكر المؤلف عبارة كاشفة عن مفارقة حين يقول: «من الممكن أن تحول ببغاء إلى اقتصادى بتلقينه كلمتين فقط: العرض والطلب»، وفى هذا التعبير الساخر يكمن رفض لهيمنة فكرة السوق على تفكير الكثير من الاقتصاديين. إذ إن جاذبية نظرية العرض والطلب مرتبطة باستقلال كل من جانبى الطلب والعرض عن الآخر، وقد تطور الأمر فأصبح أحدهما تابعا للآخر، ومن ثم لابد من إعادة صياغة نظرية الثمن لتؤكد على جانب المنتج والبائع وتهمل جانب الطلب.

وثمة ما يعرف بقانون ساى Say فى الأسواق، ويمكن تلخيصه فى هذه العبارة: «العرض يخلق الطلب». وقد وصفه جون ستيوارت ميل بأنه : «أشد مبادئ الاقتصاد وضوحا وأقربها إلى الحقيقة.» حتى جاء جون مينارد كينز J. m. keynes فى ١٩٣٦م. وقلب الأمر رأسا على عقب، إذ قال: «إن الطلب هو الذى يخلق العرض». ويعلق المؤلف على هذا التناقض بقوله: «الأرجح أن رغبة شديدة فى الوصول إلى نتائج عملية معينة، دفعت الاقتصاديين إلى التحيز لسياسة أو فلسفة اقتصادية دون غيرها، وأن هذا التحيز هو الذى دفعهم إلى تبنى نظرية معينة تؤدى منطقيا إلى اتخاذ هذه السياسات الاقتصادية المفضلة».

ويشير المؤلف إلى تكرار ظاهرة حدوث انقلاب عسكرى أو سياسى فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث، يظهر بعد حدوثه أنه أتى لحساب شركات عملاقة ترغب فى وضع يدها على بعض الأصول، أو توجيه السياسة الاقتصادية إلى صالحها. فثمة أسبقية للمصالح العملية على التفكير النظرى، أو أسبقية للأهواء على العلم.

ولعل من أجمل وأهم فصول الكتاب تلك التى تتناول مشكلة الفقر، وأساليب التنمية الاقتصادية، وتوزيع الدخل.

ويعرض الكتاب صورتين للفقر، الأولى : هى العجز عن إشباع الحاجات الضرورية، والأخرى : الشعور بالفقر بالمقارنة بأشخاص آخرين. ومنذ أقدم الحضارات - ومع ما تحث عليه الأديان - تتدخل الدولة لإجبار الأغنياء على التنازل عن جزء من مالهم لتوزيعه على الفقراء. أما ماركس وأتباعه فدعوا الفقراء إلى الثورة، لأن الرأسماليين لن يتنازلوا عن ملكياتهم إلا بالقوة.

فمع قيام الثورة الصناعية وظهور علم الاقتصاد، انحاز الاقتصاديون لصالح مالكى الثروة، واستتر هذا التحيز برداء العلم، ومن ثم ظهر فى مواجهتهم الفكر الاقتصادى الماركسى الذى لم يكن أقل تحيزا ولا أقرب إلى العلم. وفى نظر المؤلف لا تستحق أى من النظريتين: الاقتصادية الاشتراكية، ولا الرأسمالية، أن توصف بالعلمية.

ويؤكد د. جلال على ملاحظة شديدة الأهمية، وهى أن زيادة الدخل القومى، اى التنمية الاقتصادية، ليست بالشرط الكافى ولا الضرورى لحل مشكلة فقر الفقراء. فالتنمية قد تنتهى بزيادة دخول الأغنياء فقط دون اى تحسن فى أحوال الفقراء، وقد تتحسن أحوال الفقراء على حساب الأغنياء، ودون أى زيادة فى الدخل القومى.

ولفهم ظاهرة الفقر فى البلاد المتخلفة لابد من النظر إلى طبيعة علاقاتها مع الدول المتقدمة، وقد اهتم المؤلف ببيان أثر التدخلات الخارجية على استمرار مستويات الفقر فى الدول النامية. فالنظام الاستعمارى القديم قد حل محله نظام جديد، حيث لا تزال بواعث الاستعمار التقليدية قائمة، فمازال الحصول على المواد الأولية الرخيصة، وعلى قوة العمل البخسة، وعلى مجالات مجزية لاستثمار فوائض رؤوس الأموال. كل هذه البواعث مستمرة فى العلاقة بين البلاد الأكثر تقدما والأقل تقدما، مع الأهمية النسبية للوصول إلى أسواق جديدة لتصريف فوائض السلع المنتجة فى البلاد المتقدمة، وهذه السلع تطورت كثيرا جداً، من السيارة الخاصة والمشروبات الغازية وأدوات التجميل إلى الأسلحة ومختلف الآلات والأجهزة الحديثة. ومن ثم أصبح تحقيق زيادة فى متوسط الدخل فى البلاد المتخلفة شرطا لاستمرار معدل النمو المرتفع داخل الدول المتقدمة.

ومن هنا لابد من انتشار ظاهرة «التغريب» لاكتساب الميول والعادات التى تتفق مع استهلاك هذه السلع الغربية. ولابد من خلق طبقة عليا - فى الدول المتخلفة - تسعى وراء السلع المستوردة، وتسهل فى الوقت ذاته تطبيق السياسات الاقتصادية الملائمة لمصالح القوى المسيطرة. ومن ثم قد يزيد متوسط الدخل زيادة كبيرة، مع عجز شرائح واسعة من السكان عن إشباع بعض حاجاتهم الضرورية!

وصحيح أن تراكم رأس المال شرط ضرورى من شروط التنمية، ولكن الأكثر فائدة فى حالة كثير من البلاد المتخلفة الاهتمام بإصلاح التعليم، والقضاء على الفساد، وتحقيق استقلال سياسى واقتصادى.

فعند بحث مشكلة الفقر فى بلادنا لا يصح - فيما أرى - أن نركز فقط على الأسباب والعوامل المترتبة على التدخلات الخارجية، وثمة أسباب داخلية كثيرة،

ولا أنكر ـ أيضا ـ أفكارى المسبقة، ومشاعرى الدفينة، وتحيزا واضحا من ناحيتى تجاه الفكر الدينى القائم على احترام الملكية الخاصة ، والمُجرم لفعل السرقة، والداعى إلى تقديس مؤسسة الزواج

لعل أهمها هو الاستبداد السياسى، ونهب ثروات البلاد لصالح طبقة الحكام وأتباعهم، وتفشى الفساد بشكل غير مسبوق، وضعف أو انعدام القدرات الإدارية لمن يتحكمون ويديرون دفة الحكم على هواهم. وقد شاهدنا مجتمعات أخرى تتغلب على المؤثرات الخارجية، وتنهض وتنتقل من الفقر إلى الغنى فى خلال عقد واحد، أو عقدين من الزمن.

وإذا رجعنا إلى سنوات الخمسينيات والستينيات، لتذكرنا أن البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، كانا متفقين على أن للدولة دوراً مهما فى دفع عجلة التنمية فى الدول المتخلفة، وهذا يعتبر الآن مذموما! لماذا؟ لتغير مصالح الدول الكبرى. فقد عاد من جديد الشعار القديم «دعه يعمل، دعه يمر» لضمان استمرار النمو الاقتصادى دون توقف. أما الأهداف الإنسانية الأخرى، مثل إشباع الحاجات الأساسية، أو خلق المزيد من فرص العمل، ناهيك عن حماية العلاقات الاجتماعية ونوعية الحياة من آثار النمو الاقتصادى السريع ونمو المجتمع الاستهلاكى، فقد توارث عن الانظار!

ويلخص المؤلف رؤيته بقوله : «إنه خلال التاريخ الطويل للفكر الاقتصادى فيما يتعلق بالنمو والتنمية، لم تكن الأسئلة المطروحة للبحث، ولا الإجابات التى قدمت عن هذه الأسئلة صادرة عن فكر محايد وغير متحيز، بل كانت الأسئلة والأجوبة على السواء صادرة عن عقائد طارحى الأسئلة والأجوبة، عقائد تتخذ من البداية كمسلمات بديهية غير قابلة للمناقشة، وتنبع فى معظم الأحوال من غلبة بعض المصالح الأنانية الضيقة».

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى ما قد يفرضه الواقع بقوته على مختلف نظريات الفكر الاقتصادى، كما حدث فى الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينيات، وكما يحدث الآن بفعل الأزمة المالية الأمريكية، والتى تلقى بظلالها القاتمة على اقتصاديات العالم أجمع.

فى محاضرة ألقاها ستانلى فيشر (Stanley Fischer) كبير الاقتصاديين فى صندوق النقد الدولى، جاء ذكر لسؤال مهم : هل توجد نظرية اقتصادية واحدة، يجمع كل الاقتصاديين على صحتها، دون أن تكون بديهية ومجرد تحصيل حاصل؟ وهذا يعنى أن النظريات الاقتصادية ليست أكثر من تعبير عن تحيز شخصى، فلابد أن يختلف حولها الاقتصاديون لاختلاف تحيزاتهم! وإذا كان الأستاذ فيشر أنكر هذا، وقال إن لديه الكثير من الأمثلة على نظريات اقتصادية ليست تحصيل حاصل، ويجمع الاقتصاديون على صحتها، وفى مقدمة هذه النظريات نظرية المزايا النسبية فى التجارة الدولية. فقد حاول الدكتور جلال عبر صفحات عدة أن يبين لنا أن هذه النظرية ما هى إلا تحصيل حاصل من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الاقتصاديين غير متفقين على صحتها!

وأحب أن أتوقف هنا لنتأمل معا فكرة كثيرا ما تتردد عن الاتفاق أو الاختلاف بين الاقتصاديين، وكأنما مجرد اختلافهم، أو عدم اتفاق رؤيتهم يعنى ضمنا أنهم على خطأ! وهذه فى الحقيقة نظرة غير صحيحة للفكر الاقتصادى، وللنظريات الاقتصادية المختلفة. فعندما يتناقض - على سبيل المثال - ما قاله أفلاطون مع ما قاله أرسطو، هل هذا يعنى أنهما على خطأ؟! أو أن أحدهما بالضرورة على خطأ؟! وهل عدم اتفاق الفلاسفة جميعا على فلسفة واحدة يعنى فساد كل ما قدموه لنا، أو ضلال كل ما وصلوا إليه؟!

إن الفكر الاقتصادى كالفكر الفلسفى يحتمل التباين والتنوع والاختلاف، كما يحتمل التضاد، بل ويحتمل التناقض أيضا، ليس فقط لاختلاف الأهواء والتحيزات كما يقول المؤلف، ولكن لاختلاف المواقف الفكرية، وتغير الأحوال والظروف، وتنوع المنطلقات النظرية والعملية، وتباين زوايا النظر والرؤية، وتعدد الوسائل المتبعة والأهداف المرجوة. إن الفكر الاقتصادى يحمل بداخله تعدد وتنوع وثراء ورحابة الفكر الإنسانى العظيم القابل لاحتواء شتى الاختلافات والمتضادات والمتناقضات معا.

ومن الموضوعات الحديثة نسبيا فى علم الاقتصاد، موضوع «تحليل النفقات والمنافع» (Cost / Benefit Analysis) أو دراسة الجدوى (Feasibility Study)

فللحكم على صلاحية أى مشروع يتم حصر كل نفقاته، بمختلف أنواعها، وتقييمها بالأرقام، وجمعها، وحصر كل المنافع التى يمكن تحقيقها منه، بجميع أنواعها، وتقييمها بالأرقام، وجمعها، ثم مقارنة مجموع النفقات بمجموع المنافع، فإذا زادت المنافع على النفقات اعتبر المشروع مبررا.

ويعلق المؤلف على ذلك بقوله : إنها تبدو لأول وهلة فكرة بريئة ومقنعة، وربما بدت سهلة التنفيذ، ولكنها لا سهلة، ولا بريئة، وتنطوى على التحيز لمصالح دون أخرى. فكثير من النفقات والمنافع لا يمكن قياسها بدقة، وهى نادرا ما تتحقق فى وقت واحد، بل عبر فترة زمنية ممتدة، ويكتنف اى تقييم للمنافع والنفقات على الكثير من التحيزات التى نادرا ما يعترف بها القائم بالتطبيق.

ويتوقف المؤلف عند المفكرالبريطانى جيريمى بنثام (Jeremy Bentham) مؤسس مذهب المنفعة (Utilitarianism) والذى يمكن تلخيصه فى: «أكبر قدر من السعادة لأكبر قدر من الناس». The greatest happiness for the largest number

لكن أى تطبيق لهذا المبدأ سينطوى بالضرورة على تحيزات وأهواء شتى غالبا لن يدركها من يحاولون تطبيقه.

ثم ينهى المؤلف كتابه بتعليق لجون مينارد كينزى (J. m. keynes) على مبدأ بنثام فى المنفعة بأنه «كالدودة التى لا تكف عن التهام أحشاء الحضارة الحديثة، والمسئولة عن انحطاطها الأخلاقى الراهن». وهذه النهاية للكتاب إنما تعنى ضمنا انحيازا واضحاً من جانب المؤلف نحو الاعتبارات الأخلاقية.

وفى النهاية أحب أن أعبر عن سعادتى بقراءة ودراسة هذا الكتاب المثير للتأمل، والذى يعد علامة بارزة فى إنتاج مفكرنا الكبير الدكتور جلال أمين، كما يعد إضافة حقيقية لكل الباحثين والدارسين لعلم الاقتصاد بمختلف مدارسه.

وهذا الكتاب - من ناحية أخرى - يعد كتابا فى الثقافة الحديثة، فهو يعرض وينقد مختلف الحركات الاقتصادية والفلسفية خلال عصر النهضة وحتى العصر الحديث والمعاصر. والكتاب محمل بحصيلة رؤية ثقافية واسعة وعميقة، ومن ثم فهو ضروري ومهم لكل من يريد أن يعى، ويدرك، ويتعلم الكثير عن حركات التطور الفكرى، والعلمى، والاقتصادى، والسياسى، والثقافى عبر عقود وقرون عدة.

ولأن الكاتب مفكر موسوعى، لا يحصر نفسه فى داخل الفكر الاقتصادى وحده، ولكنه ينطلق إلى آفاق واسعة للفكر الإنسانى بمختلف تجلياته، فلا يجد غضاضة - مثلا - فى الاستشهاد برواية أدبية لإبراز حقيقة اقتصادية.

ويكاد لا يوجد كتاب من الكتب المهمة التى أثرت وغيرت وحركت العقول منذ عصر النهضة، وحتى الآن، ولم تتم الإشارة إليه، وتقديم خلاصته ببساطة ووضوح للقارئ غير المتخصص.

وأرى أن شبابنا فى أشد الحاجة للتعلم من هذه الروح النقدية المتألقة، والتى تسيطر على كل صفحة من صفحات هذا الكتاب القيم، إذ إن نظامنا التعليمى العقيم لا يقدم لهم سوى مواد صماء للحفظ والتلقين، فلا يؤهلهم للابتكار، ولا إعمال الفكر، ولا فحص ما يعرض عليهم بدقة وتحليله ونقده.

والكتاب يمتاز بلغة أدبية بديعة، بعيدة تماما عن جفاف اللغة العلمية التى اعتدنا عليها فى البحوث والدراسات الاقتصادية. فاللغة هنا شديدة الجمال، والوضوح، والجاذبية، إذ تأخذ بيد القارئ العادى ليتعلم ببساطة من أستاذ قدير قضى سنوات طويلة فى البحث والدرس والفهم، ثم خرج علينا ليقدم لنا خلاصة علمه الغزير، وثقافته الواسعة، وخبرته الحياتية، ورؤيته الخاصة بتواضع، وبساطة، وحكمة. ■

ويجنح المؤلف فى بعض
الأحيان إلى نغمة ساخرة ،
وهى بالفعل شيقة ومعبرة ، ولكنها تقوده ـ
فيما أرى ـ إلى المبالغة
التى تتجاوز الحقيقة

عن ماذا يبحث الخليجيون والأوربيون فى مصر؟!

ليسا وِن

■■ فلنتخيل مِصرَين، الأولى منهما أرض غامضة عتيقة، صحراء فسيحة متلألئة شطرها شق ضيق امتلأ اخضراراً متفجراً قطعها من الشمال إلى الجنوب، وعلى طول أهداب وادى النيل الخصيب استلقت آثار حضارات عريقة، تعود لأكثر من خمس ألفيات، صانت أهراماتها ومعابدها وأضرحتها عبر القرون الرمال والمناخ الصحراوى الجاف. تضم الأهرامات ممرات خفية ومسالك منخفضة لا يمكن للمرء أن يعبرها إلا بنفسه حيث تنفتح إلى حجرات خبيئة داخلية فيها توابيت فارغة. أما الجادات العتيقة فتحرسها المسلات وتماثيل أبو الهول، وهناك يرى المرء أشعة الشمس التى جمّدها الأفضل أن يخلد للنوم باكراً ويستيقظ مع طلوع الشمس، كى يتسنى له أن يرى النصب والمعالم التاريخية صباحاً قبل أن تعكس الصحراء الزجاجية أشعة الشمس التى تبهر الأبصار وتجعله يذوى فى قيظ الظهيرة. لكن المساءات تختلف، فهى مكرسة للجولات فى خان الخليلى والسوق الذى يشبه متاهة. هناك يمكن للمرء أن يشترى الحلى الذهبية والفضية وأن يكتب اسمه عليها بالهيروغليفية، ويساوم أصحاب المحلات على التذكارات التى يصنعها فنانون محليون، شأن الصناديق والعلب المرصعة بأصداف تشبه اللآلئ، أو الزهريات التى صنعت من المرمر، أو القوارير الزجاجية موكب تشييعها، وبكى «الستّ» العالم العربى برمته. مصر هذه قوة سياسية كان على رأس ديبلوماسيتها وزير خارجية واضح وصريح (يترأس الآن الجامعة العربية) اعتاد أن يتوسط فى النزاعات الإقليمية. وثمة مطرب شعبى حقق نجومية بين ليلة وضحاها فى كل أرجاء العالم العربى بأغنيته الوحيدة «أنا بكره إسرائيل». تذكرنا مصر هذه برؤى الراقصات الشرقيات الفاتنات اللواتى يرقصن بأزياء لامعة تتلألأ مثل سطح نهر النيل فى الليل عندما يعكس أضواء القاهرة الملونة.

وهناك يرى المرء دينا الراقصة الجميلة ترصع قدمها اللؤلؤة، ماسة والذهاب إلى المطاعم والمسارح والديسكوتيك ميزة لليل هنا. ومن الممكن للمرء أن يذهب مع عائلته فى العوامات التى تبحر فى النيل لمشاهدة الراقصات، إضافة إلى الفرجة على «العرض الروسى» حيث مجموعة من خمس أو ست حسان من الكتلة الشرقية يضعن على خصورهن سيوراً كالأسود فوق جوارب مخرمة، وأغطية للرأس صنعت من الريش، ويؤدين رقصة متزامنة لافتة هى مزيج من ألحان عربية وغربية. ربما لا يزور المرء الأهرامات لكنه يراها من البعيد، من شارع الهرم الذى يقصده البشر وكأنهم يقصدون الأمكنة المقدسة فى رحلة حج. وتتسابق الملاهى الليلية والكباريهات

سياحة الليل .. وسياحة النهار

الحجر. كما تهيمن التماثيل الجرانيتية المهولة لملوك وملكات قضوا منذ أمد طويل، على قاعات واسعة تردد صدى معابد فى الجنوب. للمرء أن يعبر هذه الآثار التى هيمنت عليها أعمدة جبارة رصعتها نقوش أزهار اللوتس، ويردد صدى طرق عقبيه على الأرض الحجرية ويتخيل بأنها كانت قصوراً لعرق من سحرة عماليق انقرض منذ أمد بعيد. كان لأولئك البشر العريقين معرفة وافرة ودقيقة بعلم الفلك، فقد بنوا نصبهم ومعالمهم لتتماشى مع الشمس والنجوم فى الانقلاب الشمسى والاعتدال الربيعى.

يسكن أرض مصر الحاضر أبناء سلالات أولئك الفراعنة. الشتاء هو الوقت الأمثل لزيارة تلك الآثار. لكن إن رغب المرء بزيارتها صيفاً، فمن الدقيقة المصنوعة يدوياً وتحوى زيوتا عطرية هى ذات الأريج الذى عطّر أجساد نفرتيتى، وكليوباترا على ذمة الباعة.

أما مصر الأخرى فهى نابضة بالحياة، وما آثارها الفرعونية سوى خلفية لدراما أكثر حداثة. تُعد الأهرامات الواقعة على أطراف القاهرة أمكنة لقاء رومانسية، يراها المرء فى العديد من الأفلام المصرية حيث يختلس العشاق القبل على كومات من أحجار منخفضة. فى مصر هذه، تقبع القاهرة القلب النابض للعالم العربى، وهى مثل هوليوود ونيويورك، تتحول إلى مدينة كبيرة مغبرة مكتظة يقطنها أكثر من خمسة عشر مليون نسمة. فى أحياء المهندسين والزمالك الأنيقة التى تقع بجوار القاهرة، يبقى البشر العاديون عيونهم مفتوحة علهم يرون ممثلاً أو مغنياً مشهوراً. لابد أن الناس يتذكرون أن عمر الشريف ومنذ أربعين عاماً خلت، هام بالممثلة المصرية فاتن حمامة حتى أنه اعتنق الإسلام ليتزوج بها. لكنهما انفصلا بعد ذلك بسبب ماقيل عن إدمانه القمار. أما الآن فيمكث عمر الشريف فى شقة فى حى المهندسين بعد أن تقاعد. عندما توفيت أم كلثوم فى عام ١٩٧٥ احتشدت الملايين فى الشوارع لتمشى لأكثر من ميل فى وزنها أربعة قراريط. أشيع أن أحد الأثرياء من المعجبين بها، أهداها تلك الماسة التى شبكتها بخاتم ألبسته إصبع قدمها، ازدراءً له.

فى مصر هذه، الصيف هو الوقت المناسب للزيارة، إذ تأتى الحشود من كل أرجاء العالم العربى إلى القاهرة طلباً لقضاء العطلات والإجازات. النهارات هنا مضجرة وقائظة ما يجعل المرء يمضيها فى النوم ليستيقظ فى وقت متأخر من الظهيرة ويذهب إلى المقاهى المنتشرة فى حدائق الفنادق من أجل وجبة إفطار تحتوى على الفول المدمس الساخن. ويجلس هناك ويراقب الصبايا اللواتى يتبخترن بين الطاولات بينما يسترخى يدخن الشيشة (النرجيلة) التى تنبعث منها روائح التفاح. تنهض مصر هذه من غفوتها بعد الغروب، عندما يتبدد اللون الأسمر لهذه المدينة المغبرة وتتحول إلى ليل عذب بارد ذى لون نيلى مخملى، ترقطه بقع من ضوء ينبعث من مصابيح الشوارع وأبنية تضم المكاتب الحكومية العملاقة ومن لافتات المحلات الكهربائية. كما أن السهر طوال الليل المشهورة على جانبى الشارع الطويل الذى يمتد إلى مسافة طويلة من القاهرة إلى الأهرامات والتى تشرع أبوابها من ساعات المساء المتأخرة حتى السادسة أو السابعة من الصباح. وهناك يجود الزبائن بإعجابهم براقصتهم المفضلة ويمطرونها بالنقود، ويمنون برزمة من نقود من فئة العشرة جنيهات على مدير الصالة الذى يدب فيهم الحماس من خلال تلويحه بالنقود، ليسمح لهم أخيراً بأن يتدفقوا وينتشروا على جسدها وهى ترقص، لكن النادل لهم بالمرصاد حيث يرجعهم فى الوقت الذى تخطو فيه إلى طاولة المعجبين وتشكرهم بابتسامة وإيماءة. ويحين وقت المغادرة عندما تبدأ الشمس تنشر خيوطها الأولى، وينكفئ الزوار العرب إلى فنادقهم، فى الوقت الذى تمتلئ فيه حافلات السياح الذين قدموا من الغرب الذاهبين إلى أهرامات الجيزة أو سقارة أو إلى المتحف المصرى.

تُعد الأهرامات آخر اهتمامات الخليجيين الذين يزورون مصر. فالعرب عموماً ينعمون بصور وخيالات معاصرة فيما يتصل بثقافة مصر التى تأصلت واشتهرت بترويجها للمغنين والمغنيات والراقصات الشرقيات ونجوم السينما فى تلك الأرجاء من العالم العربى. يعرف عن السياح

تصدر الدراسة قريبا عن دار قدمس للطباعة والنشر - دمشق بعنوان: «أهرامات وشارع الهرم: أنثروبولوجيا السياحة الأوروبية والخليجية فى مصر»

ترجمة: صخر الحاج حسين
مراجعة: زياد منى.


حلمي التوني
2008

سياحة الليل  وسياحة النهار

القادمين من المملكة السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة بأنهم يمضون أوقاتهم فى ملاهى شارع الهرم الليلية. فالسياحة العربية والخليجية سياحة ليل أما سياحة الغرب فهى سياحة نهار، إذ تبدأ رحلات السياح الغربيين إلى الأهرامات باكراً فى الصباح لتجنب قيظ الظهيرات، بينما لا تنتهى أمسيات الملاهى الليلية حتى خيوط الفجر الأولى.

يفترق العرب عن الغربيين فى نظرتهم إلى مصر. فما يرونه يتأثر بثقافة ودين ولغة وتاريخ وسياسات كل منهم. لقد شكلت هذه الصور المتباينة عن مصر، صورة لمصر عن ذاتها هى، خالقة طبقات متداخلة من الهوية، فمصر هى أرض الفراعنة، والأهرامات والمومياءات، كما أنها قلب السينما العربية، والموسيقى العربية والرقص الشرقى أيضاً. لقد أنتجت قرون من الحوار العابر للأمم طبقات من الخيالات والصور عن مصر.

تكشف هذه الرؤى المتباينة عن مصر الكثير عن الغربيين والخليجيين بقدر ما تكشف عن مصر نفسها. فالافتتان الغربى بمصر الفرعونية لا يمكن أن يفهم من دون معرفة الطريقة التى انضفر فيها علم المصريات مع تاريخ الامبريالية الأوروبية. والصورة النمطية المصرية عن الخليجيين وهم يمضون الليالى بلعاب يسيل على الراقصات الشرقيات إن هو سوى عرض (أمارة) على اقتصاد هجرة اليد العاملة الشرق أوسطية والذى لونته الفروق الثقافية والاستياء من سوء توزيع الثروة النفطية. يحاول كتابنا هذا أن يستكشف التجربتين المتوازيتين العربية والغربية مع مصر، بوصفهما طريقة للتأمل والتفكير بالاختلافات والتشابهات.

هِردُت الدليل السياحى:

لألفيات خلت درج تقليد لرحالة غربيين، من الإغريق إلى الرومان إلى أوروبيى القرن التاسع عشر تجلى فى قراءة هِردُت كنوع من كتيب سياحى يعين الناس إلى مصر. لقد سافر «أبو التاريخ» ذاك إلى مصر حوالى ٤٦٠-٤٥٥ قبل التأريخ السائد (ق ت س) وأنتجت رحلاته مزيجاً خاصاً من التاريخ، وحقائق لافتة، وشائعات وأساطير. فقد وصف أقدم عجائب الدنيا السبع، هرم الجيزة الأكبر، وزعم أن ابنة فرعون موّلت بناءه بجعل باحتراف البغاء.

لقد ردد غُستف فلبير صدى افتتان هِردُت بالأبنية التذكارية الضخمة وفانتازياه الإيروتيكية لما هو غريب بعد أكثر من ألفيتين، والذى زودتنا رسائله بحكاية أسفاره فى نهر النيل حيث رصّع وصفه لتسلق الأهرامات بتقارير مصورة عن زياراته لفتيات راقصات وعاهرات. بعد أن قرأ فلبير ما كتبه هِردُت بأن هرم منقرع (أطلق عليه الإغريق ميكينيروس) بنى بأمر محظية إغريقية تدعى ردُبس، أصر على تسميته هرم ردُبس (سافر فلوبير عبر نهر النيل فى عام ١٨٤٩. لمزيد من الاطلاع على فانتازيات فلوبير الشرقية التى تضعهم ضمن سياق الإمبراطورية الأوروبية، انظر إدوارد سعيد Said ١٩٧٨ وتوكر Tucker ١٩٨٥ ورنا قبانى Kabbani ١٩٨٦ و بونافنتورا Buonaventura ١٩٨٩ وكرياني Karayanni ٢٠٠٥. المؤلفة).

لقد كان للخيال الأوروبى الاستشراقى فيما يتصل بجنسانية الشرق الأسطورية الوضيعة والذى كتبت عنه رنا قبانى وإدوارد سعيد وآخرون، أصل موغل فى القدم فعلاً (انظر لقمان Lockman ٢٠٠٤ لاستعراض تاريخ الاستشراق).

من هِردُت إلى فلبير إلى سياح اليوم، تتبع الرحالة طريقاً آمنة تبدأ من الإسكندرية إلى نصب الجيزة ومعالمها التاريخية وإلى ممفيس (سقارة)، ومن ثم إلى فهر النيل والكرنك وطيبة (الأقصر) وأسوان. شحن الافتتان الغربى القديم بالنصب والمعالم التاريخية فى الحقبة الحديثة مع غزو نابوليون للبلاد فى عام ١٨٩٨، وصوّرت الروح الإمبريالية الفرنسية على أنها حملة علمية، عنيت من بين أشياء أخرى، بالتنقيب والبحث فى النصب والمعالم التاريخية القديمة. بوصفه مؤرخاً، نوه ريرت تغنر بأن هذا ما منحها نسب التقدم الذى أحرز فى عصر التنوير ‹Tignor 1993:1-15›. وبوصفها إرث إمبراطورية وجهت صناعة السياحة فى مصر الحاضر السياح الغربيين لرؤية مصر قديمة تبعثرت فيها نصب ومعالم تاريخية أخرجت من ماض فرعونى.

يبدو سحر السياحة فى مصر القديمة جلياً للغربيين على خلاف السياح من الخليجيين الذين نادراً ما يقضون بعض وقت فى زيارة المواقع الفرعونية وهم لا يشكلون أى مقدار مئوى من السياح الذين يبحرون فى النيل للذهاب إلى الأقصر. إنهم يتجنبون الأهرامات وينخرطون بصور وخيالات عصرية للثقافة المصرية.

ضمن بيئة شرق أوسطية، تعد مصر عملاقاً ثقافياً وإعلامياً معاصراً، تبث أفلامها، ومسلسلاتها التلفزيونية، وموسيقاها الشعبية إلى العالم العربى برمته ‹Armbrust 1996, Abu-Lughod 2004›. بحسب العرب تستحضر مصر صوراً وخيالات ليس عن الأهرامات فقط، ولكن أيضا عن سياسيين مشهورين شأن جمال عبد الناصر المعروف بنزوعه إلى القومية العربية، وقامات أدبية شأن نجيب محفوظ الأديب الحائز على جائزة نوبل ومطربين محبوبين شأن أم كلثوم وعمرو دياب ساحر الجيل صاحب الأغنيات الجماهيرية، وممثلين كوميديين شأن عادل إمام وعلاء ولى الدين وممثلات وممثلين دراميين شأن نادية الجندى وأحمد زكى، وراقصات شرقيات شهيرات مثل فيفى عبده ولوسى ودينا (ما يدعو للأسف أن أحمد زكى وعلاء ولى الدين - وهما من المفضلين عندى - اثنان من أكبر نجوم السينما المصرية توفيا أثناء عملى الميدانى فى مصر بعد أن انتهيت من كتابة هذا الفصل. المؤلفة).

جميع العرب يعرفون الأهرامات، لكن الصورة التى تستحضرها مصر فى الأذهان هى اللهجة المميزة التى طرقت أسماع الجميع فى الأغنيات والأفلام والمسلسلات التلفزيونية منذ الطفولة.

مع أنى أمريكية، ونشأت على صور الأهرامات ومومياءاتها، فقد بدأت عنايتى واهتمامى بموضوع السياحة فى مصر عندما كنت أعيش فى المملكة السعودية وأسمع حكايات وقصصاً عن الإجازات والعطل التى تمضيها صديقاتى السعوديات فى القاهرة. المملكة السعودية ملكية تحكمها عائلة سعود، وهى مكان لأقدس مدينتين عند الإسلام جعلت منها ثروتها النفطية الهائلة محط أنظار عمال مهاجرين من كل أصقاع العالم. كنت فى العشرين من العمر عندما مضيت إلى المملكة السعودية. فقد كان والدى وهو جيوفيزيائى، يعمل هناك. قررت أن أترك المدرسة وأقيم لبعض الوقت فى المملكة السعودية مع عائلتى. بعد أن جاءت حرب الخليج بصور شبه الجزيرة العربية إلى الأميركيين، دخل فى أذهان أصدقائى فى نيويورك بأنها مكان بائس ولا يمكن العيش فيه، لكننى لم أهتم بل على العكس فقد بدت لى تجربة جديدة تماماً و فرحت بذهابى إليها.

لا ريب فى أن المملكة السعودية تمثل شيئاً غريباً لأمريكى. يلتزم الرجال (يكاد الأمر يقتصر عليهم) بعقود للعمل هناك، وإن حدث واستلموا مناصب هامة فى شركاتهم، فيجلبون عائلاتهم. يعيش المغتربون الغربيون فى مجمعات خلف أسوار عالية مارست وظيفة أمن وحماية لهم فى السنوات الأخيرة مع تزايد عنف المعارضة للاحتلال الغربى لبلدان الشرق الأوسط. بدت تلك الأسوار فى تسعينيات القرن المنصرم، حيث كنت

يبدو سحر السياحة فى مصر القديمة جلياً للغربيين على خلاف السياح من الخليجيين الذين نادراً ما يقضون بعض وقت فى زيارة المواقع الفرعونية

سياحة الليل وسياحة النهار



■ ■ كنت فى العشرين من العمر عندما أخبرنى والدىّ بأننا سوف نرحل إلى المملكة السعودية. فى ذلك الوقت كنت أجهل العالم العربى. «أليست هى البلاد حيث مكة؟ إذًا دعونا نزور مكة». كان على والدى أن يشرح لى بأن مكة مكان للمسلمين فقط. لم أكن أعرف هذه الحقيقة عن الإسلام أو عن السعودية.

كنت فرحة ومصرة على الذهاب إلى مكان جديد وغريب كلية. وما بدا بأنه غريب وأجنبى، سرعان ما أصبح مألوفًا. درست عن السعودية والإسلام وعرفت الكثير عنهما. كما حصلت على عمل فى مدرسة للفتيات هناك واشتغلت مصورة فوتوغرافية مع إحدى السيدات السعوديات. فى الوقت الذى كانت هناك فيه فروق كبيرة بيننا فيما يتصل بالدين والثقافة. كان هناك الكثير مما نشترك به. فقد نشأت فى بيئة مسيحية محافظة تشبه بيئة الإسلام فى العديد من النواحى. صارت بعض زميلاتى وطالباتى صديقات حميمات وبقينا على اتصال. حتى عندما غادرت المملكة وذهبت إلى مونتريال لأنهى تعليمى الجامعى. ولصيفين. رجعت لزيارة والدىّ فى جدة. ومن خلال طالباتى السعوديات نمّيت اهتمامًا أكاديميًا بالطريقة التى يتواعد فيها الشبان والشابات السعوديون سرًا غير هيابين. يتحدون معايير جيل الآباء الثقافية.

عندما مضيت إلى الجامعة. أردت أن أنجز ورقة بحثى فى مكان ما من العالم العربى، لكننى لم أعرف أين. ثم وذات صيف مضيت إلى مصر لأدرس اللغة العربية ووقعت فى حب «أم الدنيا»، كما فعل كثيرون من قبل. فى القاهرة، وجدت كل شىء تحت الشمس. فقد سحرنى تنوع القاهرة وتناقضاتها. كما ألفيت البشر هناك حميمين بمزاج طيب. اتخذت قرارى حينئذ أن أقوم ببحثى الأنثروبولوجى فى القاهرة. ولأننى أيضًا أعرف أن العديد من أصدقائى من السعودية يمضون إجازات الصيف هناك. بدا لى ذلك فرصة طيبة كى أدرس جانبًا من المجتمع والثقافة السعوديين اللذين يتجسدان خارج حدود المملكة. سرعان ما خطرت لى فكرة القيام بمشروع بحث أنثروبولجى عن السياحة والنزعة العابرة للأمم/الحدود فى مصر.

عندما احتضنت الفكرة فى البداية. اعتقدت بأننى أعرف مسبقًا محصلة بحثى. فلقد عزمت على أن أجرى مقارنة بين الخليجيين والسياح الغربيين فى مصر. كما اعتقدت أن المفارقة ستبدو واضحة، بل وفاقعة. فالخليجيون يشتركون باللغة والدين والثقافة، ولسوف يتفاعلون مع مصر المعاصرة. أما الغربيون، فيفتقدون إلى اللغة والثقافة ومثقلون بتاريخ من الغزوات الاستعمارية. وسينصب اهتمامهم على التاريخ الفرعونى من دون أن يولوا أى اهتمام بالحياة والمجتمع فى مصر. باختصار، توقعت اختلافات بسيطة بين مصر الميتة وتلك الباقية على قيد الحياة.

وكما هو الحال دائمًا، يبدو الواقع أكثر تعقيدًا من التوقعات والآمال المبسطة. وبينما من الصحيح أن الغربيين نهمون جدًا بمصر الفرعونية، وجدت أيضًا علماء المصريات الغربيين الذين عزموا على التغلب على ارتباطات مهنتهم بالاستعمارية، والذين اهتمت بحوثهم بالسياسة المصرية المعاصرة وبالنزعة القومية/العصبية.

كما وجدت أن المواقف حيال الزوار من الخليجيين كانت مختلطة، وخلافية إلى حد ما. فالعديد من أصدقائى وصديقاتى المصريين كانوا متشكين فى الأسباب التى تدفع الخليجيين إلى القدوم إلى مصر فى الإجازات. لكننى كنت أعلم بحكم علاقاتى الوثيقة بصديقاتى السعوديات أن إجازاتهم فى مصر لم تكن أبدا لممارسة الرذائل. عندما وضعت كتابًا حول هذا، قررت أن أصور وجهات النظر جميعها على نحو منصف ومتعاطف مع كلا الطرفين.

أجريت هذه الدراسة كأمريكية تعشق العالم العربى وعندما طرحت فكرة نشر أطروحتى تلك بالعربية، بلغت سعادتى أقصاها. لكن خشية انتابتنى فى آن. ماذا لو أسىء فهمى؟. ثمة أناس قالوا لى: إن الكتاب سيصبح محط جدل وسيثير الخلافات لأن موضوعه السياحة الخليجية فى مصر. لكننى أعتقد أن القراء سيجدون فضائح أقل بكثير مما يتوقعون. ليس فى الكتاب أبطال ولا أنذال. ما يحويه فقط هو مزيج من وجهات نظر وآراء وسلطات سياسية واقتصادية. وآمل أن يُظهر لنا الطريقة التى تجعلنا نحترم كل الآراء، حتى لو لم تعبر عن وجهة نظرنا.

يهمنى أيضًا أن أنوه أننى كتبت هذه الدراسة بوصفى طالبة أدرس العلوم الإنسانية والثقافة والشرق الأوسط، وشأن جميع الطلاب، فأنا لاأزال أكتسب المعرفة والعلم. ولذا أرجو من القارئ العزيز أن يغفر لى أى أخطاء أو زلات وقعت فيها. ■

ليسا ون

سدنى - أستراليا تموز ٢٠٠٨

أعيش هناك آنذاك، وكأنها شيدت لتفصل فيما بين الثقافات. كانت للنساء خلفها حرية ارتداء ما يرغبن من دون أى إساءات أو نظرات متطفلة.

عندما كنت أعيش فى المملكة، كان من الصعوبة بمكان أن تجد المغتربات عملاً فيها. لذا انصرف العديد منهن إلى رياضة التنس أو إلى السباحة فى مسابح المجمعات. وغالبًا ما كانت أسر المغتربين وعائلاتهم تتخذ قرارها بالذهاب إلى هناك عندما يصبح لديهم أطفال صغار، وهناك تترك الأم عملها فى بلادها لتنصرف إلى تربية أطفالها. أما الرجال فيعملون مع زملائهم السعوديين، ويصبحون على صلة من خلال حوار بين ثقافى مع زملائهم.

كانت الشركة التى يعمل فيها والدى تتلقى وجبات طعام سعودية تقليدية تحوى لحم الضأن والكبسة. لقد علّم السعوديون الأجانب فن تقطيع شرائح اللحم وصنع كرة من الأرز باليد اليمنى من دون أن يستخدموا أى أدوات طعام. قيل للأجانب إن مقلتى الخروف تُعدان من الأطعمة الشهية والمترفة، وتذوقها يُعد ضربًا من شجاعة. كنت أسمع فى الغالب مغتربين لايتناولون لحم الماعز عادة يتحدثون عن طرق مختلفة للشى يطلقون عليها بالإنغليزية goat grabs (فى إشارة تعنى أن الطريقة من الأكل غير متحضرة) هناك شهدوها وذكروا بالاسم من تناول مقلتى الخروف.

تتميز الحياة فى المملكة السعودية بفصل صارم فيما بين الجنسين. ففى الوقت الذى يعمل فيه الأجانب من الرجال ويقيمون علاقات اجتماعية مع زملائهم السعوديين فى العمل، فهم لا يلتقون بنساء سعوديات. كما أنهم يقعون فى محظور السؤال عن صحة زوجة السعودى، فذلك يعد وقاحة حتى لو طرح السؤال بتهذيب جم. فى سن السادسة يذهب صبية السعوديين وفتياتهم إلى مدارس منفصلة، وأما الرجال والنساء هناك فلا يختلطون فى العمل إلا فيما ندر (وحتى فى تلك الحالات النادرة يبقون الأمر سرًا لتجنب غضب المطاوعة الذين يفرضون الدين والتقاليد كما أن السعوديين يتجنبون الاحتكاك مع زوجات الأجانب من زملائهم فى العمل وبناتهم انطلاقًا من تهذيب وبالتالى لا تتسنى للنساء الأجنبيات فرصة التعرف على النساء السعوديات، بما أنهن لا يتعرفن إلى زوجات زملاء أزواجهن فى العمل. تُعد النساء السعوديات لغز وأحجية لجميع الأجانب الذين يعملون فى المملكة، كما عبر عن ذلك أميركيون استخدموا عبارتين للإشارة إلى النساء السعوديات UBOS. Unidentified Black Objects أى «أشياء سوداء مجهولة»، أو أنهم يستخدمون عبارة «أكياس قمامة سوداء تمشى/ walking black trash bags» ازدراءً للعباءة الحريرية السوداء والطرحة اللتين تظهر بهما السعوديات فى الأسواق والمحلات. وما يزيد فى توسيع الهوة فيما بين السعوديات والأجنبيات ويكرس الحواجز الثقافية التى تحول دون أى تفاعل أن القليل جدا من الغربيين من يتحدث العربية (بالفعل فى الوقت الذى أشار فيه العديد من الكتاب المعروفين وعلماء الاجتماع إلى أهمية إماطة اللثام عن الصندوق الأسود للثقافة والمجتمع السعوديين. ثمة مشروع آخر يعادل إظهار الثقافة السعودية إلى العلن أهمية يتجلى فى توصيف وتحليل ثقافة المغتربين الأجانب فى المملكة السعودية والطريقة التى تفعل تجسد بها وتستهلك صورًا تتصل بأشكال اللباس للآخر السعودى (كما يتجلى ذلك فى الدمى الصغيرة التى تملكها أسر وعائلات المغتربين الأجانب، بمن فيهم أسرتى، والتى تظهر رجالاً ونساء سعوديين يرتدون لباسهم التقليدى. المؤلفة).

ذات يوم وبعد وصولى إلى المملكة بوقت قصير، اتصلت بى إحدى النساء الأمريكيات، زوجها زميل لوالدى فى العمل، تعرف واحدة من السعوديات عاشت سنوات عديدة فى ولاية كلُرادو الأمريكية. كانت السيدة السعودية تبحث عن مدرِّسة تصوير وأخرى تعلم اللغة الإنغليزية لمدرسة بنات كانت هى مديرتها. تقدمت لكلا العملين، ودرّست لعام كامل اللغة الإنغليزية للصفوف الرابع والخامس والسادس، كما درّست فن التصوير من الصف السابع إلى الثانى ثانوى.

فى ذلك العام تعرفت إلى مدرسات أخريات فى المدرسة وأصبحت علاقتى حميمة مع بعض طالبات قسم التصوير، اللواتى كنت أكبرهن ببضع سنوات فقط. كما تعرفت إلى سوزان أيضًا وهى المسؤولة عن دروس التصوير فى المدرسة.

سياحة الليل  وسياحة النهار

كانت توثّق أحداث المدرسة والعديد من حفلات الخطوبة للطلاب بالصور الفوتوغرافية. عملت معها في تصوير حفلات الخطوبة والأعراس عندما كانت تلتزم بتصوير إحدى المناسبات. بعد عام أمضيته في التدريس، عدت إلى الكلية، لكنني كنت قد أمضيت موسمي صيف في المملكة قبل أن أبدأ دراستي الجامعية. اعتدت لقاء أصدقائي السعوديين وأعمل في الصيف مع سوزان.

بدأتُ علاقة حميمة مع عائلة مريم إحدى طالباتي السابقات. اعتدنا الخروج مع والديها في العديد من أمسيات الصيف عندما يخلي القيظ مكانه لجو بارد منعش. كنا نذهب إلى مراكز التسوق الضخمة ونشتري الآيس كريم لأشقاء مريم الصغار ونتجول بين المحلات المختلفة. أما والدها بوجهه الضاحك الذي تجمعت كل تجاعيد الدنيا في عينيه، فقد كان دائم النصح لي بأفضل ما يمكن سماعه من الغناء العربي. برأيه كان راشد الماجد مطرباً جيداً لكن الأفضل ودائماً بحسب رأيه، هو المطرب المصري محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ. مرة ذهبنا بسيارته إلى الكورنيش حيث ترجلنا ومشينا ليغمرنا النسيم العليل هناك. كنت أرتدي الزي السعودي التقليدي العباءة والطرحة كما مريم. أما والدها فاكتسى جلابيته البيضاء واعتمر كوفيته الموشاة بمربعات حمر وبيض. كنا نتشبث بيدي شقيق مريم الأصغر الذي ارتدى بنطالاً وتي شيرت. مرت بنا مجموعة من الشبان يلبسون الجلابيات ويتنزهون بين العشب الفاصل بين الطريق ورصيف المشاة. عندما حاذيناهم انطلقت شفاههم بتهليل ومديح. جذبت مريم طرف طرحتها بخفر وحياء وغطت بها وجهها الذي تكشف عن ابتسامة عندما أخبرتني بأنهم كانوا يرددون بعضاً من شعر يمتدحون فيه حسننا. تجاهل والدها بكل لباقة كلمات الغزل التي كانت تلاحقنا. هكذا كنا نمتع أنفسنا في الصيف.

التقيت بعمر الذي عرفني على العديد من أصدقائه، ذكوراً وإناثاً، بمن فيهم اثنان غير متزوجين كانا يتواعدان في السر بالطبع، لكن ذلك لم يكن جديداً على كلية، ذلك أنني علمت أن بعضاً من طالباتي السابقات في المرحلة الثانوية كنّ يواعدن أصدقاءهن عبر أصدقاء آخرين أو في المراكز التجارية في جدة، أو على الشواطئ في منطقة «أبحر»، وهي منتجع مائي يقع إلى الغرب من جدة حيث الأرض ملكية خاصة مما يمنع المطاوعة «الشرطة الدينية»، من أن يفرضوا فصلاً صارماً بين الجنسين كما هو الأمر في أمكنة أخرى.

ثمة مكان آخر يلتقي فيه شبان وشابات المملكة ويتواعدون في إجازات الصيف، إنها القاهرة. وفي الغالب يخطط الأصدقاء السعوديون لإجازاتهم من أجل أن يلتقي بعضهم ببعض خارج البلاد. مصر هي المكان الذي يكثرون من التردد عليه حيث يذهبون إلى القاهرة والاسكندرية، وأحياناً إلى شواطئ الغردقة.

كانت مريم قد أمضت جانباً من الصيف مع خطيبها في مصر، كما التقت هناك أصدقاء وصديقات لها عرفتهم في جدة. واحدة من صديقات مريم التقت بصاحبها، أصبح فيما بعد خطيبها، أثناء إجازة في القاهرة.

ما كنت أسمعه أذهلني. سألت صديقاتي من السعوديات ما كن يفعلنه في مصر، وما هي الثياب التي كنّ يلبسنها (أو كن يرتدين العباءات والطرحات؟) وكيف كنّ يلتقين أصحابهن من الرجال. وكيف يتدبرن ويهربن من آبائهن ليخرجن مع شلة مختلطة صبية وصبايا. لا أزال أحتفظ بصورة أعطانيها عمر التقطت له في آخر مرة كان فيها في إجازة في القاهرة مع أصدقائه السعوديين. تظهر الصورة عمر وصديقه المقرب عبد الله في غرفة في أحد الفنادق في مصر. كان عمر قد عاد لتوه من المسبح يرتدي الشورت وتي شيرت أصفر أو برتقاليا بشعر مموج أقرب إلى الطول منه إلى القصر. ما جعله يعلق على شعره آنذاك الذي جعله يبدو وكأنه ريفي قدم من منطقة جيزان (مقاطعة في جنوبي غربي السعودية). يظهر عمر في الصورة وهو متكئ على خزانة في غرفته في الفندق بساقين متصالبتين كيفما اتفق عند الكاحلين، مطلقاً ابتسامة عريضة. أما عبد الله فيبدو على سيمائه الجد وتكسو وجهه ملامح غطرسة. كان شعره طويلاً في مؤخرة رأسه وقصيراً في المقدمة وعلى الجانبين ووسم وجهه شاربان رفيعان. كان يرتدي قميصاً حريرياً من نوع فيرزاتشي Versace مونّس بالأحمر والأصفر والأخضر. من الواضح في الصورة أنه كان يهم بالخروج. أذهلتني الاختلافات بين هذه الصورة وتلك التي للسياح الغربيين الذين أعرفهم و زاروا مصر. فصور أولئك الأخيرين تبرز الأهرامات وأبو الهول والمعابد الفرعونية. أما الصور التي بحوزة عمر فلم تظهر أياً من النصب والمعالم التاريخية، هناك فقط الفنادق والمسابح.

مصر هي المكان الذي يكثرون من التردد عليه حيث يذهبون إلى القاهرة والإسكندرية، وأحياناً إلى شواطئ الغردقة

حكى لي عمر عن قصص مدهشة في أثناء إجازاته في مصر. وكنت سمعت حكايات أثارت فيّ دهشة أكثر في أثناء وجودي في السعودية، لكنها في هذه المرة جاءت على لسان النخبة الليبرالية من الطبقتين الوسطى والعليا. (في الطرف الآخر كانت صديقتي نجوى، وهي امرأة سعودية محافظة متزمتة تغطي وجهها بخمار وطرحة، وحتى عينيها لم تسلما من اللون الأسود، فقد قبعتا تحت نظارة سوداء خشية أنظار الرجال الغرباء المتطفلة). لقد زعزعت الحكايات التي كنت أسمعها قناعاتي بالنزعة المحافظة الصارمة السائدة في المملكة، وجعلتني أرى بأن الجيل الأصغر من النساء والرجال العزّب كان يتحدى المعايير الثقافية السائدة التي تفصل فيما بين الجنسين والتي فرضها النظام بالقوة.

لم يكتف الشبان والشابات بالمواعدة للحصول على بعض من متع، بل أفلحوا أيضاً في التخلص من الزيجات المرتبة وفي أن يختاروا شركاءهم بملء إرادتهم Wynn، ١٩٩٧ (تضم الأعمال التي عالجت الفروقات الثقافية فيما بين الأجيال في المملكة السعودية التركي ١٩٨٦- الرشيد ٢٠٠٢ العريبي ١٩٩٤ دوماتو Doumato ٢٠٠٠ واليماني ٢٠٠٠. المؤلفة).

عندما انتسبت إلى الجامعة لأدرس الأنثروبولوجيا، انتابتني شكوك بأنني لن أتمكن من الحصول على إذن يمكنني من البحث العلمي والعمل الميداني في السعودية، لكنني لم أتخل عن الفكرة. فبإمكاني القيام بإنجاز بحث إثنوغرافي عن السعودية، لكن موقع عملي الميداني سيكون مصر. قمت بعملية سبر واستكشاف للإجازات الصيفية التي يقضيها السعوديون في مصر بوصفها نافذة مشرعة تمكنني من الولوج إلى التغيرات والتحولات التي طرأت على الأجيال في الثقافة السعودية والاستقصاء إلى أي درجة دعم فيها السياح السعوديون المعايير الثقافية في بلدهم أو انحرفوا عنها في أثناء وجودهم في إجازاتهم في بلد عربي أكثر ليبرالية.

عندما حاولت أن أعثر على أدب أكاديمي غربي يتحدث عن السياحة العربية في مصر، أخفقت، إذ لم يكتب سوى القليل عن هذا الموضوع. اعتقدت للوهلة الأولى أن مرد ذلك هو قلة الكتابات نسبياً في العلوم الاجتماعية حول المملكة السعودية بشكل عام. وفي الوقت الذي يوجد فيه كثير من «الاختصاصيين» الذين كتبوا عن مصر، ليس هناك سوى حفنة من علماء الاجتماع من كتب عن المملكة السعودية، وقلة منهم قامت ببحوث في البلاد وحتى فيما يتصل بالغربيين الذين يتحدثون العربية، فإن اللهجات المحلية في السعودية ليست معروفة إلا على نطاق محدود جداً. (بعض أفضل الدراسات في العلوم الاجتماعية التي

سياحة الليل  وسياحة النهار

تناولت المملكة السعودية ونشرت باللغة الإنغليزية كتبتها ثلاث أنثروبولوجيات سعوديات ثريا التركى ومضاوى الرشيد ومى اليمانى. المؤلفة)

عندما غرقت فى ماكتب عن السياحة، أدركت أن غياب أى نقاش حول السياحة الخليجية فى مصر لا يعزى إلى ضآلة الدراسات الأكاديمية والمنح الدراسية باللغة الإنغليزية حول بلدان الخليج، بل له علاقة بالافتراضات الضمنية التى صورت السياحة عموماً على أنها ظاهرة غربية. كى نجيب عن هذا السؤال من المفيد لنا أن نقوم بمراجعة سريعة لكتابات العلوم الاجتماعية التى تناولت السياحة.

قوم زائفون:

فى عقد الستينيات من القرن المنصرم، بدأ علماء الاجتماع بالكتابة عن السياحة والتنظير لها بوصفها صنفاً فريداً من الترحال. جون فُرستر كان واحداً من الأوائل الذين كتبوا فى هذا الميدان عندما قال إن صناعة السياحة خلقت «قوماً زائفين» جنباً إلى جنب مع «ثقافة فولكلورية زائفة» ‹Forster 1964: 217-227›. عندما تتحول المناسبات إلى «فرجة» للاستهلاك السياحى، أو عندما يرتدى الناس أزياء تقليدية ويصرون على أن يدفع لهم السياح نقوداً مقابل الصور الفرتوغرافية التى يلتقطونها لهم. بحسب فرستر كان ذلك هو الأسلوب الذى حولت فيه السياحة التفاعلات الاجتماعية العامة إلى سلع وبضائع تباع وتشرى ما هدد بتدمير الأصالة الثقافية.

فى العقدين التاليين، أى فى السبعينيات والثمانينيات ردد العديد من المنظرين صدى جدال فرستر حول اللاأصالة الثقافية التى ولدتها السياحة، معتبرين أن تسليع الأشكال الثقافية (وليس تسليع اللباقات فقط) هو ما صير الثقافات التقليدية إلى ثقافات غير أصيلة وبالتالى إلى ثقافات لامعنى لها.

فى هذه الكتابات، تم تصوير الحداثة على أنها حالة تغريبية، كما جعل الناس فى المجتمع الصناعى (حيث يخلو العمل من المعنى) يبحثون عن المعنى والأصالة فى الثقافة. اتخذ هذا السعى لبوس السياحة بما أن نظرة المرء إلى ماضيه التاريخى (كما يحدث فى مواقع السياحة التاريخية شأن تلك التى تسعى إلى إعادة خلق الحقب الاستعمارية أو قرية الفايكنغ)، أو ماضياً معاصراً آخر هو أسلوب فى الحياة أقل تعرضاً لسيرورة التصنيع يمد الناس الآخرين بالأصالة الثقافية كبديل عن فقدان المرء لأصالته هو. فى هذا المنظور، يتم سجن السائح والمُساح فى ديالكتيك مفاده، الأصالة خسرت وسعى إليها، استهلكت على نحو تلصصى وبالتالى تآكلت. من غير المدهش، أن هذه الكتابات صورت السياحة على أنها تفترس الثقافة التى كانت تدمر ما تستهلكه.

من الممكن أن نأخذ افتراض أولئك المنظرين الذى يقول إن السائح شخص غربى بالحسبان ولكن على نحو جزئى بالتأسيس على فكرة أن المجتمع الغربى فقط هو الذى يمتلك الأساس الاقتصادى لإنتاج سياحة شعبية لكن الافتراض ذاته مستمد أيضاً من اقتران السياحة بالحداثة وبموقف متفرد حيال السياحة بوصفها وقت فراغ. رغم ذلك يشكل عرب الشرق الأوسط وشمال أفريقية تقريباً ثلث الزوار الأجانب إلى مصر كل عام، نصفهم سياح خليجيون (هذه الأرقام هى لعام ١٩٩٨ مصدرها الكتاب السنوى للحكومة المصرية عن السياحة). وعلاوة على ذلك، يمكث السياح القادمون من الخليج لوقت أطول من نظرائهم الغربيين وينفقون نقوداً أكثر منهم، ما يجعل السياحة العربية عاملاً هاماً فى دعم الاقتصاد السياحى. لا يكتفى السياح العرب بالظهور فى مصر فقط، بل يتدفقون إلى بيروت ومراكش وإلى مدن أوربية وأمريكية أخرى صيفاً. إن الإقرار بمقولة السياح العرب على جانب من الأهمية ليس لأن ذلك يمارس تحدياً لصورة عن السائح عفى عليها الزمن، بل لأنه يزعزع الافتراضات التى تدور حول العلاقة بين الحداثة والثقافة الغربية.

أصالة مراوغة أم خادعة؟

بحسب منظرى السياحة شأن كثلين أدمز وفالين سمث ودين مكانل تعرضت الأصالة الثقافية لعملية تآكل ليس من خلال تسليع الثقافة فقط، بل من خلال الطريقة التى تعيّن فيها السياحة المادة المناسبة لفرجة السائح. فالسائح يرغب فى رؤية طقوس ثقافية أصيلة لزام أن تؤدى له. لكن وفى اللحظة التى تؤدى فيها هذه الطقوس، تكف عن كونها أصيلة. إن سعى السائح للأصالة يؤدى إلى تفتيشه فى الكواليس - كل أداء طقسى محضر لجمهور سياحى يولد بحثاً عن الحقيقة الاجتماعية الكامنة خلف الأداء. لكن الكواليس مراوغة وهى تنزلق دائما من متناول السائح. فى الواقع لا يمكن إيجاد ما خلف الكواليس، لأنه وفى اللحظة التى تقع فيها عينا السائح عليه، يكف عن كونه خلفاً حقيقياً.

(رغم ذلك، فإن مكنل محق بالإشارة إلى أن هناك نوعا محددا من السياحة يدور حول سعى إلى أصالة أبداً مراوغة وجلية. هذا التوق الحديث إلى تجربة تجسد الأصالة والإرث والثقافة تنتج حالة مفارقة لا يمكن إنجاز الأصالة فيها أبداً. ذلك أنها وفى اللحظة التى يتم فيها وسمها بهذه الطريقة ستكف عن كونها أصيلة).

وكما أشارت جودث بتلر (١٩٨٩ - ١٩٩٣) فى تطبيقها النسوى لمفهوم الأدائى فالعلاقة بين الأداء والهوية هى سيرورة تتداخل مع السلطة (انظر أيضاً ‹Mitchell 2002›). تعد هذه النقطة حاسمة فى تناولى السياح العرب والغربيين بالدراسة والتمحيص فى مصر. فكلاهما فى موقع من السلطة وجهاً لوجه مع معظم المصريين. إذ يشكل السياح الغربيون سلطة اقتصادية مقابل غالبية المصريين الذين يعملون فى اقتصاد السياحة، كما أن للاهتمام الغربى بالأوابد الفرعونية جذورا تمتد إلى قرون بل حتى إلى ألفيات من الإمبريالية فى مصر إن وسعنا من كلامنا ليشمل قدامى الإغريق والرومان. إن الخليجيين أيضاً، هم فى موقع من السلطة مكنتهم فيه ثروتهم النفطية التى جعلت من المصريين شغيلة فى الخليج، وحولت مصر إلى ملعبهم الصيفى. يتناول المصريون السياح العرب بالنقد والتحليل ويتهمونهم باستغلال ثروتهم لنشر الفساد الأخلاقى، بدءاً بالاستغلال الجنسى للنساء المصريات، إلى رعايتهم للأعمال المسرحية السوقية البذيئة التى تخبأ إلى حين الصيف بانتظار الجمهور العربى القادم من الخليج.

إن سلطة جائرة غير متكافئة بين السائح والمُساح تجبر البشر على الخضوع إلى تعريفات خارجية للأصالة الثقافية تهدف إلى إشباع آمال السائح وفانتازياته.

ثمة نقطة شبيهة أخرى يمكن تطبيقها على مصر، حيث ساهمت السياحة العربية والغربية فيها فى تطوير هوية قومية مصرية. يتفحص هذا الكتاب الطريقة التى تشابك فيها تاريخ الارتحال الغربى والاستعمارية والسياحة وكيف ساهمت جميعها فى خلق صورة ذات مصر القومية المعاصرة بوصفها دولة فرعونية بالغة القدم. منذ ثلاثة قرون لم يبد المصريون اهتماماً بالأهرامات سوى بالحد الأدنى، حتى عندما كانت أوربا تمر بمرحلة «الهوس بمصر/ الإيجبتومانيا».

لكن الحال تغير، ففى أيامنا

يشكل السياح الغربيون سلطة اقتصادية مقابل غالبية المصريين الذين يعملون فى اقتصاد السياحة، كما أن للاهتمام الغربى بالأوابد الفرعونية جذورا تمتد إلى قرون

سياحة الليل  وسياحة النهار

هذه بدأ المصريون ينظرون إلى الأهرامات بوصفها جزءاً من إرثهم القومى كما أن العديد منهم يعتز بأمجاد الماضى الفرعونى. لقد ساهم الافتتان الغربى التاريخى بمصر القديمة من دون ريب فى توسيع وتضخيم الهوية المصرية بوصفها أرضاً فرعونية قديمة.

لكن الماضى الفرعونى ليس سوى مكون واحد فقط من الهوية القومية المصرية لمعظم المصريين، فمصر هى موطن أم كلثوم بقدر ما هى موطن الأهرامات. وليست المسألة فى إيجاد مصدر أو مصدرين للهوية المصرية أو اكتشاف أى هوية هى الأكثر أصالة، بل هى رؤية الطريقة التى خلقت فيها الهويات المتعددة المتصارعة أحياناً وحددت عبر نقاط من الاحتكاك العابر للأمم مع الدخلاء.

إثنوغرافيات السفر والسياحة

عندما انتسبت إلى الجامعة فى منتصف عقد التسعينيات كان بعض المنظرين يدعون لإثنوغرافيا بغية الامتداد إلى أبعد من دراسة القرية المحلية التقليدية. لذا شرعوا يدرسون حركة الشعوب والأشياء رافضين أفكار الثقافة والسكنى المحددة الثابتة زماناً ومكاناً. تأتى أنا تسنغ فى كتابها Realm of The Diamond Queen 1993 بمثال عن هذه المقاربة. مقاربة أخرى كنت قد وقعت فى غرامها هى إثنوغرافيا أميتاف غوش (Amitav Ghosh) الذى وصف قرية فى دلتا نهر النيل على أنها ابتليت «بكل القلق المحموم الذى يستولى على مسافرى الخطوط الجوية القابعين فى ردهة العبور (الترانزيت)» Ghosh 1992, cited in Clifford 1997:I.

كان لجيمس بون وهو أحد أساتذتى، فهم تاريخى على نحو أفضل فيما يتصل بالكتابات الأنثربولوجية، وأشار إلى بكياسته بأن جيلى من الأنثربولوجيين، وجيله، لم يكونوا أول من كتب عن الهويات الهجينة والشعوب المتنقلة. وبالعودة إلى عام ١٩٥٥ كان كتاب كلود ليفى شتراوس «Tristes Tropiques» واحداً من أول وأعظم الإثنوغرافيات فيما يتصل بالسفر والترحال التى صورت الموضوع الإثنوغرافى بوصفه منزاحاً وهجيناً على قدم المساواة كما هو حال الأنثروبولوجى. لقد وصف شتراوس، عندما قدم لأول مرة إلى مدينة ساو باولو وبدأ يبحث عن أناس كى يدرسهم، «لقد أرضت فضولى الأنثروبولوجى قرية بدائية تبعد حوالى خمسة عشر كيلومتراً عن ساو باولو لسكانها المهلهلين شعر فاتح وعيون زرقاء أظهرت أصولهم الجرمانية حديثة العهد» Levi-Strauss 1981 "1955" I39.

قبل توجهى إلى الميدان مباشرة التهمت كتاب جيمس كلفرد «Routes» الذى صدر فى عام ١٩٩٧ فى أثناء ذلك الوقت، عدت إلى جامعة برنستون بعد أن أمضيت سنوات فى هذا الميدان، وأدركت فى وقت متأخر، أن إرث الأنثروبولوجيين الذين يكتبون حول السفر والترحال لم يترسخ بما فيه الكفاية.

فى ظنى أن أحد الأسباب التى ساهمت فى عدم إتاحة الفرصة للسياحة أن تتحول إلى مسألة على جانب كبير من الأهمية فى الأنثروبولوجيا يكمن فى أن السياح هم أقرباء توع، فهم يتصرفون شأن مرآة مطقطقة نستطيع من خلالها أن نرى شيئاً من النظام الاجتماعى الذى يفرّخ أنثروبولوجيين إضافة إلى سياح. وعلاوة على ذلك، يذكرنا السياح ببعض السياقات والدوافع والالتباسات التجريبية والبلاغة التى تشترك فى جعل المرء أنثروبولوجياً «Ibid:78».

رغم ذلك وفى الوقت الذى يستخدم فيه كرك مفهوم السياحة، حيث الأصالة دائماً مسألة عالقة، بوصفه طريقاً لتحدى أصالة الأنثروبولوجى وسلطته كمؤول وناطق ثقافى، يستخدم جيمس بون «James Boon 1992» المقارنة «لاستكشاف الإمكانيات العابثة للمواجهات غير الأصيلة المتقاطعة ثقافياً التى تتبنى سلطة أكثر اكتمالا»، ويقترح أنه، ومن خلال قبولنا بالمواجهات السياحية بوصفها موضوعات صالحة للدراسة الإثنوغرافية، فمن الممكن لهم، أى: الأنثروبولوجيين أن يفلحوا فى الكشف عن بعض من أفكارنا التى أقامتها الأعراف حول ما يؤسس لمصدر معلومات أصيل وهو لقاء ميدانى ملائم ومادة حقيقية لملاحظات ميدانية. فى هذه الدراسة، مدى واسع من الهجناء/ مصادر المعلومات، بمن فى ذلك راقصة أسترالية تحدّت قانوناً جديداً فى المحكمة المصرية يحظر على غير المصريات ممارسة الرقص فى مصر وقروية من نزلة السمان - قرية تقع بجوار الأهرامات- والتى عاشت لعقود طويلة فى الغرب كمهندسة أقمار صناعية صغيرة وعادت الآن لتفتتح «بازاراً» سياحياً على بقعة من أرض رغب الإيجبتولوجيون بها وأرادوا أن يحفروا هناك بحثاً عن بقايا فرعونية وجيولوجية أمريكية دخلت فى جدال أشبه بالنزاع بشأن تأريخ إيجبتولوجى لنصب الجيزة ومعالمها التاريخية والتى جاءت إلى القاهرة من أجل القيام ببحوث وإلقاء محاضرات عن مصر العريقة بالاشتراك مع كاتب نيوايجى (New Age حركة حديثة تؤكد على العامل الروحى فى الحياة. ظهرت هذه الحركة فى عقد الثمانينيات وأكدت على الوعى الروحى ويؤمن أتباعها بالتقمص وعلم الفلك وممارسة التأمل. New Age traveler أى مسافر نيواجى وهو عضو فى حركة ثقافية نيوايجية يسافر فى الغالب ضمن مجموعات فى أمكنة لها دلالات روحية.المترجم) وامرأة سعودية شابة أمضت أيام الصيف فى مصر حيث كان والدها يعيش ووالدتها التى كانت تجىء وتروح ما بين عملها فى جدة وأسرتها فى القاهرة. وهذا يعنى أن نرى ارتحال هذه الشخصيات وهوياتهم الهجينة على أنها جوانب أصيلة للمجتمعات والثقافات فى نهاية القرن وليس بوصفهم أناسا كوسموبولوتيين على نحو استثنائى وأن نضعهم مقابل شخصيات أصيلة على الصعيد الثقافى.

أكد عدد من الأعمال النظرية الحديثة كيف أن السفر واللقاءات المتقاطعة ثقافياً ساهمت فى إنتاج ذاتيات فى مشروعات بناء الأمة

وهكذا فقد أثارت دراسة السياحة مسألتين نظريتين رئيستين فيما يتصل بالأنثربولوجيا. إحداها موقع الهوية، وربما موقع «الثقافة» بحد ذاتها. تكشف مقارنة التجارب العربية والغربية فى مصر عن الطريقة التى خُلقت فيها الهويات القومية عبر اللقاءات مع الهويات الأخرى.

أما المسألة النظرية الثانية التى أثارتها الدراسات السياحية تلك التى تتصل «بالأصالة» الثقافية وموقع الأنثربولوجيا بحد ذاتها: ماذا يجدر بالأنثروبولوجيين أن يدرسوا وما عليهم أن يوجزوا فى وصفهم «ثقافة» أو شعباً»؟ لقد أكد عدد من الأعمال النظرية الحديثة كيف أن السفر واللقاءات المتقاطعة ثقافياً ساهمت فى إنتاج ذاتيات فى مشروعات بناء الأمة. عندما تلتقى جماعةٌ جماعةً أخرى، تعرّف كل منهما الذات والآخر، وترسمان الحدود وتفهمان الاختلاف. وبحسب ملاحظة كريس برينتس «إن تأسيس «الذات» و«الآخر» لا ينفصل عن إفسادهما لبعضهما البعض، ٥٠: ١٩٩٤.

من المفيد أثناء دراستنا للسياحة أن نجمع مجاز الاستهلاك إلى مجازات السفر والاحتكاك المتقاطعة ثقافياً بغية فهم سيرورات بناء الهوية التى تلى ذلك. رغم أن للسياحة الغربية فى مصر جذورها فى اللقاءات الاستعمارية المفروضة فيما مضى، وأحيانا عنيفة، لذا للسياحة فى أيامنا هذه أساس مختلف من السلطة: السلطة الاقتصادية التى استخدمتها ببراعة طبقة المستهلكين العالمية التى تشتغل فى بلد فقير حيث ريوع (الدخل الناتج عن) السياحة تأتى فى طليعة المصادر الثابتة التى تعود على البلد بالنقد الأجنبى. هذا لايعنى الحديث عن

سياحة الليل وسياحة النهار



الاستهلاك بالمعنى الذى اقترحه بعض المنظرين الأوائل للسياحة، حيث يلوث التبادل الاقتصادى مع السياح ثقافة أصيلة محلية إلى حد ما، بل يهنى رؤية الكيفية التى هيأ فيها السياح المستهلكون الدوافع لأولئك الذين يشتغلون بالسياحة، فى الصناعات الخدمية و الإنتاج الثقافى وحتى فى علم الآثار (من الراقصات الشرقيات إلى «رقص الدراويش، الذى يؤدى أمام جمهور من السياح الغربيين قرب خان الخليلى إلى الإنتاجات المسرحية للسياحة الصيفية العربية)، ليشتركوا فى خيال بعينه عن مصر.

فى بداية هذا الفصل تقريبًا، كنت قد وصفت الطريقة غير المباشرة التى جعلتنى أهتم بموضوع بحثى، بعد أن مكثت وعائلتى فى المملكة السعودية (فى أثناء ذلك كنت سائحة فى اليمن والأردن). إن الوصف المؤلم للجالية المغتربة فى جدة والتى كنت أشكل جزءًا منها، مع حماستنا للتسابق على الفوز بأكبر قطعة لحم، والدمى الإثنية السعودية والوصف المزدرى للسعوديات ليست مجرد انحراف غريب الأطوار فى لحظة محرجة من ماضىّ قبل أن «أصبح أنثروبولوجية»، ومن المفترض أننى اكتسبت منظورًا أكثر تطورًا وثقافة فيما يتصل بالفروق الثقافية. فالتأسيس لسردى الخاص هنا فى تاريخ محدد من الخيالات العابرة للأمم هو جهد مدروس، وهو أيضًا رسالة تذكير لى بأن الأنثروبولوجيا فى الشرق الأوسط تمشى يدًا بيد مع أشكال أخرى من اكتساب المعرفة والحوارات السياسية والاقتصادية فى المنطقة، وحتى الاحتلال العسكرى الغربى. إن المغتربين والسياح أنسباء للأنثروبولوجيين، فهم يتصرفون مثل «مرآة مهشمة نستطيع أن نرى فيها شيئًا من النظام الاجتماعى الذى يفرخ أنثروبولوجيين وسياحًا» ‹Crick 1985: 78›. وكما يتشبث المبحث المعرفى بالطرق التى اشتغلها أنثروبولوجيو الحقبة الاستعمارية من مواقع بعينها كانت مزيجًا من التعاون مع السلطة الاستعمارية، والاعتماد عليها، ومعارضتها، يجدر أيضًا بأنثروبولوجيى الشرق الأوسط المعاصرين أن يأخذوا فى الحسبان الطرق التى كان فيها دخولنا إلى العالم العربى مشروطا وممكنا ومعاقا من خلال الغزوات العسكرية الأوربية والأمريكية على المنطقة وبالتالى الهيمنة عليها ثقافيًا ‹Asad 1991›. وما قدومى المبكر إلى العالم العربى بوصفى تابعة لعالم أمريكى فى المملكة السعودية إلا جزءا من ذلك.

إذا كانت مشاهد الوصول هى مادة أيقونية خام للكتابات الإثنوغرافية التى تصور الاحتكاك الأول الذى قامت به تلك الإثنوغرافية (التى هى أنا) مع موقع عملها الميدانى الذى تم التخطيط له سابقًا ‹Pratt 1986› فإن الأنثروبولوجيين المعاصرين لا يمتلكون فى الغالب سوى القليل من مشاهد الوصول، حتى قبل أن ينطلق العمل الميدانى الرسمى، بما أن اكتساب المعرفة الأنثروبولوجية يتم افتراسه دائما من قبل أشكال حداثية (ومابعد حداثية) أخرى من اللقاءات الثقافية. شأن أولئك الأنثروبولوجيين الذين زاروا موقع عملهم الميدانى بداية كسياح أو موظفين لوكالة تطوير دولية أو منظمة غير حكومية، أو مدرسين للغة الإنغليزية، أو راقصة شرقية أو . . (ويمكن أن تستمر لائحة من «اللقاءات الأولى» إلى ما لا نهاية). ولأنثروبولوجيين «أصلانيين» ‹Limon 1991› و«نصفيين»[1] ‹Abu-Lughod 1991› يعد العمل الميدانى عودة أكثر منه لقاء أول أو ثانيا أو أخيرا. بالانسجام مع هذه الحالة المعاصرة من الاستقصاء الإثنوغرافى، فإن مشهد الوصول الذى وصفته فى بداية الفصل الثانى، «الكنز المدفون»، هو مشهد من سلسلة وصولات تعود إلى اللحظة التى قررت فيها أن أرافق والدى إلى المملكة السعودية. تلك الحقيقة وجوانب أخرى من الظروف التى أحاطت ببحثى فى مصر تستحق مزيدًا من التوضيح، وهكذا قبل البدء فى التوصيف الإثنوغرافى يجمع الفصل الأول، هذا الخيط ثانية مع نقاش «علم الأخلاق ومنهجية الأنثروبولوجيا عابرة الأمم». يناقش هذا الفصل الظروف التى أحاطت بإقامتى فى مصر والبحوث التى قمت بها هناك وبعض المسائل الأخلاقية فيما يتصل بالقيام ببحوث إثنوغرافية بين جماعات صغيرة من كبار المثقفين والمشهورين من مصادر المعلومات الذين يمكن أن تتأثر حيواتهم الشخصية ومهنهم بنشر هذه الدراسة الإثنوغرافية. كما يتصدى هذا الفصل لبعض المشكلات المنهجية الكامنة فى الإعداد لإثنوغرافيا عابرة للأمم متعددة المواقع فى بيئة مدينية.

كما تصديت للقضايا المنهجية فى الفصل الثانى، حيث سردت بعض المشكلات التى صادفتها أثناء محاولتى لإيجاد مصادر معلومات يتسنى لهم الوقت للتحدث إلى أنثروبولوجية غير ملمة بمادتها التى تعمل عليها، وفى الفصل الرابع، حيث ناقشت صعوبة دراسة السياح، خصوصًا لأنثروبولوجية أمريكية تريد أن تعرف لم يأتى السياح الخليجيون إلى مصر.

يراجع الفصل الثانى «الكنز المدفون»، تاريخ علم المصريات الذى انطلق فى تلك الأيام حيث كان سعيًا وراء كنز مباح لجميع الأوربيين أكثر منه سعيًا وراء علم الآثار. ثمة حكايات هامة لزام أن نسردها، شأن سباق على طراز إنديانا جونز بين عالم أركيولوجيا ألمانى وآخر فرنسى للحصول على دائرة بروج دندرا (سلسلة من الأفلام قام ببطولتها الممثل الهليوودى هرسن فورد وأخرجها ستيفن سبلبرغ. تتحدث هذه السلسلة من الأفلام عن عالم آثار مغامر يهرب من الخطر فى اللحظة التى يقع فيه. إنديانا جونز وهو اسم البطل فى الفيلم شخصية مغامرة تركب المخاطر يشدها شغف البحث عن كنوز العالم. المترجم).
إنهمّ مسلمو العصور الوسطى بالماضى الفرعونى، وعدوه دليلاً على عرق قديم من السحرة- العماليق. لكن الغربيين تسيدوا ميدان علم المصريات لقرون عديدة، وحتى فى أيامنا هذه لايزال علماء المصريات المصريون مجبرين على نشر كتاباتهم باللغة الإنغليزية والفرنسية والألمانية، فى الوقت الذى تتحدث ثلة من علماء المصريات الغربيين العربية وقليل منهم من يكتبها. لا يفسر ذلك بقلة الاهتمام الذى يبديه العرب بمصر الفرعونية، بل يفسر تاريخ الاستعمارية الغربية فى مصر وسيطرتها على المؤسسات التى تنظم عصور مصر القديمة.

إن النزعة الفرعونية التى تتماهى مع مصر التاريخ القديم، هى أصل رئيس للنزعة القومية المصرية الحديثة. فقد هللت الصحافة المصرية لاكتشاف عالم المصريات زاهى حواس قبور بناة الأهرامات فى تسعينيات القرن المنصرم لإقامته الدليل على أن من بنى الأهرامات هم عمال مصريون وليسوا عبيد بنى إسرائيل، وهى لحظة مجد فى وجه مزاعم إسرائيلية تقول إن أسلافهم هم من بنى الأهرامات. لكن وبحسب مصريين آخرين لا يستحضر «فرعون» ماضيًا ثقافيًا يدعو للفخر، بل على العكس فهو يثير فيهم قرفًا مرده الطغيان والاستبداد الوثنى. لقد صرخ من اغتال الرئيس المصرى السادات بفخر «مات الفرعون!»، كما رفض بعض السياح المسلمين أن يزحفوا عبر الممرات الداخلية الضيقة للأهرامات، خشية أن يظهروا وكأنهم ينحنون لفرعون. سيتفحص هذا الفصل والفصل الذى يليه هذه المواقف المتصارعة حيال المجد والعزة القومية فى ماضى مصر الفرعونى.

يعالج الفصل الثالث «أطلنطس والزئبق الأحمر» سياسات علم الآثار من زاوية مختلفة، ويدرس إعادة كتابة النيوإيجيين للتاريخ الفرعونى. للعرب والغربيين خيالات غامضة فيما يتصل بمصر

رفض بعض السياح المسلمين أن يزحفوا عبر الممرات الداخلية الضيقة للأهرامات، خشية أن يظهروا وكأنهم ينحنون لفرعون



القديمة، كما يراجع هذا الفصل نطاقًا واسعًا من الأساطير والخرافات عن مصر القديمة، من أيام أطلنطس أفلاطون إلى الوسيط الروحى (النفس الرائية) إدغر كايس الذى كان يعتقد بأنه تقمص لأحد كبار الكهنة المصريين فى تلك الحقبة القديمة، وتنبأ بأن حجرة مع أسرار حضارة ضائعة ستكتشف تحت مخلب «أبو الهول». يظهر هذا الفصل السبب الذى جعل نظريات النيوايج تمارس أذيتها على المصريين الوطنيين كما يفسر هذا الفصل بعضًا من نظريات المؤامرة التى طورها النيوايجيون فيما يتصل بمستنقع البيروقراطية التى تغمر أولئك الراغبين بالحفر والتنقيب فى ماضى مصر. لكنه يظهر أيضًا أنه ثمة ما يجمع عالم المصريات ومنظرى النيوايج، بغض الطرف عن محاولات علماء المصريات الجادة بالابتعاد عن المنظرين النيوايجيين، فقواسمهم تبدأ من التاريخ الكولونيالى المشترك الذى يمارس تأثيره على السردين الأكاديمى والشعبى لمصر القديمة، إلى جمهورهم المشترك من السياح الغربيين الذين يستهلكون نظريات كلا الطرفين.

ويظهر الفصلان الثانى والثالث أن جوانب مصر والهوية المصرية التى سلم بها الغربيون وكأنها أشياء طبيعية كانت قد تأسست على مر التاريخ. فالغربيون يزورون الأهرامات ليس لأنها نصب ومعالم تاريخية فقط، بل لأن تلك النصب والمعالم أقيمت من خلال السيرورات الاستعمارية الأوروبية ومبحث علم المصريات والطريقة التى يُشيد فيها تاريخ الحضارة من قبلهما. كما يستكشف هذان الفصلان الطريقة التى ارتبط فيها علم الآثار بمشروعات سياسية وثقافية واجتماعية شأن النزعة القومية.

ويلتفت الفصل الرابع وهو بعنوان «حفلات الجنس الجماعية، الأمير الغازى، وشائعات أخرى عن السياحة الخليجية»، إلى اللقاءات التى تمت بين المصريين والخليجيين وتمثلاتها. تنتشر بين المصريين صورة نمطية عن الخليجيين مفادها أن الأخيرين يأتون إلى مصر للانغماس بما هو محرم ومحظور فى بلادهم من السعى وراء المومسات إلى الانخراط فى حفلات جنس جماعى، واحتساء الكحول وصولاً إلى القمار. ومن هنا فهم يرتبطون فى التصور العام للمصريين مع ملاهى شارع الهرم الليلية. كما أن قصصًا وحكايا تنتشر عن حفلات جنس جماعية خليجية تقام فى الفنادق. فى عام ١٩٩٩ غدت مآثر أمير سعودى يعيش فى القاهرة مع حاشية كبيرة من الخدم والحراس الشخصيين اشتهروا بعنفهم ومخاشنتهم لكل من يعترض سبيلهم مادة لحديث راج بين المصريين. إن أساطير المدينة هذه حول الجنس والقوة والثروة والاستغلال حولت هذا الأمير إلى نموذج بدائى أسطورى لصورة العربى الثرى الخليجى النمطية الذى يعتقد بأنه يستطيع شراء كل شيء. هذه الصور السلبية عن الخليجيين يمكن أن تفهم فقط فى سياق الهوية العربية والسياسة وهجرة اليد العاملة والاقتصاد السياسى الإقليمى. لقد قمت باستكشاف هذه الصور النمطية عن السياحة العربية ضمن سياق بحث وتحقيق أنثروبولوجيين لأساطير وشائعات وثرثرات مدينة.

فى الفصل الخامس وهو بعنوان «مواعيد عابرة للأمم»، تُرى السياحة الخليجية من منظور مختلف لشابتين سعوديتين. إن الصورة النمطية المصرية الشائعة عن السياح الخليجيين تشى بأنهم يأتون إلى مصر للانغماس فى نشاطات مخزية، إضافة إلى أنهم يستغلون المصريين الفقراء. لكن نظرة إلى الشباب السعودى الذين يمضون إجازاتهم فى مصر تظهر أن إجازة هؤلاء السياح العرب الصيفية فى مصر غايتها لقاء السعوديات، إضافة إلى الاستفادة من الحريات التى توفرها لهم البيئة المصرية. كما أن الشابات السعوديات يرغبن بالمجيء إلى مصر بغية مواعدة الشبان فى جو أكثر تحررا من مملكتهم رغم ذلك لا يزال هذا الجو محكومًا بالمعايير الثقافية والاجتماعية السعودية. وبوصفها ظاهرة ثقافية سعودية فى الأساس وتحدث خارج حدود المملكة، فإن إجازة الصيف فى مصر هى مثال غير عادى على الثقافة العابرة للأمم.

يصور الفصلان الرابع والخامس اللقاءات بين المصريين والخليجيين بغية إجراء مقارنة بين الخيالات التى يكونها كل من الطرفين عن الآخر. إن لحظات الاحتكاك الثقافى تصبح فرصًا لتعريف الذات والآخر. فالمصريون يغذون الصور النمطية التى يجسد من خلالها الخليجيون انتهاك الآداب الاجتماعية، بينما يرى السعوديون المصريين على أنهم مرتزقة خانعون. وتصور كلتا المجموعتين بعضهما الآخر على أنه مفترس جنسيًا. لقد خُطط للفروق اللغوية والثقافية بين المصريين وأهل الخليج على أساس اقتصاد إقليمى لونته هجرة اليد العاملة والتباين الشديد فى الثروات.

وفى كلا الفصلين، تظهر هويتا الذات والآخر على أنهما شأن مركزى. رغم ذلك فنقاش الهوية ليس غاية بحد ذاته، بل هو استراتيجية لدراسة «الثقافة»، وهى الميدان التقليدى للبحث الأنثروبولوجى. كنت قد عنيت بوصف لحظات الاحتكاك المتقاطع ثقافيًا والتى تدفع البشر إلى صحوة وإدراك، وبطرق أخرى إلى تقاليد ثقافية مغفلة من خلال المقارنة مع تقاليد الآخرين، ومن ثم عنيت باستكشاف ما يفعله البشر بهذه الفروق. فمثلاً، أبيّن فى سردى للحكايات الأسلوب الذى يصف فيه المصريون الطريقة التى يتناول فيها الخليجيون طعامهم ويرتدون لباسهم، وكيفية سلوكهم فى المجتمع، أو الطريقة التى ينتقد فيها الخليجيون مفردات التهذيب التى يستخدمها المصريون عندما يتوجهون بكلامهم إلى شخص آخر وكيف واجهتنى هذه المؤشرات الصغيرة على الاختلاف الثقافى الذى يكشف عن المعايير الثقافية لكل منهما. ثم أظهرت كيف أثارت هذه الفروق والاختلافات نقاشات عما تعنيه شأن هذه المؤشرات، فكلا الطرفين يتخذان هذه الفروق وتلك الاختلافات دليلاً على تواريخ سياسية وحضارية من بين أشياء أخرى. باختصار جليّت الطريقة التى ارتبطت فيها الثقافة بالسرديات الحضارية، أو الطريقة التى ارتبطت فيها «العادات والتقاليد» «بالحضارة».[٢]

أما الفصل الأخير وهو بعنوان «مستنسخات مخطوطات قديمة، الحفريات، الغرافيتى، صور»، فيتفحص ظاهرة الراقصات الشرقيات الأجنبيات (من غير العرب أو المصريات) فى مصر. لقد بات الرقص الشرقى شائعًا، بل ومرغوبًا خارج العالم العربى والنساء الأمريكيات والأوربيات واليابانيات اللواتى احترفن الرقص الشرقى فى أوربة والشرق الأوسط يؤدين فى جميع أرجاء أوربا والشرق الأوسط، لكن غايتهن المنشودة هى أن يرقصن فى القاهرة. فبحسبهن، من ترقص فى القاهرة ستتمكن من الرقص فى أى مكان آخر. تجمع هذه الظاهرة بفرادة عناصر الخيالات والصور الشرقية والغربية منها عن مصر. فالراقصات الشرقيات يقدمن استعراضاتهن لجمهور السياح عربًا وغربيين، فى فنادق القاهرة وملاهيها، وعواماتها التى تعبر نهر النيل. كما أن العديد من الراقصات جئن إلى القاهرة فى البداية بوصفهن سائحات. ورحلتهن تلك كانت نقطة علام قدمتهن فى البداية إلى الرقص الشرقى. يكشف

يكشف التمحيص فى جذور الرقص الشرقى فى مصر أن تاريخًا من اللقاءات المتقاطعة ثقافيًا ساهم فى تشكيل هذه الظاهرة الثقافية

التمحيص فى جذور الرقص الشرقى فى مصر أن تاريخًا من اللقاءات المتقاطعة ثقافيًا ساهم فى تشكيل هذه الظاهرة الثقافية «الإرثية»[٣] بين مصر والغرب ومصر والعالم العربى، تلك اللقاءات التى أجرت تغييرات جوهرية على شكل الفن كما يؤدى اليوم.

رغم أن مادة البحث تركز على القاهرة، فإن هذا الكتاب يقتفى أثر الشخصيات عبر المواقع والأمكنة ويعبر المعمورة من الشابات والشبان السعوديين الذين يأتون إلى مصر فى الصيف لينطلقوا إلى مواعداتهم الدسمة وطقوس الغزل والتودد، إلى العلماء آثار وجماعات النيوايجيين الذين ينتجون تواريخ متصارعة لأهرامات الجيزة لعرضها على التلفاز، إلى الراقصات الشرقيات الأوربيات اللواتى يحاولن خلق اسم وصيت لهن فى القاهرة. تسعى هذه الفصول لرسم بعض النقاط بالتفصيل فيما يتصل بمسارات شبكات متنوعة عابرة للأمم تتقاطع عبر القاهرة حيث تشكل السياحة قاسما مشتركا لجميع تلك الشبكات. لكن هناك أكثر من مجرد تصنيف نظرى للسياحة، كما أن الأنثروبولوجى يجمع هذه المواضيع المتباينة. هذا الكتاب دراسة لصور وخيالات[٤] مختلفة عن مصر كشعب وثقافة وتاريخ. فهو يقيم صلة بين التاريخ السياسى، والاقتصاديات الإقليمية والدولية، والإنتاج الثقافى مع سيرورة راهنة من بناء هوية قومية. هذا الكتاب رسم قلق لشبكات عابرة للأمم ولقاءات متقاطعة ثقافية بين شعوب وقوميات ولغات وطبقات وأديان وأيديولوجيات وخيالات وصور مختلفة تتشابك جميعها فى مصر.

إن تاريخ الأنثروبولوجيا هو تاريخ السفر والترحال واللقاءات المتقاطعة ثقافيًا. كما أن السياحة تنويع على أنواع السفر والصفقات المتقاطعة ثقافيًا والإمبريالية، والاستعمارية والحجيج الفكريين والرحلة الكبرى[٥] وعلم الآثار والأنثربولوجيا وأكثر، والتى كانت لقرون عديدة عناصر حاسمة فى بناء الأمم والذاتيات. بإمكاننا البدء بفهم الكيفية التى تأسست فيها فكرة مصر ومُكّنت بوصفها مكانًا، وثقافة، وتاريخًا، وشعبًا وبلدًا وأمة من خلال أخذنا بالحسبان هذه السيرورات التى تؤسس لتاريخ من اللقاءات العابرة للأمم. ■

هـــــوامـــــش

(١) Halfie ويمكن أن نترجمها إلى «النصفى» وهو استخدام اضطرنا إلى اللجوء إليه بما أن كلمة «هجين» Hybrid لا تفى بالغرض. فالنصفى فى الأنثروبولوجيا من له جنسيتان. وفى رسالة من المؤلفة إلى المترجم أثبتت شرحها للكلمة كالتالى: «ابتكرت هذه الكلمة الأنثروبولوجية ليلى أبو لغد وهى وعلى حد تعبير المؤلفة، نصفها فلسطينى ونصفها الآخر أمريكى، وبالنتيجة لن يطلق عليها صفة المواطن الأصلى (الأصلانى). فعندما تكون «ليلى» فى فلسطين أو فى العالم العربى ينظر إليها بوصفها امريكية والعكس يصدق أيضاً فعندما تكون فى الولايات المتحدة ينظر إليها بوصفها فلسطينية. وأضافت المؤلفة، بأن ليلى أبو لغد هى أول من استخدم المفردة كتابةً للتعبير عن «الأنثروبولوجيين النصفيين» فى مقالتها الكلاسيكية «الكتابة ضد الثقافة Writing against Culture». وتقر ليلى أبو لغد انها استقت فكرة استخدام المصطلح من أنثروبولوجية أخرى هى كرين نارايان Kirin Narayan (من خلال اتصال شخصى)». المترجم

(٢) Culture and culture فى سؤالى للمؤلفة عن قصدها من استخدام المفردة ذاتها Culture لدلالتين كان جوابها التالى: «ترتبط الدلالة الأولى وهى التى يستخدمها الأنثروبولوجيون على وجه التحديد وتعنى العادات أو الطريقة التى ينظر المرء من خلالها إلى العالم بما فى ذلك الطقوس اليومية ومعايير الاحتكاك بين الناس. أما الدلالة الثانية وهى الشائعة والتى لايستخدمها الأنثروبولوجيون فتشير إلى التهذيب والكياسة إضافة إلى المدنية Civilization. ومن هنا ارتأينا ان نترجم الأولى بالعادات والتقاليد والثانية بالحضارة. المترجم

(٣) Traditional د رجت العادة على استخدام المفردة Tradition بوصفها «تقليد» و«Traditional تقليدى». لكن فى ميادين شان الأنثروبولوجيا وعلم الآثار والإثنوغرافيا وحتى فى الدراسات التاريخية والتوراتية تميل هذه المفردة إلى الدلالة على المتوارث ومن هنا يمكن لنا ان نضع المقابل لكلمة، Tradition إرث، و«traditional إرثى». المترجم.

(٤) آثرنا استخدام «صورة أو صور» مقابلاً للكلمة الإنغليزية images) و«خيالات وصور» مقابل الكلمة الإنغليزية «imaginations» المترجم.

(٥) The Grand Tour أى الرحلة التى يتم فيها زيارة العديد من الأمكنة، أو تلك التى يتم فيها مسح كامل لجميع أصقاع المكان. المترجم.

كتاب الزاوية

التحدث بنعمة الله

فضل الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد: فإن التحدث بنعمة الله تعالى مطلوب شرعًا. قال تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث». وأخرج عبدالله بن أحمد فى «زوائد السند»، والطبرانى، وابن أبى الدنيا فى «كتاب الشكر»، والبيهقى فى «شعب الإيمان» عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر». وأخرج ابن جرير الطبرى فى «تفسيره» عن أبى نضرة، قال: «كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يُحدث بها». وأخرج سعيد بن منصور فى «سننه» عن عمر ابن عبدالعزيز، قال: «إن ذكر النعم شكر». وأخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى عن الحسن البصرى، قال: «أكثروا ذكر هذه النعمة فإن ذكرها شكر» وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن الجريرى، قال: «كان يقال إن تعداد النعم من الشكر». وأخرج البيهقى من طريق مالك بن أنس عن يحيى ابن سعيد، قال: كان يقال تعديد النعم من الشكر».

والتحدث بنعمة الله تعالى يورث المزيد منها لأنه شكر كما ثبت ذلك بالأدلة المذكورة. والشكر يقتضى الزيادة لقوله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» أخرج ابن مردويه فى «تفسيره عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعطى الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول: «لئن شكرتم لأزيدنكم».


يحيا الحب


منتخبات بهنا فيلم (بهنا اخوان)
تقدم
رواية
انشودة
الراديو
(الفنانة الكبيرة)
نادرة
موزعو الفيلم في العالم
منتخبات بهنا فيلم
(اخوان بهنا)


ستوديو مصر يقدم
نجم مصر الأول
يوسف وهبي
في
غرام وانتقام
اسمهان

أسئلة فى تاريخ

السينما المصرية

هاشم النحاس

لا أطمع من هذه المقالة الموجزة، إلى أكثر من وضع إطار مناسب، يكون بمثابة مدخل لدراسات متعمقة عن بدايات السينما المصرية وبدايات ازدهارها. وهى البدايات التى ظلت حتى الآن تحتاج إلى نظر، أو إعادة النظر، أملا فى الوصول إلى تأريخ صحيح للسينما المصرية.



عن البدايات:

ظل حتى عهد قريب الاعتقاد السائد بأن عام ١٩٢٧ هو بداية تاريخ السينما المصرية. وهو العام الذى عرض فيه فيلم «ليلى» إخراج استيفان روستى أول فيلم مصرى روائى طويل. ثم اكتشف أحمد الحضرى بعد ذلك فى كتابه «تاريخ السينما فى مصر» أن أول فيلم مصرى روائى طويل ظهر قبل فيلم ليلى هو فيلم «فى بلاد توت عنخ آمون» إخراج فيكتور روسيتو الذى عرض عام ١٩٢٣.

كما رأى الحضرى أن بداية تاريخ السينما المصرية لا يجب أن يرتبط بأول فيلم روائى وإنما بأول إنتاج لفيلم مصرى حتى وإن كان قصيرا. ومن ثم ذهب إلى أن بداية تاريخ السينما المصرية يجب أن يكون عام ١٩٠٧ وهو العام الذى ظهر فيه أول فيلم مصرى قصير إنتاج محلات عزيز ودوريس بالإسكندرية وعنوانه «زيارة الجناب العالى إلى المعهد العلمى بمسجد أبى العباس بالإسكندرية». وتم اعتماد ذلك التاريخ باحتفال السينما المصرية بمئويتها العام الماضى ٢٠٠٧. بينما يذهب محمود على فى كتابه الذى ظهر مؤخرا «فجر السينما فى مصر» إلى أن أول الأفلام المصرية القصيرة يرجع إلى عام ١٩٠٥، ويتمثل فى جريدة «فى شوارع الإسكندرية» التى كان ينتجها مسيو إدوارد دى لاجارين. والخلاف مازال قائما بين الباحثين على هذه البداية لتاريخ السينما المصرية. وقد تأتى الأيام باكتشافات جديدة، وإعادة النظر فى تحديد البداية التاريخية للسينما المصرية.

ولكن من المؤكد- فى رأيى- أن عام ١٩٣٥ هو البداية الحقيقية لوجود السينما المصرية، بغض النظر عن بدايتها التاريخية المختلف حولها. وهو العام الذى افتتح فيه استديو مصر. ويعد عاما فارقا فى تاريخ السينما المصرية. فالسينما المصرية لم تعد بعده كما كانت من قبله، حيث كانت فى الغالب تقوم على جهود فردية يغلب عليها روح المغامرة وتأكيد الذات. ولعل هذا ما يفسر لنا - نوعا ما- ظهور الأفلام التى تنتجها الممثلات: بهيجة حافظ وآسيا ومن ممثلات المسرح عزيزة أمير وفاطمة رشدى، بينما بدأت السينما المصرية بعد ١٩٣٥ طريقها نحو المنهجية والاعتماد على المؤسسية.

وتوفر للسينما المصرية منذ هذا التاريخ شروط النجاح الأربعة التى لابد من توافرها لنجاح أى صناعة حديثة والسينما واحدة منها. وأول هذه الشروط توفر رأس المال المناسب، وهو ما تحقق على يد شركة مصر للتمثيل والسينما التابعة لبنك مصر. وكانت الشركة قد بدأت منذ ١٩٢٥ فى إنتاج أفلام تسجيلية قصيرة للدعاية لشركات بنك مصر برأس مال قدره ١٥ ألف جنيه، ثم بدأت بضخ الميزانيات اللازمة لإنتاج الأفلام الروائية الطويلة (رفعت رأس مالها عام ١٩٣٦ إلى ٤٠ ألف جنيه، ثم ارتفع عام ١٩٣٧ إلى ٧٢ ألف جنيه، ثم وصل إلى ١٠٠ ألف جنيه عام ١٩٤٣). وكان أول إنتاجها هو فيلم «وداد» ١٩٣٦ إخراج فريتز كرامب وبطولة أم كلثوم. ومن شركات الإنتاج الكبيرة نسبيا التى توالى ظهورها بعد ذلك، شركة استديو الأهرام عام ١٩٤٦ برأس مال قدره ٢٢٠ ألف جنيه، والشركة الشرقية للسينما فى نفس العام برأس مال ٢٥٠ ألف جنيه.

وإذا كانت أى صناعة حديثة لا تقوم إلا إذا توفر لها المصنع الذى يحتوى على المعدات والأجهزة الحديثة، فقد تحقق هذا المصنع لأول مرة للسينما المصرية بإنشاء استديو مصر الذى استورد أحدث أجهزة التصوير وغيرها من المعدات اللازمة. وبعده ظهرت استديوهات كبيرة أخرى مثل جلال ١٩٤٤، والأهرام ١٩٤٥، ونحاس ١٩٤٨.

ولتوفير الشرط الثالث لنجاح هذه الصناعة وهو توفر الكفاءة البشرية أرسل استديو مصر مبعوثيه للخارج (أحمد بدرخان وموريس كساب ومحمد عبد العظيم وحسن مراد)، واستعان بالخبراء الأجانب والمصريين الذين درسوا بالخارج(نيازى مصطفى وولى الدين سامح ومصطفى والى) أو اكتسبوا الخبرة من خلال عملهم فى المحاولات السابقة (محمد بيومى وأحمد سالم وكمال سليم وأحمد كامل مرسى). ولم يقتصر عملهم على الأفلام المنتجة من خلال استديو مصر ولكن من خلال أفلام أخرى تابعة لشركات أخرى (كما فعل أحمد بدرخان بإخراج فيلم «نشيد الأمل»).

ويأتى الشرط الرابع والأخير لنجاح المشروع

رأى الحضرى أن بداية تاريخ السينما المصرية لا يجب أن ترتبط بأول فيلم روائى وإنما بأول إنتاج لفيلم مصرى حتى وإن كان قصيرا



الخاص بإنتاج أى سلعة صناعية حديثة وهو توفر منافذ للتوزيع، وتتمثل هذه المنافذ بالنسبة للسينما فى دور العرض التى أخذت فى التزايد بعد عام ٣٥ حتى وصلت إلى ٣٤٠ داراً للعرض عام ١٩٥٢ ويمكن إدراك ضخامة هذا العدد بالنسبة لعدد السكان وقتها الذى لم يتجاوز ٢٠ مليون نسمة، وخاصة عند مقارنته بعدد دور العرض الآن التى تقل عن هذا الرقم رغم تزايد عدد السكان إلى أكثر من ٧٥ مليون نسمة.

ولعل توفر هذه الشروط الأربعة لقيام صناعة السينما فى مصر بداية من عام ١٩٣٥، لا يؤكد فقط أن هذا التاريخ هو البداية الحقيقية للسينما المصرية، وإنما يشير أيضا إلى الازدهار المبكر الذى حققته السينما المصرية فى هذه الفترة فى ما بين ١٩٣٥ - ١٩٥٢ .

عن الازدهار المبكر

«بين النوعى والكمى»:

يتجلى ازدهار السينما المصرية فى المرحلة ما بين ٣٥ و١٩٥٢ فى عدة مظاهر، أولها ارتفاع مستوى الإنتاج سواء من الناحية التقنية (التصوير والمونتاج خاصة) التى وفرها استديو مصر والاستوديوهات الجديدة الأخرى من بعده، أو من ناحية التعبير الفنى الذى تحقق بتوفير الكفاءة الفنية (الإخراج والتمثيل خاصة).

ومن الملاحظ أن بعض المراجع السينمائية تجمع على أن الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٤٥ تمثل فجر الازدهار الفنى للسينما المصرية، وتمثل المرحلة التالية ٤٥-١٩٥٢ مرحلة هبوط فنى بسبب التزايد الكبير لعدد الأفلام المنتجة التى أصبح معظمها يدور حول موضوعات مكررة بعينها وتعانى من ضعف البناء الدرامى، بينما أميل إلى وضعهما معا فى مرحلة واحدة باعتبارها مرحلة ازدهار نوعى لحق به ازدهار كمى. فلم أجد فى الازدهار الكمى ما يتناقض مع الازدهار النوعى، وما يؤكد هذا هو تواصل إنتاج الأفلام الجيدة كما تكشف عنه قوائم أهم الأفلام المصرية على مدى تاريخها ونتعرض لها تفصيلا فيما بعد.

والتزايد الكمى نفسه فى إنتاج الأفلام كان أحد مظاهر الازدهار البارزة فى هذه المرحلة، فقد وصل الإنتاج عام ١٩٥١ إلى ٥٢ فيلما، بينما لم يتجاوز ٧ أفلام عام ١٩٣٤. ووصل متوسط إنتاج الأفلام فى الأعوام السبعة الأخيرة من المرحلة إلى ٥٠ فيلما فى العام. وهو متوسط مرتفع لم تستطع السينما المصرية أن تحافظ عليه دائما ولم تتجاوزه إلا فى حالات محدودة.

ومن مظاهر هذا الازدهار، التدفق البشرى للعاملين فى هذا المجال، ويكفى أن نذكر أن عدد المخرجين الجدد فى السنوات السبع الأخيرة من هذه المرحلة بلغ ٤٥ مخرجا جديدا (مدخل إلى تاريخ السينما العربية - سمير فريد ٢٠٠١) ومنهم أسماء تركت بصماتها الواضحة فى تاريخ السينما المصرية أمثال أحمد بدرخان ونيازى مصطفى وكمال سليم ويوسف وهبى وحسين فوزى وأنور وجدى وبركات وحسن الإمام وصلاح أبو سيف ويوسف شاهين. ومنهم من استمر عمله فى المرحلة التالية (بعد ١٩٥٢) ومثلت أعمالهم دعامات السينما المصرية على امتداد تاريخها كله.

ولعل التزايد الكمى لدور العرض كما سبق ذكره يعتبر مؤشرا واضحا على الاستيعاب الواسع للأعداد الغفيرة من جمهور السينما الذى يؤكد ازدهارها بدوره (٢ مليون عام ١٩٣٨ ثم ٤٢ مليونا عام ١٩٤٦ ثم ٩٢ مليونا عام ١٩٥١). (محمود على- بحث «البنية الاقتصادية للسينما المصرية»).

ويزداد هذا الاتساع لجمهور العرض إذا ما أضفنا التوزيع الخارجى، الذى بدأ مع بداية السينما الناطقة وخاصة مع الأفلام الغنائية (الوردة البيضاء ١٩٣٣) الذى حقق أكبر دخل لفيلم وقتها. وقد أخذ هذا التوزيع فى التزايد على نطاق العالم العربى كله على أثر الإقبال على الأغانى المصرية التى يؤديها أصحاب الأصوات الغنائية المشهورة «ووجد الشعب العربى فى الفيلم المصرى تعبيرا عن روح قومية تريد أن تعلن عن نفسها، كما يقول أحمد يوسف فى كتاب «مائة سنة سينما».

وتعتبر الأفلام الغنائية التى تم تطعيمها بالرقص الشرقى من أهم الملامح المميزة لأفلام هذه المرحلة، حيث أدى نجاحها المتزايد فى الداخل والخارج إلى تزايد عددها بحيث أصبحت تمثل النسبة الأكبر بين أنواع الأفلام الأخرى التى تم إنتاجها فى هذه المرحلة، كما شجع نجاحها المنتجين على إثراء السينما بالعديد من المغنين والمغنيات الذين قاموا بأدوار البطولة ووصل عددهم فى هذه المرحلة إلى رقم قياسى بالنسبة لتاريخ السينما المصرية كله، ومنهم: محمد عبد الوهاب، أم كلثوم، ليلى مراد، فريد الأطرش، محمد فوزى، شادية، نجاة على، رجاء عبده، نور الهدى، عبد العزيز محمود، نجاح سلام، هدى سلطان وغيرهم. ومازالت هذه الأسماء تمثل قمما فى عالم الغناء العربى حتى الآن وهو ما ضمن النجاح لأفلامهم حتى وإن قامت على موضوعات بسيطة أو مكررة.

وإلى جانب هذا الملمح الأساسى من أنواع الأفلام التى انتشرت فى هذه المرحلة وميزتها، نجد الأفلام الكوميدية التى شارك فى بطولتها أعلام الكوميديا المصرية أمثال نجيب الريحانى وعلى الكسار بالإضافة إلى شالوم وفوزى الجزايرلى وشرفنطح وفؤاد شفيق ولحق بهم إسماعيل ياسين الذى أصبح نجما لامعا فيما بعد.

ومن الأنواع البارزة فى هذه المرحلة على نحو لا نجد له مثيلا فى المراحل التالية نوع الأفلام التراثية ومنها ما قام على أحداث تاريخية مثل شجرة الدر ٣٥، صلاح الدين الأيوبى ٤١، كليوباترا ٤٣، شمشون الجبار و فتح مصر كلاهما ٤٨، ظهور الإسلام ٥١، انتصار الاسلام ومصطفى كامل و حكم قراقوش ٥٢. وأخرى دارت فى جو تاريخى عام مثل وداد ٣٦، ليلى البدوية ٣٧، لاشين و شىء من لاشىء ٣٨، دنانير ٤٠، سلامة ٤٥، أمير الانتقام والصقر ٥٠، ومنها أيضا: قيس وليلى وألف ليلة وليلة ورابحة ومغامرات عنتر وعبلة وشهرزاد والشاطر حسن.

كما كان من الأفلام المميزة للمرحلة الأفلام الاجتماعية، ومن أبرزها العزيمة ٣٩ والسوق السوداء ٤٥ والنائب العام ٤٦، ومنها أفلام قلب المرأة، حياة الظلام، البؤساء، الجيل الجديد، بابا أمين، الافوكاتو مديحة، الأستاذة فاطمة، الاسطى حسن.

وغلب على أفلام المرحلة الطابع الميلودرامى لإثارة مشاعر الجمهور. وكان جمال مدكور أول من عالج قضية الفقر والغنى فى فيلم «الحياة كفاح»، وكان الدفاع عن الفقراء يقابل من الجمهور بالتصفيق. ومن الأفلام الميلودرامية البارزة فيلم «رجاء» إخراج عمر جميعى الذى وصلت الميلودراما فيه إلى أقصاها. و «هذا ما جناه أبى» إخراج بركات ورغم غثاثة الموضوع إلا أن التقنية والأداء جعلا

القيمة الفنية ليست المعيار الوحيد لأهمية الفيلم. هناك من القيم الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وغيرها ما يضفى الأهمية على الأفلام

من الفيلم تحفة الموسم الفنية (رسالة فى تاريخ السينما العربية - جلال الشرقاوى).

عن اختلاف معيار الأهمية:

حظيت مرحلة الازدهار المبكر للسينما المصرية فيما بين عامى ٣٥ و٥٢، بعدد لا بأس به من الأفلام الهامة، ويلاحظ القارئ بوضوح أن هذه الأفلام تتواصل على امتداد المرحلة كلها، مما يؤكد وحدة المرحلة على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين. ونحرص على ذكرها لنضعها فى بؤرة الاهتمام لتكون موضعا للدراسة. ونعتمد فى تحديدها على مصادر ثلاثة موثوق بها، وإن اختلفت معايير الأهمية فى ما بينها.

فى الاستفتاء الذى أجراه مهرجان القاهرة السينمائى الدولى عام ١٩٩٦ عن أهم مائة فيلم فى تاريخ السينما المصرية، كان نصيب هذه المرحلة ١٣ فيلما. وفى كتاب «أهم مائة فيلم فى السينما المصرية» الذى أصدرته مكتبة الإسكندرية مؤخرا يذكر منها ١٣ فيلما منها ٧ أفلام مكررة مع قائمة مهرجان القاهرة، وبإضافة ما ذكره سمير فريد فى كتابه «مدخل إلى تاريخ السينما العربية» عن الأفلام الهامة التى تخص هذه المرحلة يصل عددها «إجمالا» إلى حوالى ٥٠ فيلما.

يتميز كتاب «أهم مائة فيلم» إلى جانب ذكر بيان العاملين فى الفيلم بتقديم ملخص قصة الفيلم ثم تحليل مركز له يذكر فيه أسباب أهميته ومن ثم أسباب اختياره. ونكتفى بذكر السبب الأهم منها.

والأفلام هى حسب ترتيبها التاريخى الذى حافظ عليه الكتاب:

١- نشيد الأمل عام ١٩٣٧ إخراج احمد بدرخان: أول أفلام المخرج الذى أصبحت له أهمية فى تاريخ السينما المصرية، كما اتسم الفيلم بتصرفات سينمائية مميزة.

٢- سلامة فى خير ١٩٣٨ نيازى مصطفى: أول أفلام المخرج، حوار بديع خيرى، مشاهد مثيرة للضحك دون الاعتماد على حوار. تمثيل نجيب الريحانى.

٣- عثمان وعلى ١٩٣٨ توجو مزراحى: يصل الفيلم إلى درجة ملحوظة من الإتقان. تمثيل على الكسار.



٤- لاشين ١٩٣٨ فريتز كرامب: أضخم إنتاج فى حينه وأول فيلم سياسى، مستوى فنى غير مسبوق، عناية خاصة بالديكورات.

٥- العزيمة ١٩٣٩ كمال سليم: قدم صورة واقعية غير مسبوقة، يعتبر نقطة تحول فى تاريخ السينما المصرية، ذكره الناقد الفرنسى جورج سادول ضمن أحسن مائة فيلم فى تاريخ السينما العالمية.

٦- غرام وانتقام ١٩٤٤ يوسف وهبى: الفيلم الثانى والأخير لأسمهان تمثيلا وغناء، ويضم ستا من أغانيها الكلاسيكية.

٧- عنتر وعبلة ١٩٤٥ نيازى مصطفى: براعة فى نوعية أفلام الفروسية والحركة.

٨- السوق السوداء ١٩٤٥ كامل التلمسانى: من كلاسيكيات السينما السياسية فى مصر والعالم.

٩- لعبة الست ١٩٤٦ ولى الدين سامح: فيلم جميل لا يمله الجمهور. به ثلاث أغنيات أصبحت من كلاسيكيات الغناء الشعبى... يعبر بامتياز عن مصر الليبرالية (٢٠ - ١٩٥٢).

١٠- النائب العام ١٩٤٦ أحمد كامل مرسى: من كلاسيكيات السينما المصرية كما هو مذكور فى جميع المراجع، ونموذج لإتقان التمصير عن مسرحية ألمانية.

١١- غزل البنات ١٩٤٩ أنور وجدى: درة الأفلام الغنائية لمخرجها، جمع باقة من عمالقة السينما والغناء، يوسف بك وهبى وعبد الوهاب وليلى مراد، نموذج فريد لتمثيل نجيب الريحانى، والقصة والحوار لبديع خيرى.

١٢- مصطفى كامل ١٩٥٢ أحمد بدرخان: أول فيلم عن حياة زعيم سياسى، أسلوب رصين فى الإخراج، كتب قصته فتحى رضوان.

١٣- لحن الخلود ١٩٥٢ بركات: يمتاز رغم تعدد الأغانى فيه بإيقاع جيد متوازن وبقدرة حقيقية على خلق جو رومانسى مثير، ربما كان أكبر نجاحات فريد الأطرش فى مجال السينما.

أما الأفلام الهامة التى تخص هذه المرحلة ضمن قائمة استفتاء مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، فيما عدا ما سبق ذكره فهى:

دنانير ١٩٤٠ أحمد بدرخان، سى عمر ١٩٤١ نيازى مصطفى، أمير الانتقام ١٩٥٠ بركات، المنزل رقم (١٣) ١٩٥٢ كمال الشيخ، زينب ١٩٥٢ محمد كريم، ابن النيل ١٩٥٢ يوسف شاهين.

ويقسم سمير فريد هذه المرحلة إلى قسمين الأول من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٤ ومن أهم أفلامها (مع عدم تكرار الأفلام التى سبق ذكرها) أفلام عبد الوهاب الغنائية (٧ أفلام)، الهارب بدر لاما ١٩٣٦، ليلى بنت الصحراء ١٩٣٧، قيس وليلى وكلاهما لإبراهيم لاما ١٩٣٩، وأفلام ليلى مراد (٧ أفلام منها ٥ إخراج توجو مزراحى)، الفرسان الثلاثة ١٩٤٠ وألف ليلة وليلة ١٩٤١ والفيلمان من إخراج توجو مزراحى، صلاح الدين الأيوبى ١٩٤١ إبراهيم لاما، عريس من استانبول ١٩٤١ يوسف وهبى، العامل ١٩٤٢، بنت الشيخ ١٩٤٣ والفيلمان من إخراج أحمد كامل مرسى، رابحة ١٩٤٣ نيازى مصطفى، البؤساء ١٩٤٣، شهداء الغرام ١٩٤٤ والفيلمان من إخراج كمال سليم.

ومن الأفلام الهامة فى القسم الثانى من هذه المرحلة «حسب تقسيم سمير فريد، (٤٥-١٩٥٢): مغامرات عنتر وعبلة ١٩٤٨، دايما فى قلبى ١٩٤٦ والفيلمان من إخراج صلاح أبو سيف، شهرزاد ١٩٤٦ فؤاد الجزايرلى، أفلام فريد الأطرش وخاصة حبيب العمر ١٩٤٧ ولحن الخلود ١٩٥٢ والاثنان من إخراج بركات، فتح مصر والشاطر حسن ١٩٤٨ فؤاد الجزايرلى، فتاة من فلسطين ١٩٤٨ محمود ذو الفقار «أول فيلم سياسى»، الأفوكاتو مديحة ١٩٥٠ يوسف وهبى، بابا أمين ١٩٥٠ يوسف شاهين، بابا عريس ١٩٥٠ حسين فوزى، «أول فيلم ألوان»، ظهور الإسلام ١٩٥١ إبراهيم عز الدين «أول فيلم دينى»، الأستاذة فاطمة ١٩٥٢ فطين عبد الوهاب.

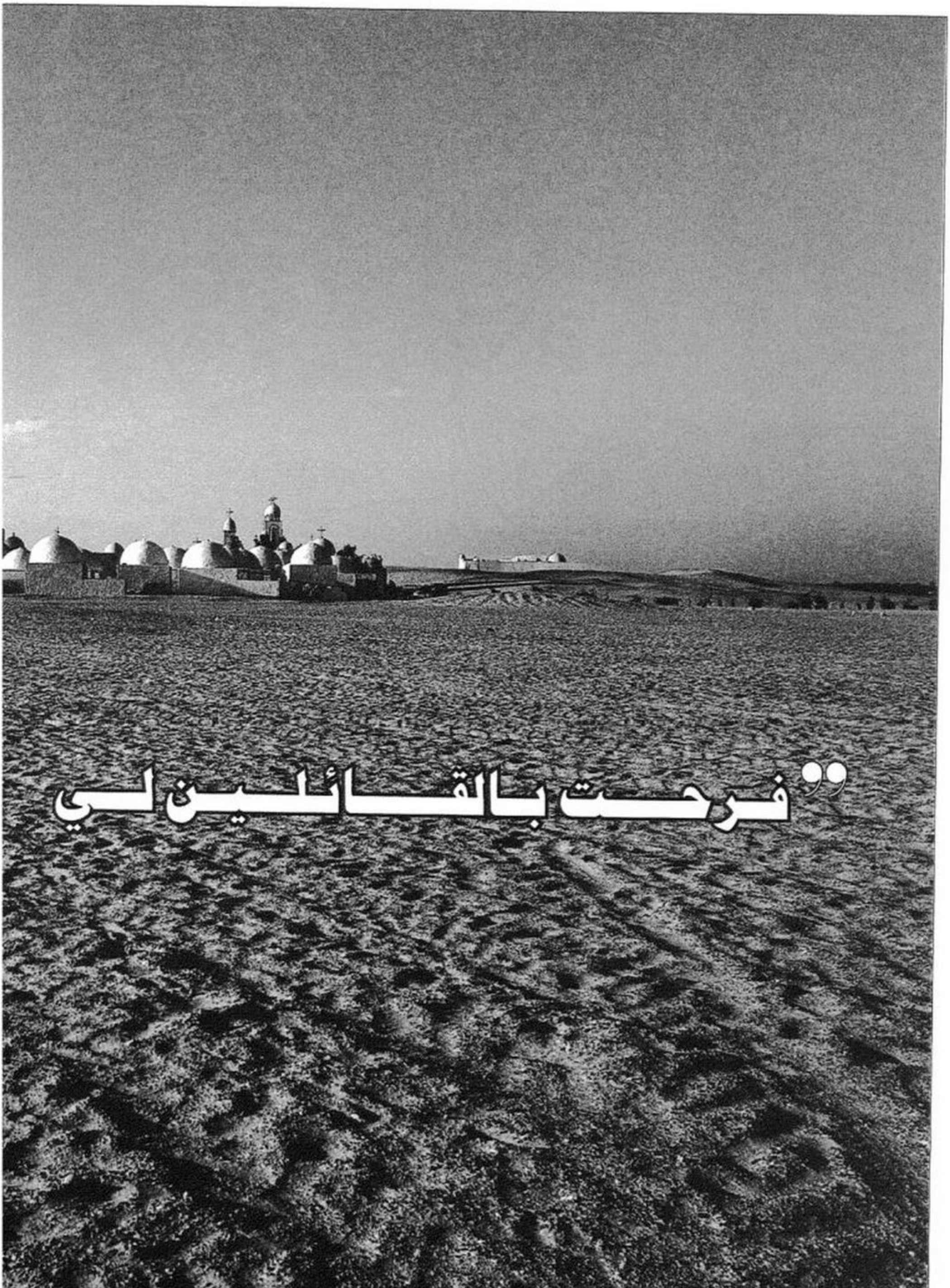
ومن الملاحظ أن الأفلام التى سبق ذكرها اقتصر الاختيار فيها على الناحية الفنية. ورغم العدد الكبير المذكور منها فهو لا يعنى أنها الأفلام الوحيدة الهامة ومن حق اى ناقد أو مؤرخ أن يضيف إليها أفلاما أخرى يكتشف فيها قيما فنية.

كما أن القيمة الفنية ليست المعيار الوحيد لأهمية الفيلم. هناك من القيم الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وغيرها ما يضفى الأهمية على الأفلام. والأفلام التى يقبل عليها الجمهور تكتسب أهميتها من قيمتها فى التعبير عن ذوق الجمهور واتجاهاته حتى وإن تدنت مستوياتها الفنية. وإن كانت القيمة الفنية تظل هى المعيار الأساسى لمكانة الفيلم فى مسار التاريخ الفيلمى، إلا أن اختلاف المعايير يوسع/يفرض من نطاق دراسة هذه الأفلام وغيرها على قدر ما بها من تنوع. ■

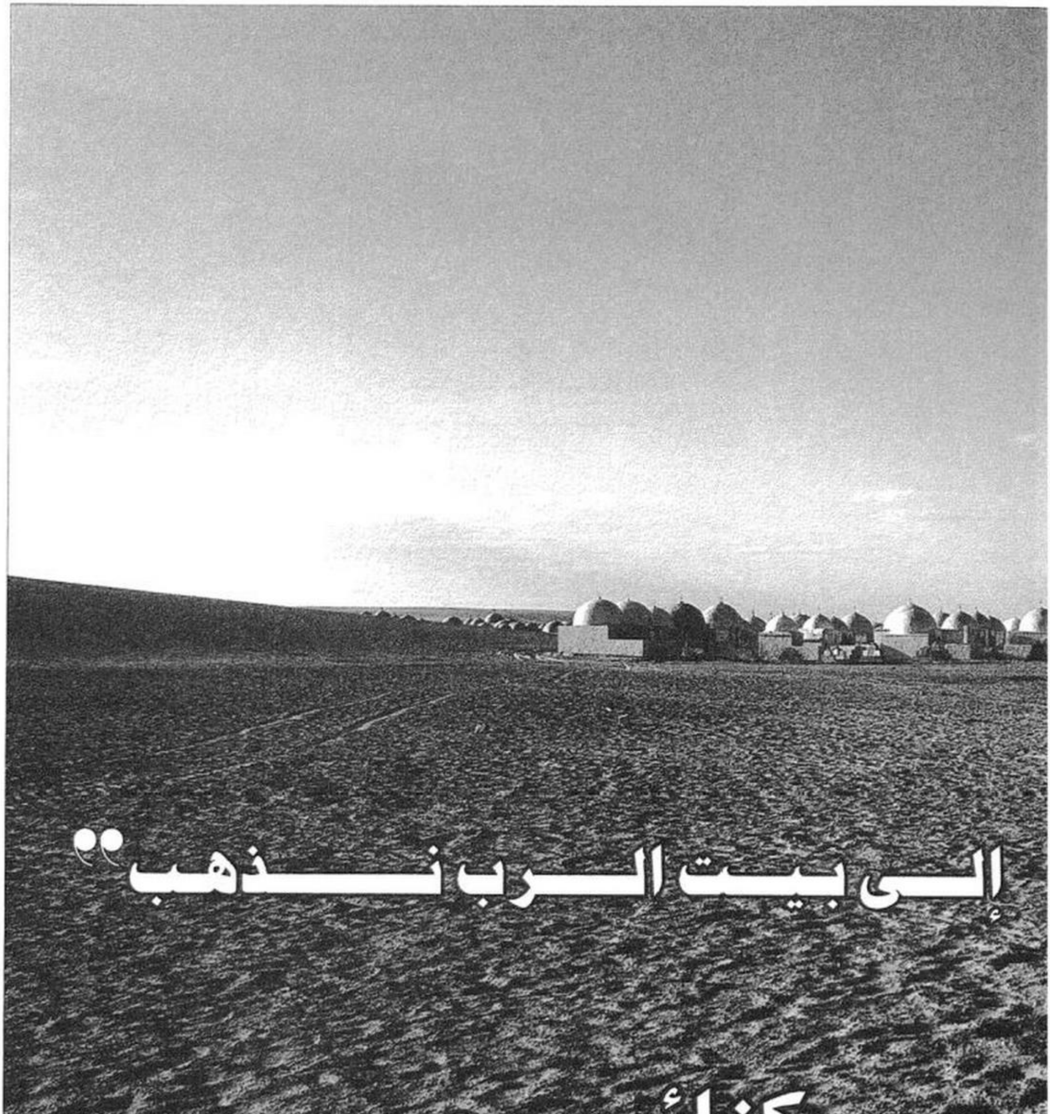

سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



”فرحت بالقائلين لي


«إلى بيت الرب نذهب»
كنائس مصر

"فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب"

كنائس مصر

مينا بديع عبدالملك
تصوير: شريف سنبل

لقد أهدت مصر إلى العالم المسيحى وإلى الحضارة ثلاثة مظاهر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين واختلط بدمائهم وهى: معلم اللاهوت والشهيد والناسك

■■ كتاب من القطع الكبير يقع فى حوالى ٣٢٥ صفحة مزود بأكثر من ٣٠٠ صورة بعدسة المصور الفنان شريف سنبل، قام بتحرير مواده العلمية «جودت جبرة» المدير السابق للمتحف القبطى بالقاهرة والمؤلف للعديد من الكتب التى صدرت عن دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى موضوعات مصر المسيحية، كنوز الفن القبطى الموجودة بالمتحف القبطى بالقاهرة. وحاليا يعمل أستاذاً زائراً فى الدراسات القبطية بمعهد كليرمونت بولاية كاليفورنيا الأمريكية. أيضاً «جرترود فان لون» المتخصصة فى الفن القبطى والآثار القبطية، وتعمل حاليا باحثة بجامعة ليدن الهولندية. وقام بإعداد الكتاب ومتابعة طباعته كارولين لودفيج مؤلفة كتاب كنائس لوس أنجلوس الصادر عام ٢٠٠٣ .

«بعد المقدمة وتاريخ المسيحية فى مصر الذى سجله جودت جبرة، عمارة الكنائس القبطية التى سجلتها دارلين بروكس هدستورم، الفن فى الكنائس القبطية التى سجلتها جرترود فان لون، تم عرض شامل للكنائس فى مصر بقسمين:

القسم الأول: خاص بكنائس مصر السفلى وسيناء. وهذه الكنائس موجودة بالمدن الآتية: بورسعيد، بلقاس، الإسكندرية، سخا، القاهرة، بالإضافة إلى أديرة وادى النطرون ثم سيناء.

The Churches of Egypt: From The Journey of the Holy Family to the Present day
(كنائس مصر: من رحلة العائلة المقدسة حتى اليوم)
Gawdat Gabra, Gertrud J. M. VanLoon, Carolyn Ludwig
Photographs: Sherif Sonbol
American University in Cairo Press, 368pp., $59.95, 2007

القسم الثانى: خاص بكنائس مصر العليا والموجودة بالمدن الآتية: الفيوم، بنى سويف، المنيا، أسيوط، أخميم، سوهاج، نقادة، الأقصر، أسوان، بالإضافة إلى أديرة البحر الأحمر.

بأسلوب شيق تعرض كارولين لودفيج قصة هذا الكتاب الذى قامت بإعداده ومتابعة طباعته فتقول: خلال زياراتى العديدة لأرض مصر فى الخمس والعشرين سنة الماضية، أعجبت شديد الإعجاب بالحضارة المسيحية التى نسجت عبر التاريخ بتاريخ مصر. هذه العظمة يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للمسيحية فى مصر حينما حضرت إليها - قادمة من الناصرة - العائلة المقدسة هرباً من بطش الطاغية هيرودس، ومن هنا أصبحت هذه الزيارة جزءاً أساسيا فى الثقافة المصرية المحبوبة لدى المسيحيين والمسلمين على حد سواء.

لقد تأثرت كثيراً بالنواحى الإنسانية الرائعة فى الروايات التى مازالت تتردد عن تلك الأيام التى قضاها السيد المسيح فى أرض مصر، بالإضافة إلى اهتمام المصريين والسائحين بالكنائس والأماكن المرتبطة بزيارة العائلة المقدسة لهذا البلد العظيم مصر. كما تأثرت أيضاً بالبساطة المتناهية التى كانت عليها الكنائس الأولى فى مصر التى على النقيض تماماً من الكنائس المقامة بالمرمر والمحلاة بالذهب والموجودة بكنائس روما. فالكنائس الأولى مبنية من الحجر الجيرى والطوب وأسقفها مصنوعة من الخشب وألوانها متطابقة مع رمال الصحراء الشاسعة المحيطة بها، وأيقونتها اللامعة معلقة على شبابيك خشبية أو بداخل قبو صغير بالهيكل المقدس والتى يمكن - فى بعض الأحيان - رؤيتها بصعوبة.

قصة زيارة العائلة المقدسة لأرض مصر جاء ذكرها بالتفصيل فى إنجيل القديس متى ومنها نستنتج أن العائلة المقدسة أقامت فى مصر نحو ثلاث سنوات ونصف السنة.

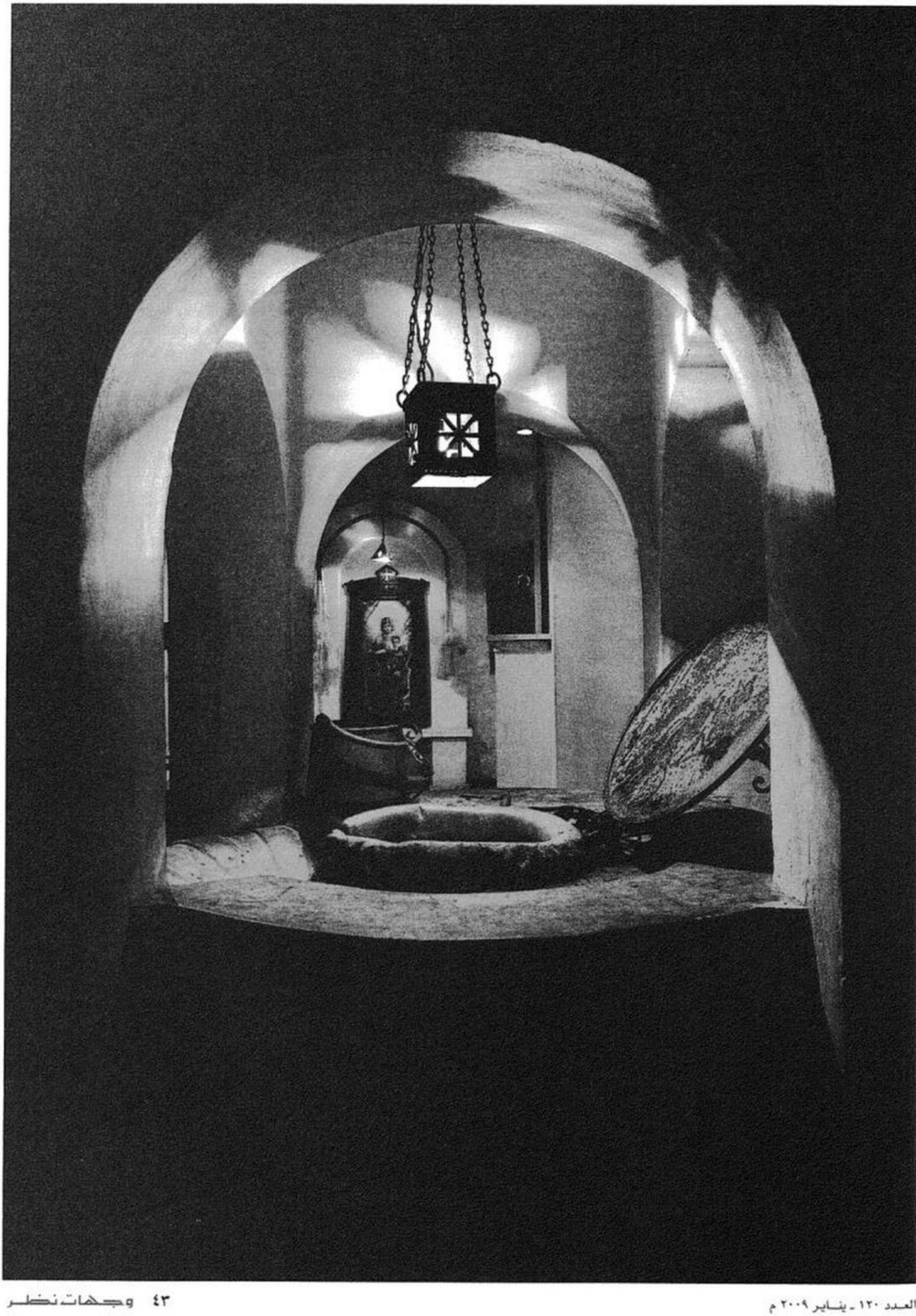
فى عام ٢٠٠٠ اهتم قداسة البابا شنودة الثالث ومعه أساقفة الكنيسة القبطية بالاحتفال بهذه الزيارة التاريخية والتتبع الدقيق لمسار هذه الزيارة. لهذا اصطحبت معى المصور الفنان شريف سنبل ليسجل بفنه صور هذه الأماكن المقدسة والتى تم طبعها فى هذا الكتاب.

ثم اختتمت قصتها فى تسجيل هذا الكتاب بقولها: (آمل أن تشاركنى فى إعجابى ببساطة وجمال تلك الأماكن المقدسة التى صمدت لسنين عديدة حامية للمسيحية فى مصر فى الماضى وهى البوابة نحو المستقبل).

مصر والمسيحية

كلمة «أقباط» جاءت مباشرة من الكلمة العربية «قبط» المحورة من الكلمة اليونانية «إيجبتوس» أى «مصر» والتى جاءت بدورها من اللفظ الفرعونى القديم «هكبتاح» التى هى أحد أسماء «ممفيس». وفى البداية كانت الكلمة تشير إلى غير الناطقين بالعربية غير المسلمين.

وكما يسجل أوسابيوس - فى القرن الرابع الميلادى - أن القديس مرقس كرز بالمسيحية فى الإسكندرية وكان أول من أسس كنائس فى أرض مصر. بعد ذلك انتشرت المسيحية بالتدريج فى أنحاء ربوع مصر بفضل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى تأسست نحو عام ١٨٠م والتى تولى إدارتها عظماء العلماء والمعلمين والكتاب وذلك فى نهاية القرن الثانى الميلادى وبداية القرن الثالث والذين منهم بنتينوس وكليمنفس واوريجانوس وديونسيوس. فمدرسة الإسكندرية هذه كانت ميداناً تجلى فيه بشكل واضح حيوية الكنيسة المصرية من الناحية الفكرية، إذ تكون فيها للمرة الأولى آداب مسيحية وافرة المحصول، قوية المبنى. ويحتوى تاريخها على صفحات رائعة لمعلمى الكنيسة الأوائل، تلك الشخصيات التى ذاع صيتها وتركت لنا آثاراً خالدة. كانت الإسكندرية فى ذاك الوقت من أكبر مدن العالم، فى ملتقى ثلاث قارات، وكانت المركز الرئيسى للثقافة الفلسفية فى العالم بعد أن تدهورت



القديس مرقس كرز بالمسيحية فى الإسكندرية وكان أول من أسس كنائس فى أرض مصر. بعد ذلك انتشرت المسيحية بالتدريج فى أنحاء ربوع مصر بفضل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى تأسست نحو عام ١٨٠م

كنائس مصر

المكانة الأدبية لأثينا. فكانت تصب فيها القيادات الفكرية من الشرق والغرب، فحوت أناساً من أمم مختلفة، نتج من احتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغليانها زبد عجيب. فكانت فيها مدارس فلسفية وثنية كان يتردد فيها على وجه الخصوص اسم أفلاطون، ومدرسة فلسفية يهودية يرأسها الفيلسوف فيلون الذى كان معاصراً للقديس بولس الرسول، كان متشبعاً بالفلسفة الأفلاطونية ومتعمقاً فى دراسة الكتاب المقدس.

وعندما جاء القديس مرقس إلى مدينة الإسكندرية وجد نفسه أمام مناهج فلسفية يهودية أو وثنية، فكان عليه أن يوضح ما يتنافى من مناهج هذه الفلسفات مع تعاليمه، وبذلك تجنب القديس مرقس منذ بدء نشاطه فى الإسكندرية أن تختلط تعاليم المسيحية أو تمتزج بالمذاهب الأخرى التى كانت منتشرة، وضمن بقاءها فى وسط ذلك الخضم ديانة سماوية قائمة بذاتها. من هنا كان دور مدرسة الإسكندرية فى البداية هو إعداد الداخلين فى المسيحية سواء من اليهودية أو الوثنية، وكان على علمائها أيضاً الدفاع عن المسيحية ضد مهاجميها. وإلى علمائها يرجع الفضل فى محاربة الهرطقات التى انتشرت فى القرن الثانى فى الإسكندرية وأهمها الغنوسطية والأفلاطونية الجديدة بعد ذلك. حتى إن الإمبراطور هادريان - الذى زار الإسكندرية حوالى عام ١٣٠م. قال: (إنا لا نجد هناك كهنة مسيحيين لم يكونوا علماء ورياضيين).

كانت البشارة بالمسيحية أولاً فى الإسكندرية باللغة اليونانية، وكان لابد من إيصالها إلى المصريين الذين يتكلمون القبطية، ويكاد يكون مؤكداً أن اللغة المصرية كانت لغة التبشير فى الدلتا، وكان ذلك مؤكداً دون شك فى مصر العليا، ولم ينته القرن الثانى حتى كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين المصريين الوطنيين. ولذلك تمكن علماء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية من استحداث ما نسميه الآن باللغة القبطية، التى هى فى الواقع اللغة المصرية الدارجة لذلك العهد، كتبت بحروف إغريقية، وأضيفت إليها سبعة حروف مأخوذة عن الديموطيقية، ثم وضعت لها قواعد النحو والهجاء، فكان عملاً فنيا رائعاً، قام به ولا شك لغويون على جانب كبير من الخبرة اللغوية، ويظن أن بنتينوس كان أحدهم.

ما إن أشرق القرن الثالث الميلادى، حتى بدأ بعض المسيحيين يولون ظهورهم للعالم، ويتوغلون فى الصحراء، لينفردوا فى خلوة مع الله، وليمضوا البقية الباقية من حياتهم، فى صوم وصلاة، وما أسرع أن انتشرت هذه الدعوة فى أرض مصر. وبعد تلك الحياة المرحة، حياة الدعة والترف التى اشتهر بها المصريون فى عهد الوثنية، انقلب كثير من المصريين - فى تلك الأيام - إلى نساك يعيشون فى الصحارى والقفار فى فقر وجهاد، ويقضون معظم أوقاتهم فى صلوات وابتهالات، بالإضافة إلى أعمال يدوية ليقتاتوا منها.

ومؤسس الرهبنة المسيحية هو الأنبا أنطونيوس لا بسبب أنه كان الأول الذى توحد فى الصحراء، إذ سبقه آخرون إلى ذلك أهمهم الأنبا بولا، ولكن بسبب كونه الأول الذى تجمع حوله جمهور من النساك برغبة اتباع تعاليمه. لم يكن لهم من قوانين سوى ما تمليه عليهم ضمائرهم وكانوا يتتبعون خطوات معلمهم فى القيام بواجبات النسك والعبادة. واستمرت الحال كذلك إلى أن قام بتنظيم تلك الحياة القديس الأنبا باخوم بقوانينه وأنظمته الرهبانية وهو المشهور بلقب أب الشركة الرهبانية.

لقد أهدت مصر إلى العالم المسيحى وإلى الحضارة ثلاثة مظاهر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين واختلط بدمائهم وهى: معلم اللاهوت والشهيد والناسك.

عمارة الكنائس

ينحصر تخطيط الكنيسة عامة فى ثلاثة أنواع رئيسية، هى التخطيط البازيليكى والتخطيط البيزنطى والتخطيط القبطى. والكنيسة القبطية استمدت عناصرها من الطرازين البازيليكى (الذى تعود أصوله الأولى إلى أنواع العمائر الرومانية القديمة التى كان يمثلها أساساً ساحة العدل عند الرومان) والبيزنطى (الذى استمد اسمه من اسم الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية).

تخطيط الكنيسة القبطية قائم أساساً على البازيليكا، وأهم التغييرات المعمارية التى طرأت على جوهر التخطيط البازيليكى تكمن فى النهاية الشرقية من جسم الكنيسة. ففى النهاية الشرقية من جسم الكنيسة توجد عدة هياكل يختلف عددها من كنيسة إلى أخرى، وإن كان يغلب وجود ثلاثة هياكل فى البناء الكنسى، بينما يوجد فى بعض الأحيان خمسة هياكل وأحياناً سبعة هياكل. كذلك توجد لكل هيكل من هذه الهياكل عناصر معمارية ثابتة تتمثل فى: حنية صغيرة تتوسط الضلع الشرقى للهيكل، يتقدم هذه الحنية مدرج رخامى، يغطى هذه الهياكل قباب لها مميزات خاصة. كما تنفصل هياكل الكنيسة فى الناحية الشرقية عن جسم الكنيسة الرئيسى فى الناحية الغربية بواسطة أحجبة خشبية تعرف باسم «حامل الأيقونات»، وتعد هذه من أدق خصائص الكنيسة القبطية.

ومن العناصر المعمارية الثابتة فى الكنيسة القبطية، تيجان الأعمدة القبطية. فالعمود القبطى يتألف من ثلاثة أجزاء: القاعدة، البدن، التاج، وتتخذ قاعدة العمود القبطى الشكل المربع أو المستطيل ويتخللها زخرفة محفورة نباتية أو هندسية. أما بدن العمود القبطى فتميزت بوجود زخارف مختلفة جمعت بين الكتابات القبطية والزخرفة النباتية وأهمها أوراق الأكانتس، بالإضافة إلى أشكال للصليب المقدس، هذا بالإضافة إلى حفر بعض مناظر القديسين. أما تاج العمود القبطى فقد تمت زخرفته بأشكال الرموز القبطية المتنوعة.

أما بالنسبة للأديرة، فالدير - من الناحية المعمارية - هو عبارة عن مجموعة من الأبنية المتعددة ذات الطابع الدينى، وهو يضم بداخله مجموعة من الأبنية تشمل الكنائس والقلالى والحصن والمائدة والطواحين والمكتبة، بالإضافة إلى الأسوار والتى تعد من العناصر المعمارية المهمة وهى التى تحيط بالعناصر المعمارية الداخلية، وتبنى عادة بارتفاع كبير حتى لا يمكن تسلقها أو اختراق الدير. ومعظم أسوار الأديرة القديمة بنيت من مادة الطوب اللبن مثل سور دير القديس الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، وذلك لجودة مادة الطوب



اللبن والتى تقاوم البرودة والحرارة فى آن واحد.

الفن فى الكنائس القبطية

تميزت الكنيسة القبطية بالبراعة فى استخدام مادة الأخشاب الجيدة فى صنع وزخرفة ما يعرف بالأحجبة الخشبية (حامل الأيقونات) والتى تفصل هياكل الكنيسة فى الناحية الشرقية عن الأروقة الطولية فى الناحية الغربية، وهى بذلك قد انفردت فى هذا العنصر المعمارى الزخرفى عن الكنائس المسيحية الأخرى

زخرف الفنان كل الحشوات الخشبية على مسطح حامل الأيقونات، بواسطة الحفر البارز العميق. وقد شملت هذه الزخارف مناظر آدمية وحيوانية وأشكال الطير ونباتية وهندسية. هذه الأشكال المتعددة من الزخارف كان يقصد من ورائها توضيح العقيدة المسيحية وإبراز دور شهداء الكنيسة فيها، بالإضافة إلى ما عرف فى الفن القبطى من استخدام الرمزية ولاسيما فى أشكال الحيوانات والطيور.

ففى الزخارف النباتية تظهر الأوراق النباتية المختلفة كالورقة ذات الفص الواحد والفصين وأوراق العنب الثلاثية والخماسية والمحاطة بتفريعات نباتية والمراوح النخيلية وأنصافها، كذلك الأوراق التى تظهر بها التعرقات النخيلية والمثقوب فصها الأوسط والورقة الكأسية الثلاثية والأوراق الرمحية وثمرة الرمان، وغير ذلك من العناصر النباتية العديدة التى تظهر بكل وضوح بكنائس منطقة مصر القديمة.

وفى الزخارف الآدمية والحيوانية، نجد أن الحشوات التى تزينت بها الأخشاب تمثل شخصيات دينية ذات تاريخ مهم، يتضح فيها عدم مراعاة النسب التشريحية لجسم الإنسان، حيث تعمد الفنان القبطى حفر الشخصيات الرئيسية بحجم أكبر من الشخصيات الثانوية. ومن أمثلة هذه الحشوات: حشوة الميلاد التى تمثل قصة ميلاد السيد المسيح وهو موضوع شاع وجوده على التحف المختلفة، وحشوة العشاء الأخير أو العشاء السرى وهو يتعلق بالمشهد الأخير من حياة السيد المسيح، وحشوة تمثل قديسا على صهوة جواده وهى بذلك تمثل حال القديس الفارس كانتصار المسيحية على الوثنية وتخليد ذكرى هؤلاء القديسين الذين كان لهم دور كبير فى الاستشهاد المسيحى. أما أشكال الطيور فقد كان لمنظر الطاووس الغلبة على بقية الطيور إذ إنه يرمز إلى الفردوس.

أما فى الزخارف الهندسية والكتابية فإنه من المعروف أن الفن القبطى يأتى فى مقدمة الفنون التى تميزت بوضوح الزخرفة الهندسية، إلى حد كبير. وفى هذه الزخارف تظهر أشكال الدوائر وأنصافها والمربعات والمعينات والمستطيلات والأشكال الخماسية والسداسية وأشكال العقود بأنواعها المختلفة والأشكال النجمية والمتعددة الرؤوس وأشكال الأوانى والزهريات، بالإضافة إلى استخدام عنصر الصليب فى الزخرفة.

وفى الزخارف الكتابية، فإن الكنيسة القبطية تميزت كتاباتها بوضوح الطابع الكنسى، سواء فى الكتابات القبطية أو العربية، إذ إنها مستمدة من الكتاب المقدس. فمن أمثلة الكتابات التى تزخر بها الكنائس: «فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب».



كان على القديس مرقس أن يوضح ما يتنافى من مناهج الفلسفات القديمة مع تعاليمه

نماذج من الكنائس

(أولاً): كنائس منطقة مصر القديمة

(١) كنيسة القديس مرقوريوس: تقع هذه الكنيسة شمال حصن بابليون وتحمل اسم الشهيد القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين.

هذه الكنيسة الكبيرة تتميز بكثير من العناصر والتفاصيل المعمارية والزخرفية والتى تجعلها تختلف عن كثير من كنائس منطقة مصر القديمة. الكنيسة بها ثلاثة مداخل متماثلة، ويقابل المدخل الأوسط محور حنية الكنيسة الرئيسية. يعلو المداخل، الصف الأول من فتحات النوافذ، حيث يشاهد ثلاث نوافذ متماثلة، يتكون كل منها من فتحتين مستطيلتى الشكل، يتوسطهما عمود رخامى له تاج وقاعدة، ويعلو النوافذ عتب خشبى.

تنتهى أروقة الكنيسة الرئيسية فى الناحية الشرقية منها بثلاثة عقود كبيرة ممتدة تفتح على الهياكل الثلاثة، الأوسط منها هو عقد الحنية الرئيسية، ويتميز بارتفاعه عن العقدين الجانبيين، ويرتكز هذا العقد على عارضة خشبية سميكة تقوم على عمودين رخاميين تيجانهما كورنثية الطراز.

(٢) كنيسة أبى سرجة: تقع هذه الكنيسة وسط الحصن الرومانى تقريباً، واتخذت تسميتها على اسم قديسين لهما شهرة كبيرة فى تاريخ الاستشهاد الدينى المسيحى فى أوائل القرن الرابع الميلادى وهما القديسان سرجيوس وواخس اللذان استشهدا فى عهد الإمبراطور الرومانى مكسيميانوس.

وفى هذه الكنيسة احتمت العائلة المقدسة. أثناء زيارتها لمصر. بالمغارة التى تقع أسفل الكنيسة.

والكنيسة من الناحية المعمارية تتكون من وحدتين أساسيتين، الكنيسة الكبيرة الرئيسية ومغارة الكنيسة. فالكنيسة الرئيسية مستطيلة الشكل تتكون من الواجهة والأروقة الداخلية الرأسية والمستعرضة ثم فى النهاية الشرقية من البناء حنية الكنيسة الرئيسية. يعلو المدخل الأوسط الرئيسى والمدخل الجنوبى نافذتان تتكون كل منهما من فتحة مستطيلة من الرخام المفرغ بالزخارف الهندسية ويتوسطهما عمود رخامى له تاج وقاعدة هرمية الشكل، كما يعلوهما عتب خشبى يبدأ من عنده الطابق الثانى للكنيسة.

أما مغارة الكنيسة فتقع على عمق ٣.٩٠ متر من مستوى أرضية الكنيسة، وتخطيطها مستطيل ويبلغ ارتفاعها ٢.٤٠ متر محفورة فى صخر جبل المنطقة ويغطيها قبو حجرى محدب، وهى مكونة من ثلاثة أروقة رأسية، وتتميز أعمدة هذه المغارة بعدم وجود طراز معين لشكلها باستثناء عمود قديم واحد من الطراز الكورنثى.

(ثانيا): كنائس وأديرة مركز نقادة

تبقى من عمائر الأديرة والكنائس فى مركز نقادة حاليا سبعة أديرة، حيث تقع فى الناحية الغربية وتكاد تكون على محور واحد من الشمال إلى الجنوب فى الصحراء الشاسعة، وفى جبل معروف عند الأقباط باسم «جبل الأساس المقدس»، فقد كانت هذه الصحراء فى وقت ما مأهولة بنساك ومتعبدين مثل القديس إيليا (قديس جبل ببشواو) والقديس صموئيل (قديس جبل نهدب).

وقد ورد فى الكتاب عرض رائع لخمسة أديرة من مجموعة أديرة مركز نقادة وهى: دير الصليب، دير القديس أندراوس (المعروف باسم أندراوس أبوالليف)، دير مارجرجس، دير القديس بسنتاؤس، دير القديس بقطر، ودير الملاك ميخائيل.

(١) دير الصليب: يقع هذا الدير حاليا فى قرية حاجر دنفيق. إحدى قرى مركز نقادة. يمتاز هذا الدير بوجود ثلاث كنائس على صف واحد من الناحية الشرقية من سوره القديم أهمها الكنيسة الجنوبية من الناحية المعمارية، فهى مستطيلة الشكل مقسمة إلى ثلاثة أروقة رأسية تنتهى من الناحية الشرقية بثلاثة هياكل، والهيكل الرئيسى للكنيسة مغطى بقبة. يقسم أروقة هذه الكنيسة صفان من البائكات إلى ثلاثة هياكل، بكل صف مجموعة من الأعمدة الحجرية، حيث يقوم فوقها عقود حجرية نصف دائرية الشكل تحمل قباب الكنيسة.

(٢) دير مارجرجس المعروف بدير المجمع: هذا الدير يعد من أهم أديرة مركز نقادة من الناحيتين التاريخية والمعمارية. تسميته بدير المجمع ربما يعود إلى أنه الدير الوحيد بالمنطقة الذى يوجد به خمس كنائس قديمة والتى اختصت ببعض الظواهر المعمارية الفريدة فى الكنيسة القبطية. وهذا الدير يتوسط أديرة جبل الأساس المقدس، وفيه كان يتم تجميع المؤن الخاصة بهذه الأديرة وتوزيعها عليها.

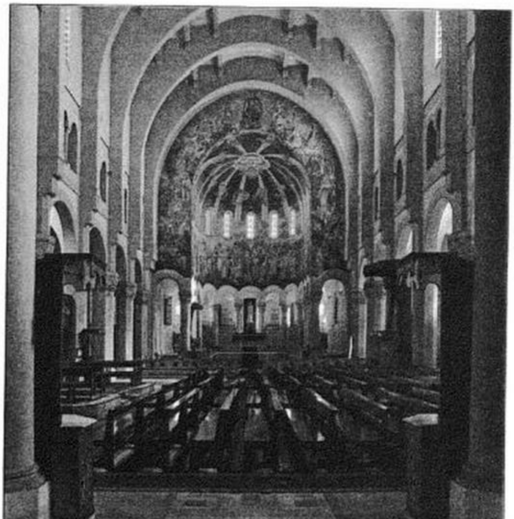
(٣) دير القديس بسنتاؤس: يبعد هذا الدير عن دير المجمع بحوالى مائتى متر، إلى الجنوب الشرقى منه. ويعد القديس بسنتاؤس من أشهر قديسى مصر العليا عامة ومنطقة نقادة خاصة، فقد كان أسقفاً لمدينة قفط فى القرن السابع الميلادى.

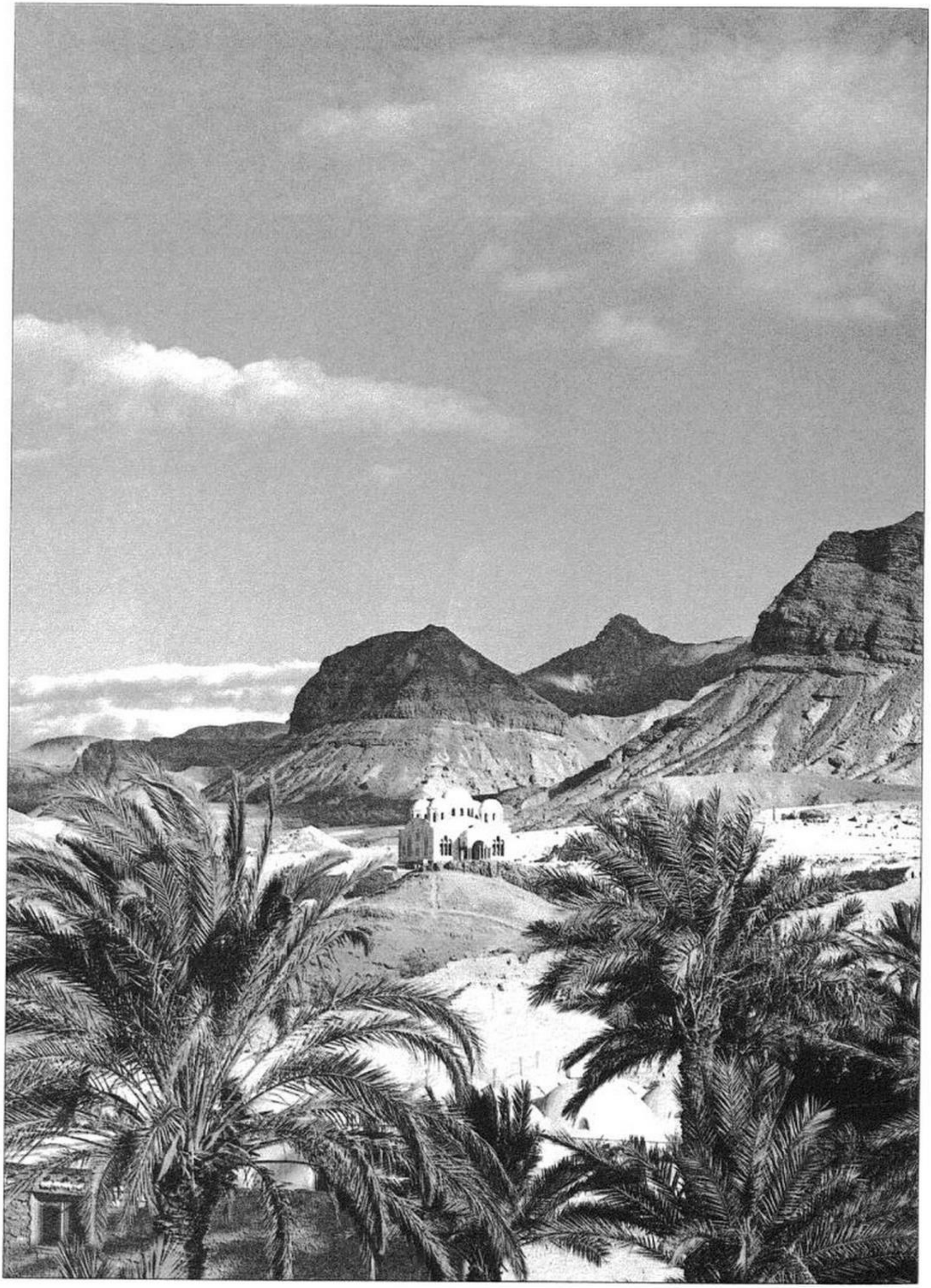
تعتبر كنيسة هذا الدير الأثر الوحيد الباقى حاليا من آثار عمارة الدير القديم، بالإضافة إلى بئر الدير القديم.

الكنيسة من الداخل مقسمة إلى ثلاثة أروقة رأسية، تنتهى فى الناحية الشرقية منها بثلاثة هياكل متميزة. الهيكل الأوسط يتميز بسمك جدرانه فى الناحية الشرقية والذى يصل إلى حوالى مترين!! وقد فصل هذا الهيكل عن الهيكلين الجانبيين فى الناحيتين البحرية (أى الشمال) والقبلية (أى الجنوب) بواسطة جدران قصيرة لا يتعدى ارتفاعها ١,٣٠متر، الهيكل البحرى يتميز بتجويف جداريه الشرقى والبحرى ويتوسط الجدار الشرقى حنية مماثلة لحنية الهيكل الأوسط، أما الهيكل القبلى فهو يشبه الهيكل البحرى إلا أنه يوجد به مدخل قديم مصمت يبلغ ارتفاعه ٧٥ سم كان يعلوه فى الأصل عقد نصف دائرى الشكل، وذلك فى الجدار القبلى. يغطى هذا الهيكل قبة مماثلة للقبتين السابقتين اللتين تعلوان الهيكل الأوسط والبحرى.

أما بئر الدير القديم فتقع فى الناحية الجنوبية الشرقية بالنسبة لكنيسة الدير وهى بئر واسعة يبلغ قطر فوهتها حوالى ٤م ويتوسطها عقد قديم نصف دائرى.

الكتاب فى مجمله رحلة شيقة إلى كنائس مصر المختلفة وأديرتها وبالأخص فى الأماكن التى زارتها العائلة المقدسة واستقرت بها فترة من الزمن. بالحقيقة سجل إشعياء النبى كلمته المأثورة: «مبارك شعبى مصر». ■





"أن تورّث الحكم لشخص ما.. فكأنك تورّثه شعبا

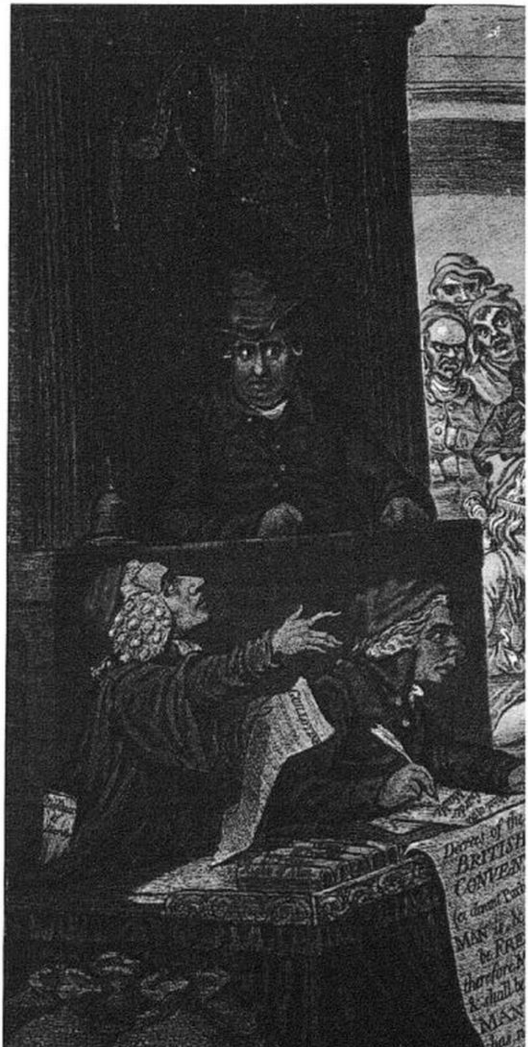
by James Gillray, Published by: H.Humphrey, March 2nd 1795



كما يُورّثُ قطيعا من الأغنام أو البقر

«توماس بين»

قصة ديموقراطية



محمد يوسف عدس

■■ «توماس بين» الكاتب البريطانى كان واحدا من أعظم الكتّاب الثوريين فى القرن الثامن عشر.. لم يقتصر تأثيره على بريطانيا فقط بل امتدّ تأثيره إلى الثورة الفرنسية التى انطلقت فى صيف عام ١٧٨٩ وإلى الثورة الأمريكية ضد الاحتلال البريطانى (١٧٧٦-١٧٨٣) رحل إلى باريس ليغذّى لهيب الثورة هناك كما لحق بصديقه جورج واشنطون لينخرط معه فى العمل الثورى بقلمه ونفسه...

كان له أصدقاء آخرون فى كل من بريطانيا وفرنسا، ظن فى مرحلة مبكّرة أنهم يشاركونه فكره الإصلاحى الديمقراطى، ولكنه وجد نفسه فى تصادم مباشر معهم عندما اكتشف حقيقة توجهاتهم العنصرية وعدائهم للحرية والديمقراطية. من أشهر هؤلاء «الماركيز دى لافايت» الفرنسى و «إدموند بروك» عضو البرلمان البريطانى.. نشر الأخير كتابا بعنوان: «تأملات فى الثورة الفرنسية» عبّر فيه

The Vote: How It Was Won and How It Was Undermined
Paul Foot
Not Avail, 2005

CAPTIVE STATE: the corporate takeover of britain
George Monboit
Macmillan (2000)

The Blair Revolution
Peter Mandelson and Roger Lidelle .
London :Facer , 1996

عن مدى كراهيته للانتخابات العامة وعمق انتمائه الطبقى وغطرسته واحتقاره (للعوام) الذين أدلوا بأصواتهم لأول مرة فى انتخابات البرلمان الفرنسى إذ وصفهم بأنهم مجرد فلاحين (جرابيع) لا يتمتعون بالحكمة التى تتمتع بها الصفوة وفى هذا يقول: «المثقفون وحدهم هم الذين يمكنهم اكتساب الحكمة.. فهؤلاء لديهم متسع من الوقت ويتمتعون بالاسترخاء والتأمل.. فكيف يكسب الحكمة من يسير خلف المحرات وهو مشغول بالعمل اليدوى طول الوقت.. وكل حديثه لا يدور إلا حول الثيران والأبقار...!؟».. كان إدموند بيرك يسخر من مطالبة الفقراء والبسطاء بحقهم فى اتخاذ القرارات السياسية والمشاركة فى اقتسام الثروة الوطنية.. فمن رأيه أن هذه أمور تخص الفئة المالكة فالملكية عنده هى معيار القيمة الأعلى للإنسان (قل لى كم تملك أقل لك كم تساوى) وبناء على هذه النظرية المادية الخالصة يعتبر أن الغنى العاطل هو النموذج الأعلى للإنسان.

رداً على هذا الموقف العنصرى المفرط فى غلوائه ألّف «توماس بين» كتابا نُشر فى فبراير سنة ١٧٩١ «بعنوان حقوق الإنسان» يعتبر من أشهر الكتب التى ظهرت فى تاريخ بريطانيا كله.. افتتح الكتاب بهجوم كاسح على صديقه السابق بيرك واتهمه بأنه مُنوّم تنويماً مغناطيسياً.. فهو عاجز عن أن تمتد رؤيته الطبقية خارج النظام الملكى السابق فى فرنسا.. ولا يستطيع أن ينتزع خياله المتسمّر فى النظام البرلمانى العفن فى

بريطانيا وليس عنده ذرة من (الإحساس) بالمجتمع الحقيقى فى بريطانيا أو فرنسا.. طبع هذا الكتاب فى سنة واحدة ست طبعات وبيع منه خمسون ألف نسخة وقد شجع هذا الإقبال الشديد على الكتاب على نشر الجزء الثانى منه سنة ١٧٩٢ تعميقاً للموضوع الأصلى ولكن بلهجة أقوى وأكثر ثقة وثباتاً.. يقول فيه توماس بين:

«إن كل الحكومات (الوراثية) بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون حكومة استبدادية.. فالتاج الموروث أو العرش الموروث ليس له إلا معنى واحد وهو أن الإنسان مجرد ملكية يمكن توريثها.. أن تورث الحكم لشخص ما فكأنك تورثه شعباً كما يُورث قطيع من الأغنام أو البقر.. يَخلف الحكام الواحد منهم تلو الآخر فتنتقل الشعوب إرثاً مملوكاً.. لا ككائنات عاقلة ولكن كحيوانات مملوكة...!».

فى تاريخ الشعوب الحية نقاط انطلاق محورية تبدأ بعدها عملية تغيير كبرى وتحولات مشهودة فى بعض تجلياتها، وتحولات أخرى ربما أكثر أهمية تجرى فى العقول والأنفس.. ولا شك أن ظهور مفكرين وكتّاب ثوريين من دعاة الحرية والنضال الشعبى من أمثال «توماس بين» و«شيلى» وغيرهما كان يمثل نقطة انطلاق هامة فى مسيرة النضال من أجل الديمقراطية فى بريطانيا.. هذه المسيرة التى صبغت حياة الشعب البريطانى على مدى قرن من الزمن حتى برزت الديمقراطية بالصورة التى انبهر بها العالم...

ولكن تمكن أعداء الديمقراطية من استخدام أساليب ماكرة فى الصراع حتى استطاعوا مؤخراً القفز إلى عربتها ليقبضوا على زمامها وتوجيهها لخدمة مصالحهم الإمبريالية الفاشية.. فاشية حقيقية رُصدت بعض ملامحها الأساسية فى أمريكا وكتبت عنها مقالاً بعنوان «الفاشية الناعمة»..

كنت أظن أن الديمقراطية البريطانية ربما تكون محصنة ضد هذا التطور المأساوى.. ولكنى (للأسف) لاحظت شواهد دالة على عكس هذا الظن عززته دراسة متأنية ومتابعة للحياة السياسية من موقع إقامتى فى لندن قرابة عقدين من الزمن..

وقد هالنى أن بريطانيا فى عهد رئيس الوزراء السابق «تونى بلير» قد تحولت إلى النموذج الأمريكى حيث تسيطر على اتخاذ القرارات المصيرية قوى من خارج البرلمان، (يعنى) قوى غير منتخبة من قبل الشعب.. وبدا نواب الشعب المنتخبون فى حالة من العجز المزرى والارتباك المهين.. وهذا ما يعكسه كتاب بالغ الأهمية بعنوان: (الصوت الانتخابى: كيف اكتسبناه، وكيف بددناه..؟) لمؤلفه «بول فوت»..

استغرق بحث موضوع هذا الكتاب وتأليفه تسع سنوات أو تزيد قليلاً.. فترة فاقت كل توقعات المؤلف، فقد ظن بعد ثلاث سنوات من القراءات الواسعة أنه قد حصّل من المعرفة فى موضوع بحثه ما يكفى لتأليف الكتاب ولكنه اكتشف كما يقول: «أننى مازلت أجهل الكثير مما ينبغى علىّ أن أعرفه..» فعاد إلى استئناف بحثه للموضوع وتحمل فى ذلك الكثير من العناء والتضحيات.. وفى حالة بول فوت بلغت تضحياته حد المرض والإعاقة البدنية التى تحداها بروح قوية.. ولكن أسلمه المرض فى النهاية إلى الموت..

إنها قصة مأساوية لكاتب وصحفى مقتدر آلمه أشد الإيلام أن يشهد بداية عصر احتضار الديمقراطية البريطانية ويشعر بأن قرناً كاملاً من النضال والتضحيات فى سبيل الحرية والديمقراطية يتبدد أمام ناظريه..

الإصلاحيون ومحنتهم:

كان كتاب حقوق الإنسان لـ «توماس بين» جزءاً من موجة عارمة تدعو إلى الإصلاح فى بريطانيا، ومع انتشار هذه الموجة فى الأوساط الشعبية زادت حدة القمع فى كل أنحاء بريطانيا.. فلما أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا سنة ١٧٩٣ اتخذت الحكومة البريطانية هذا الإعلان ذريعة لمزيد من القمع الذى شمل كل من يشيد بالثورة الفرنسية من الكُتّاب ودعاة التغيير السياسى باعتباره خائناً للوطن.. وفى تلك الفترة سادت مقولة على الألسنة فى الأوساط الشعبية مؤداها: أن حكومة هذه البلاد تحتكرها عصابة من أصحاب الأملاك لهم وحدهم حق التمثيل فى البرلمان وحق التصويت.. وعلى هذه العصابة المتميزة أن تحمل ممتلكاتها على كتفها وترحل عن هذه البلاد.

قامت الحكومة باعتقال عدد من قادة الإصلاح وحكمت عليهم بالنفى فى مستعمراتها الأسترالية لمدة أربع عشرة سنة.. وقد استطاع عدد منهم الهرب من قبضة الشرطة وظل متخفياً حتى استقر فى فرنسا ليعيش فى منفاه الاختيارى بعيداً عن وطنه.. وكان هؤلاء أسعد حظاً من الذين أرسلوا إلى أستراليا.. فمات بعضهم هناك وعاد بعضهم إلى بريطانيا سنة ١٨٠٩ وقد تحطمت عقولهم وأجسامهم تحت وطأة القهر والإذلال والأشغال الشاقة..

وفى عام ١٧٧٤ أسس أربعة من الإصلاحيين الإنجليز على رأسهم الكاتب الإنجليزى الشهير «توماس هاردى» جمعية للترويج لأفكارهم التحررية فاعتقلتهم السلطات وقدموا إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.. وقد اشتمل قرار المحكمة بالإدانة على الفقرة التالية: «إن من يروج لفكرة الإصلاح البرلمانى يساوى المتآمر لاغتيال جلالة الملك...!».

وخلال فترة الحرب النابليونية اشتدت الهجمة على الإصلاحيين وكثرت القيود والإجراءات القمعية بدعوى (أن الأمة تحتاج إلى توحيد الصفوف خلف جيشها لهزيمة نابليون)، وعندما انتهت حرب نابليون اعتقد الناس أن حجة الحكومة قد انتهت بعد هزيمة فرنسا وعودة السلام إلى انجلترا.. ولكن مع السلام جاءت أزمات اقتصادية أشد وانتشر الجوع والفقر فى أنحاء البلاد.. وعادت حركة الإصلاح البرلمانى أقوى مما كانت عليه من قبل.. ومرة أخرى تهب السلطات متذرعة بحجة جديدة فتخفض أجور العمال لمواجهة الأزمة الاقتصادية.. وكانت الاستجابة الفورية من الشعب الذى استيقظ: اضطرابات واحتجاجات انطلقت فى طول البلاد وعرضها اعتراضاً على تقليص الأجور. واستمرت الاضطرابات مشتعلة لأكثر من ثلاثة أعوام اعتباراً من سنة ١٨١٥.. حيث تركزت الثورة فى مناجم الفحم، من أغرب الملابسات فى تاريخ هذه الفترة أن الشعب سجّل أسماء جميع الذين قادوا حملات القمع ولا تزال مسجلة حتى اليوم لتعتبر بها الأجيال ولا تنسى أسماء الذين كانوا أسواطاً وجلادين فى يد الطاغية المستبد...!

ففى مانشستر سنة ١٨١٩ قرر العمال الإضراب عن العمل معبرين عن احتقانات متراكمة فى صراعهم مع أصحاب الشركات المدعّمين بقوة السلطة الحاكمة.. احتشد فى إحدى هذه المظاهرات ستون ألفاً فى مسيرة سلمية فإذا بقوات عسكرية من سلاح الفرسان تقتحم المظاهرة وتقتل أحد عشر شخصا من المتظاهرين.. فاشتعل الصدام بين الجماهير الغاضبة وبين القوات العسكرية.. وانتشر التمرد فى كل مكان..

توالت الكوارث الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية فمات فى أيرلندة من الجوع أكثر من مليون شخص فيما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥١.. وجاء خبراء السياسة والاقتصاد ليغسلوا أيديهم من تبعاتهم ومسئولياتهم (كالعادة دائماً) فنسبوا المجاعة إلى سوء المناخ.. ووضعوا اللوم على الضحايا أنفسهم..

يقول بول فوت: «لم تكن التصريحات الرسمية لتتطرق إلى الأسباب الحقيقية لنقص مواد الغذاء وغلاء المعيشة التى ترجع إلى أساليب الاستغلال والاستعباد والقهر التى تمارسها على الشعب حكومات تنفذ سياسة «السوق الحرة» بحذافيرها دون مراعاة لحاجة المستضعفين والفقراء...!!

كانت تحركات الجماهير تجرى فى إطار سلمى وتلتزم بالقوانين وتعلن عن مطالبها بأساليب مشروعة منها مثلاً تقديم الشكاوى إلى البرلمان وقد جُمعت فى ذلك ملايين التوقيعات كما حدث سنة ١٨٣٩ إذ بلغ عدد هذه التوقيعات

«إن كل الحكومات (الوراثية) بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون حكومة استبدادية»

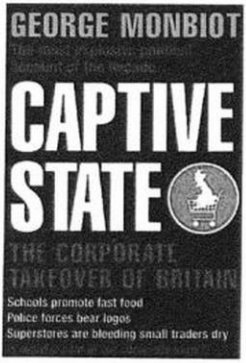
توماس بين

«لم تتطرق التصريحات الرسمية أبدا إلى الأسباب الحقيقية لغلاء المعيشة والاستبعاد والقهر..»

بول فوت









ثلاثة ملايين ونصف مليون توقيع.. وكانت استجابة البرلمان بالمماطلة ثم الإهمال..

وهنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: لماذا الاحتقار والإهمال لمطالب الجماهير؟ أليس من المفروض أن البرلمان يعبر عن مصالح الشعب ويلبي مطالبه..؟ والإجابة المباشرة هي أن هذا البرلمان في ذلك الوقت كانت عضويته مقصورة على النخبة الغنية.. وكان حق التصويت احتكاراً مقصوراً على المالكين وليس حقاً لكل أبناء الشعب.. ومن ثم استمرت القوانين تصدر من البرلمان لصالح القلة الثرية من أصحاب الأملاك وضد مصالح الأغلبية المحرومة من حق التصويت.. وفي هذا يعلق بول فوت قائلاً: «لقد تم كل هذا تحت سقف البرلمان بجاحة شديدة وتحدٍ سافر لمشاعر الجماهير الشعبية...!».

كان شعار الحركة الإصلاحية حتى هذه النقطة من التطور التاريخي للديمقراطية البريطانية هو (رجل واحد صوت واحد) ولم يكن هناك إشارة أو ذكر لحق النساء في التصويت فلم تكن الحركة النسائية قد تبلورت بعد في بريطانيا.

الحركة النسائية نحو الديمقراطية:

كان الشاعر شيلي يتساءل في استنكار: «هل يمكن للرجل أن يكون حراً إذا كانت المرأة رقيقا..؟!»، وجدير بالذكر أن سنة ١٨٨٤ شهدت انفراجاً كبيراً حيث قدم إلى البرلمان مشروع بقانون للإصلاح السياسي تحول إلى قانون أصبحت فيه الانتخابات العامة متاحة لـ ٦٠٪ من الرجال البالغين.. بمعنى أن هؤلاء الرجال من حقهم التصويت لاختيار نُوابهم وحكومتهم.. أما المرأة فقد استمرت محجوبة عن صندوق الانتخابات لمدة ٣٤ سنة أخرى.. ففي سنة ١٩١٨ قدم الفيلسوف (عضو البرلمان) «جون استيوارت مل» مشروعاً لمنح المرأة حق التصويت.. ونلاحظ هنا أن عوامل اجتماعية أخرى معقدة كانت تسيطر على علاقة الرجل بالمرأة بعيداً عن معايير العنصرية البريطانية المتمثلة في الأرستقراطية البريطانية.. بعيداً عن صراع الأغنياء مع الفقراء.. صراع المالكين مع المعدمين.. فقد ساد خوف الرجال من أن إعطاء المرأة حق التصويت قد يؤدي إلى أن يفقد الرجال سيطرتهم على ممتلكات زوجاتهم..

كان الاعتقاد السائد بين الرجال في ذلك الوقت لا يزال متأثراً بأفكار طرحها عضو برلمان سابق سنة ١٨٦٧ قال: «ينبغي على المرأة المتزوجة أن تمنح زوجها كل ما تملك بما في ذلك نفسها في السراء والضراء على السواء.. وينبغي عليها أن تكون تحت سيطرة زوجها بصفة كلّية ومطلقة.. ليس فقط فيما يتعلق بممتلكاتها ولكن في كل ما يتصل بحركتها الشخصية.. فإذا تمردت عليه فإن من حق زوجها أن يحبسها...» ثم يتابع قائلاً: «ويرى بعضهم ضربها.. إلا أنني لا أنصح بذلك.. وإذا سألني أحدهم باعتباري محامياً قانونياً فلن أنصحه بالضرب.. ولكن لا شك عندي أن الزوج له حق الهيمنة الكاملة على شخص زوجته وعلى ممتلكاتها...».

ويحاجج «هنري أيرتون» عضو البرلمان البريطاني لا ضد حق النساء فقط بل يلحقه بحق الفقراء أيضاً فيقول: «لو أن كل إنسان حصل على حق التصويت فإن الأغلبية الفقيرة ستلجأ إلى مصادرة ممتلكات الأغنياء»، وعلى هذا المنوال احتج عضو آخر بقوله: «إذا نالت النسوة حق التصويت فسوف تسحب الزوجات ملكياتهم من الأزواج.. وأسوأ من هذا أن يتشبثن بحقهن أن يكون لهن رأي خاص مستقل عن أزواجهن...» ثم يستنكر متعجباً: «ماذا يحدث لو أن المرأة خالفت رأي زوجها.. إنها لمصيبة!؟ والأسوأ من كل هذا أن تنتخب الزوجة ضد رغبة زوجها...» ويخلص الرجل إلى النتيجة المنطقية فيقول: «وعلى ذلك لابد من منع المرأة من التصويت في الانتخابات.. وإلا فستفقد النساء حياءهن ورقتهن وعواطفهن وكذا مؤهلاتهن المنزلية».

وهكذا هُزم مشروع جون إستيوارت مل...!

حظيت بعض النساء من صاحبات الأملاك على حق التصويت سنة ١٨٦٩ لا في البرلمان ولكن فقط في المجالس المحلية.. ومع قانون التعليم الصادر سنة ١٨٧٠ حصلت النساء على حق التصويت في انتخابات مجالس الآباء المدرسية والترشيح لعضوية هذه المجالس.. وكان طابع الحركة النسائية في هذه المرحلة يغلب عليه سمات نساء الطبقة الغنية، لذلك اقتصرت على الاجتماعات والندوات والخطب.. وتقديم الشكاوى من وقت لآخر لأعضاء البرلمان والحكومة..

ظهور الطبقة العاملة النسائية:

ظهرت الطبقة العاملة النسائية في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.. ووجدنا نساء يقتحمن البرلمان والاجتماعات الحزبية العامة ويطالبن بالكلمة.. أو يصحن في وجه أعضاء البرلمان: «لم لا تمنحون المرأة حق التصويت..» وهنا تتدخل الشرطة لتخرج النساء من قاعة البرلمان ويقبض عليهن ثم تقدمهن إلى المحكمة بتهمة (تعكير صفو السلم الاجتماعي) فتحكم المحكمة عليهن بالسجن أو الغرامة.. وغالباً ما كُن يرفضن دفع الغرامة فيودعن في السجن..

تطورت حركة النساء السياسية لتبلغ قمة اشتعالها في عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩م.. وفي هذا كتبت واحدة من رائدات الحركة النسائية في بريطانيا تصف هذه الحالة من تأجج الحماس:

«شعرنا في ذلك الوقت بأننا جزء من حركة الحياة المتدفقة فأصبح لنا هدف ومعنى نسعى لتحقيقهما.. كنا نتحرك في كل مكان ونوزع منشورات ونتحدث إلى الناس لنشرح قضيتنا...» وفي ٢١ يونيه سنة ١٩٠٨ دعا الاتحاد النسائي إلى اجتماع في «هايد بارك» وصف بأنه أكبر اجتماع نسائي حدث في تاريخ بريطانيا.. احتشد فيه مئتان وخمسون ألف متظاهرة، وبرزت هنالك متحدثات جماهيريات يمتلكن قوة البيان وسحره مما جعل أعداء الحركة ينصتون إلى قوة المنطق ويتعاطفن مع أهداف الحركة النسائية.

ومما هو جدير بالذكر كدليل على الإصرار والاستعداد للتضحية أن النساء كن إذا قُبض عليهن لا يستسلمن ولا يخضعن لقهر الشرطة بل كن يتحدين السلطات ويرفضن دفع الغرامات ويؤثرن على ذلك الاعتقال وهذا ما زاد من تأجج الحركة النسائية بالغضب والثورة ضد الأوضاع القائمة..

استمر الصدام واستمر إيداع النساء في المعتقلات والسجون حيث كثر عددهن فبدأت حركة إضرابات نسائية داخل السجون لسوء المعاملة.. وشمل هذا التمرد الإضراب عن الطعام مما اضطر سلطات السجون إلى اللجوء لقهر النساء على تناول الطعام بالقوة دون جدوى..

ولمعالجة هذه الحالة صدر فى سنة ١٩١٣ واحد من أغرب القوانين فى تاريخ بريطانيا سمى «قانون التسريح المؤقت» بمقتضاه يتم تسريح النساء اللائى أشرفن على الهلاك، ثم إعادتهن مرة أخرى إلى السجن بعد أن يسترددن عافيتهن فى منازلهن.. ولذلك أطلق عليه الناس «قانون القط والفأر».

من أبرز الحالات التى تم تسجيلها فى تاريخ الحركة النسائية حالة «مارى ريتشارد سون» التى احتجت على هذا القانون بإلقاء زجاجة حبر فى نافذة قسم الشرطة.. فحُبست وأضربت عن الطعام فأفرج عنها لمدة خمسة أيام ثم أعيدت إلى السجن فاستأنفت الصيام مرة أخرى حتى أوشكت على الهلاك فأخرجت لخمسة أيام أخرى ثم أعيدت إلى السجن.. واستمر الحال على هذه الوتيرة لمدة عام كامل.. إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أيام حيث سُرّحت من السجن لإصابتها بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية (وقد ظهر على جسدها كدمات وعلى فمها تمزقات بأظافر بشرية من آثار التعذيب ومحاولة إجبارها على تناول الطعام قسراً.. كان إصرار مئات النساء على الإضراب رغم ما أصابهن من جراء التعذيب يتصاعد متحدياً إصرار ووحشية السلطات الأمنية.. واعتبر هؤلاء النسوة فى تاريخ بريطانيا أبطال حقوق النساء فى التصويت..

ضغط العوامل الاقتصادية:

أثناء الحرب العالمية الأولى قفزت أعداد النساء العاملات فى المصانع البريطانية خصوصاً فى الصناعات الحربية والهندسية وذلك لتجنيد أعداد كبيرة من الرجال فى الحرب، والمهم أن بول فوت يستخلص من التجربة الديمقراطية البريطانية أن اقتصار حركة الإصلاح على العمل من خلال الدستور فقط، والمقاومة السلمية لم يكن ليحقق النتائج الناجحة التى وصلت إليها هذه الحركة عندما قام المقهورون بالعمل الثورى المباشر فى وجه الطغاة.. ويرى أن أكبر ظهير للطغاة فى هذا الصراع هو استسلام المقهورين وسلبيتهم...! كما يرى أن النصر الذى تحقق للديمقراطية سنة ١٩١٨ لم يكن ليحدث بدون سنوات طويلة من النضال.. هذه المقاومة الطويلة المتواصلة والمثابرة هى التى خففت أولاً من التعصب التقليدى للرجل البريطانى ضد المرأة..

وثانياً: عندما قرر الرجال أن يكسروا أسلوب حياتهم المعتادة ويعلنوا المقاومة والعصيان المدنى تحقق لهم ما يريدون..

وهكذا حصل البريطانيون رجالاً ونساء على حق التصويت فى الانتخابات العامة عبر صراع طويل ومقاومة عنيدة ضد طغيان السلطات الحاكمة، صراع اتسم بالعنف والتضحيات..!

تفكيك الديمقراطية:

هنا نقلب هذه الصفحة من الكفاح والنصر لننظر فى الصفحة الأخرى ونرى قصة الوهن الذى دبّ فى عضد الديمقراطية البريطانية، وكيف تم تفكيكها تدريجياً عبر صراع شرس وهجمات متواصلة من جانب تحالف قوى المال والأعمال وسطوة الشركات الزاحفة.. حتى تم تفجير الديمقراطية فى عهد تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق.. ومن داخل حزب العمال نفسه الذى كان فى الماضى نصيراً صلباً للديمقراطية وحقوق الطبقات العاملة وصاحب مبادئ الديمقراطية الاشتراكية...؟! النصف الثانى من هذا المقال إذن يتناول الإجابة على سؤال «بول فوت»: كيف تم تبديد الصوت الانتخابى..؟

فى سنة ١٩٦٤م وفى بداية فترة حكومة عمالية كان يرأسها «هارولد ويلسون» زعيم حزب العمال، هبط عليه فى مقره بداوننج إستريت «لورد كرومر» مدير بنك لندن المركزى (لاحظ أنه بنك مستقل له نفوذه الهائل على الحركة المالية والاقتصادية.. ولكن مديره لا يخضع لسلطة رئيس الوزراء...!).. إنه يمينى من حزب المحافظين سلطوى حتى النخاع.. جاء ليظهر قلقه من عجز موازنة المدفوعات الذى ورثته الحكومة العمالية من حكومة المحافظين السابقة نتيجة سياسة وزير ماليتها تسببت فى عجز مالى مقداره ثمانمائة مليون جنيه إسترلينى..

اجتمع كبار أعضاء الحكومة لدراسة مقترحات «لورد كرومر» والنظر فى حلول للخروج من هذه الأزمة.. ثم قرروا ألا تلجأ الحكومة إلى تخفيض سعر الجنيه الإسترلينى أو تعويمه.. فقد كانت هذه السياسة السبب فى سقوط حكومة العمال السابقة، حيث أدت تلقائياً إلى تخفيض أجور العمال.. ومن ثم اكتفى «جالاهان» وزير المالية بإجراءات سياسية لوقف النزيف المالى.. وبذلك اضطر إلى إرجاء كل الوعود التى قطعتها حكومة العمال على نفسها أثناء الانتخابات..

لم يُعجب هذا التصرف لورد كرومر.. واستمر فى بيع الإسترلينى.. حتى تدهور الاحتياطى النقدى فى البنوك.

ويصف هارولد ويلسن فى مذكراته (بعد ذلك) الحوار الذى جرى بينه وبين لورد كرومر فى اجتماعهما يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤م قال: «لقد وصلنا إلى نقطة كان ينبغى أن نعود فيها إلى الشعب لانتخاب حكومة مخولة بصلاحيات أكبر بعد أن نحيطهم علماً بأن **حكومتنا مضطرة** (بسبب موقف مدير البنك المركزى) للتراجع عن سياستها التى انتخبها الشعب لتنفيذها.. وأن عليها أن تنفذ سياسة حزب المحافظين التى عارضتها من قبل معارضة شرسة..» ويمضى هارولد ويلسون فيقول: «كان جواب مدير البنك المركزى صريحاً فى تأكيده أن هذا هو الحقيقة!!» يقول ويلسون: «لقد سألته حينئذ: «هل معنى ذلك أن أى حكومة بقيادة أى حزب وتحت أى شعار أو برنامج مُعلن.. ومهما تكن السياسة التى خاضت الانتخابات بغية تنفيذها يستحيل عليها أن تستمر ما لم تتحول فوراً وبصورة مطلقة إلى سياسة حزب المحافظين..؟! لقد اعترف الرجل بأن هذا تماماً هو ما يقصده من حجحه التى ساقها أثناء المناقشة.. وبرر ذلك بأن هذا هو ما تمليه الحتمية الاقتصادية على موقف الذين بيدهم السلطة السياسية والاقتصادية جميعاً». وحجته فى ذلك: أنه تحت وطأة وحجم أزمة اقتصادية من العيار الثقيل لابد من تعليق العملية الديمقراطية..! وكان رد ويلسون حاسماً وشجاعاً بالرفض.. بل هدده بأنه ليس أمامه خيار إلا أن يعتصم بالديمقراطية إلى أقصى المدى، ومن ثم لابد من العودة إلى الناخبين للحصول منهم على صلاحيات أكبر للتعامل مع الأزمة.. وفى حالة مصارحة الشعب بتفاصيل الموقف فسوف يكون هناك إجماع شعبى بل زلزال يقلب الأمور على وجهها الصحيح.. وكان رد لورد كرومر بأن هذا قد يكون صحيحاً.. ولكنه لن يكون فى صالح الإسترلينى ولا فى صالح بريطانيا...

يقول ويلسون: «غادر كرومر مقر مجلس الوزراء.. واستطاع أن يجمع ثلاثة مليارات دولار قرضاً لبريطانيا من البنوك المركزية.. وحقق بذلك وقفاً مؤقتاً لأزمة الإسترلينى...».

قصة هذا الصدام التاريخى المفتوح بين رجال البنوك وبين الحكومة المنتخبة هى وصف دقيق لحالة الخصومة الأبدية بين رجال المال والأعمال وبين الديمقراطية أو الحكومات الديمقراطية التى تحاول الالتزام بمصالح الطبقات العاملة أو الأغلبية المستضعفة التى انتخبتها للسلطة.. وكان جالاهان وزير المالية العمّالى كلما أعلن زيادة فى الإنفاق الحكومى لتدعيم الخدمات جاءته التحذيرات تترى من رجال البنوك الدائنة بالكف عن هذه السياسة الخاطئة.. وأنهم كانوا يتوقعون من الحكومة مسلكاً مختلفاً للحد من التضخم المالى.

يصور جالاهان صعوبة المأزق المالى فيقول: «كان الأمر بالنسبة لى كالسباحة فى أمواج هائلة كلما خرجنا من موجة عاتية أعقبتها موجة أعتى منها فتلطمنا قبل أن نتمكن من التقاط أنفاسنا..!».

بداية التنازلات:

من أهم الكتب التى تكشف عن قصة التنازلات العمالية المتدرجة كتاب «كلايف

إذا نالت النسوة حق التصويت فسوف تسحب الزوجات ملكياتهم من الأزواج.. وأسوأ من هذا أن يتشبثن بحقهن أن يكون لهن رأى خاص مستقل عن أزواجهن..»

هنرى آيرتون عضو البرلمان البريطانى ١٨٦٧

قصة هذا الصدام التاريخى المفتوح بين رجال البنوك وبين الحكومة المنتخبة هى وصف دقيق لحالة الخصوة الأبدية بين رجال المال والأعمال وبين الديمقراطية

بونتنج، بعنوان: «النكوص عن الوعود: العمال فى السلطة ١٩٦٤ - ١٩٧٠»... نشرته دار «هامش هاملتون» سنة ١٩٨٩.. فقد كشف لأول مرة عن خلفية اتفاقية سرية بين حزب العمال البريطانى وبين الولايات المتحدة الأمريكية (تساعد أمريكا بمقتضى هذه الاتفاقية حكومة العمال البريطانية للخروج من أزمة الإسترلينى فى مقابل تدعيم الولايات المتحدة فى حربها بفيتنام.. وإبقاء عدد كبير من القوات العسكرية البريطانية شرقى السويس.. وغير ذلك من الشروط..) وكلها شروط مناقضة لسياسة حزب العمال التقليدية المعلنة.. فهذه السياسة كانت دائماً ضد المشاركة فى حرب فيتنام، وضد الاستمرار فى الإنفاق الباهظ على القوات الإمبراطورية.. وضد الإجراءات الاقتصادية التقشفية مثل خفض سقف الإنفاق الحكومى بحجة محاربة التضخم المالى.. وهكذا تنازلت حكومة العمال تحت تأثير الضغوط الاقتصادية وتلاعب رجال البنوك مع الولايات المتحدة لتتراجع عن السياسات التقليدية لحزب العمال.. وإنها لتفعل ذلك ضد قناعتها الدستورية والديمقراطية..!.. ولأول مرة (فى هذا المناخ التنازلى) تضطر حكومة عمالية لمواجهة إضراب عمال النقل البحرى بعنف شديد غير معهود.. ولا تستجيب لمطالبهم العادلة، وكان السبب هو تنفيذ الشروط السرية التى وضعتها أمريكا على القرض الذى قدمته للحكومة العمالية..!

التحدى السافر:

كان هم حكومة المحافظين الأول فى سنة ١٩٧٠ هو كبح جماح الاتحادات العمالية واستخدام القوانين لتدعيم هذا الاتجاه.. ولكن عاد العمال مرة أخرى إلى السلطة سنة ١٩٧٤ وجاء معها «تونى بن» وزيراً للصناعة.. وكان يعتزم اتخاذ إجراءات حكومية لضبط سلوك الشركات التابعة للقطاع الخاص.. وقد أعلن عن ذلك فى مذكرة مفصلة.. ولم تكن هذه الشركات لتستسلم لهذا الضبط الحكومى ولو كان باسم مصالح الشعب وإرادته التى تبلورت فى انتخاب هذه الحكومة..!

يحكى لنا «تونى بن» فى مذكراته عن واقعة ذات دلالة كاشفة حدثت فى يوليه ١٩٧٤، فقد دُعى إلى حفل عشاء أقامه مديرو الشركة العملاقة لصناعة الصلب والصناعات الهندسية (GKN).. فى تلك الليلة هدده سير «راى بروك» رئيس مجلس إدارة الشركة بأنه إذا لم ترفع الحكومة اسم شركته من قائمة الشركات التى تعتزم الحكومة تأميمها فإن شركته ستضطر إلى إلغاء كل برامج استثماراتها المخططة للعام القادم.. يقول «تونى بن»: «لم أصدق ما سمعت من تهديد سافر بهذه الجرأة على الحكومة.. فطلبتُ من سير «راى بروك» أن يعيد على مسامعى هذا التهديد المفاجئ.. فأعاده بهدوء وبرود شديدين».. كان رد «تونى بن» بأنه لا توجد لدى الحكومة أى قوائم من هذا القبيل.. ولكن الدرس الذى استخلصه من الموقف: أن الرأسمالية تحتشد ضد إجراءات الضبط والرقابة التى تنوى حكومة العمال اتخاذها.. وتتحدى الحكومة بل تهددها بالسقوط.. ولها فى ذلك أساليبها وحيلها التى لا تنفد..

إحتشاد قوى المحافظين

فى عهد مسز ثاتشر:

فاز حزب المحافظين برئاسة «مسز ثاتشر» فى انتخابات ١٩٧٩ واستمرت فى السلطة قرابة ست عشرة سنة متواصلة.. وفى عهدها تبلور نوع من الفاشية الجديدة فى قلب النظام الديمقراطى العريق...!

كان حزب المحافظين طوال فترة حكومات حزب العمال المتعاقبة منذ سنة ١٩٦٥ يدرس ويحتشد للقضاء على ركائز السياسات العمالية.. واستطاع الحزب أن يجمع صفوفه تحت قيادة جريئة تؤمن بفلسفة أكثر جسارة وحدة.. قدرت ألا تقوم لحزب العمال قيامة بعدها أبدا..

تم فى داخل حزب المحافظين انقلاب سياسى هادئ نُحى فيه «إدوارد هيث».. وكان يُعتبر من أكثر قيادات الحزب يمينية بمقاييس عصره التقليدية.. وتربعت مسز ثاتشر فى مقعد القيادة.. فجاءت معها بفريق من المستشارين المتطرفين فى أفكارهم اليمينية.. جميعهم كان متأثراً بفلسفة جديدة تقضى بتنفيذ برنامج عنيف لصالح الطبقة التى ينتمون إليها.. وكان من بين هؤلاء أستاذ نمساوى يُدعى «فردريك هايك»..

لم تُخف مسز ثاتشر إعجابها بأفكار هذا المفكر النمساوى (الرائعة).. وخلاصتها: أن النظام الرأسمالى قام على أساس من الحرية.. وأن أى منظمة أو مؤسسة كاتحاد العمال تهدد التوازن فى المنظومة الرأسمالية فهى خطر على



Thomas Paine
(1737 - 1809)



John Stuart
(1806 - 1873)



Edmund Burke
(12 January 1729 - 1797- 1873)



Marquis De Lafayette
(1757 - 1834)



Mary Richardson
(1889 - 1961)

الحرية.. ثم تطرق إلى النظام البرلمانى فقال: إن شكلاً من أشكال المجالس الديمقراطية المنتخبة ضرورى.. (ولكن بدون أن تتدخل فى شئون حرية السوق أو تعوق آليات السوق..!).

كان من رأى هايك أن اتحادات العمال لابد من تكبيلها بالقوانين بحيث تفقد فاعليتها، وهكذا صدرت قوانين أكثر رجعية حرمت العمال من حقوق كانوا قد اكتسبوها منذ سنة ١٩٠٦ منها مثلاً حرمان العمال من حق الإضراب أو التظاهر تأييداً لمطالب فئة أخرى من العمال...!

وكالعادة المتبعة فى كل النظم الفاشية قدمت مشروعات هذه القوانين القمعية باسم: (مقترحات لإصلاح الاتحادات العمالية..).. وفى الحقيقة لا علاقة لها بالإصلاح من قريب أو بعيد.. وإنما كان القصد منها تقوية جانب أصحاب الأعمال والأثرياء فى مواجهة القوى العاملة وإضعاف قدرة اتحادات العمال على تنظيم أنفسهم ضد الإجحاف الواقع عليهم من أصحاب الأعمال.

بهذه القوانين لم تستهدف حكومة تاتشر تكبيل الاتحادات العمالية بالقيود فقط ولكنها هزمتهم شر هزيمة.. وانعكس هذا سلباً على مواقف قيادات حزب العمال.. مثلاً: «نيل كينوك» زعيم الحزب كف عن معارضة هذه القوانين القمعية.. ودفن قادة الحزب التزاماتهم تجاه اتحادات العمال..

كان قادة الحزب يعارضون الخصخصة بقوة (سواء فى الصناعة أو الخدمات).. وطالما وعدوا الجماهير بأن كل صناعة أو خدمة قام المحافظون بخصخصتها سيتم إعادتها إلى الملكية العامة.. وأبرز مثال على هذه المعارضة الواضحة والمستمرة تجلى فى خصخصة الكهرباء.. حيث قام «تونى بلير» فى البرلمان (وكان فى ذلك الوقت وزير ظل) ليقدم رؤية حزب العمال فقال: «نحن فخورون بأننا أخذنا الصناعة فى الملكية العامة.. وسوف نعيد الكهرباء للملكية العامة لخدمة الشعب البريطانى.. ولن تُدار الكهرباء أبداً كمشروع تجارى خاص».. وفى المؤتمر السنوى للحزب قال «تونى بلير» مرة أخرى: «الخصخصة معناها ارتفاع الأسعار وأعباء جديدة على عاتق الطبقات العاملة»..

ولكن رأينا فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى أن الحماس والمعارضة القوية لخصخصة الكهرباء والغاز والمياه تهدأ وتتراخى.. ولم يعد أحد يتحدث عن إعادة

تأميمها.. واختفت كل الوعود السابقة من برنامج حزب العمال خلال انتخابات سنة ١٩٩٧.. وقد ساعد على هذا التراجع المذهل الهزائم المتعاقبة لحزب العمال فى كل الانتخابات.. وهكذا قطع حزب العمال علاقته بالجذور..!

وفى سنة ١٩٩٤ مات جون سميث خليفة نيل كينوك فى زعامة الحزب بالسكتة القلبية وكان آخر قيادى عمالى يعلن ارتباطه بالقيم الاشتراكية والتزامه بالملكية العامة والتوظيف الكامل للقوى العاملة.. فلما رحل فجأة كان هناك إجماع صحفى على ترشيح تونى بلير زعيماً لحزب العمال..!

كانت النغمة الجديدة لتونى بلير: أن العمال لا يمكن أن يكسبوا الانتخابات إلا بالتغييرات التى بدأ يبشّر بها فى أوساط الحزب.. لقد أضعفت سنوات الهزائم عضوية الحزب وأُجبر عدد كبير من اليساريين على مغادرته.. وخلال ثلاث سنوات تفرّد «تونى بلير» بمخاطبة جماهير الحزب وقواعده فى مؤتمراتهم السنوية بدون معارضة تُذكر.. فها هو شاب لامع يجيد سبك الكلام والعبارات المؤثرة ومعه أسرة شابة يرتفع إلى مقعد زعامة حزب العمال بلا منازع..!

ثورة تونى بلير:

استطاع تونى بلير أن يحدث تحوّلاً فكرياً فى سياسات حزب العمال.. فما هو الأساس الأيديولوجى الذى وقع بمقتضاه هذا التحوّل الحاسم والمفاجئ فى الحزب؟

فى سنة ١٩٩٦ نُشر كتاب بعنوان: (ثورة بلير: هل حزب العمال الجديد قادر على العطاء..؟: إستراتيجية حزب العمال الجديد) من تأليف «بيتر مندلسون» و«روجى ليدل»... وهما شخصيتان غريبتان عن حزب العمال تماماً.. كانا ينتميان إلى الحزب «الديمقراطى الليبرالى»، ثم أصبحا فجأة مستشارين لتونى بلير.. وفى حقيقة الأمر كانا هما المخططين للتحوّل السياسى فى حزب العمال الجديد.. وكانا صانعى قرار على أعلى مستوى فى السلطة.. وهى منزلة كانت موضع حسد واندهاش من جانب الوزراء الرسميين وأعضاء البرلمان المنتخبين.

يكشف الكتاب من أول صفحة عن حقيقة حزب العمال الجديد عندما يقرر «أن هذا الحزب يبدأ مسيرته من حيث انتهت حكومة مسز تاتشر.. لا هدم كل ما جاءت به.. وعلينا أن نكون واضحين وفاهمين لما أحسن فيه المحافظون وأجادوا..».

الكتاب يتألف من ٢٧٤ صفحة إذا قرأته، فلن تجد فيه إشارة واحدة عن شىء أخطأت فيه حكومة المحافظين.. وعليك أن تخوض (خلال القراءة) فى عبارات فضفاضة وشعارات مطاطة لا تتبين فيها أى شىء من سياسة حزب المحافظين يمكن التخلّى عنها..وكأن حزب العمال الجديد ليس إلا امتداداً لحزب المحافظين وتأكيداً لسياسته.. ويمكن أن تفهم من خلال السياق العام الحقائق التالية:

جميع القوانين التى اتخذتها حكومة المحافظين ضد اتحادات العمال قوانين تستحق الثناء ولا غبار عليها..

خصخصة الخدمات أثمرت تحسينات ملحوظة وبعضها زادت إنتاجيته..

بعض الخدمات التى تمت خصخصتها مثل البريد والغاز ارتفعت إلى المستوى العالمى الذى يستحق الفخر به...!!

إنه لا يجب إعادة الشركات التى تمت خصخصتها إلى الملكية العامة..

يؤمن المؤلفان إيماناً مطلقاً بآليات السوق التنافسية.. وهما مهتمان بأن تجد حكومة حزب العمال وسائل لتدعيم اقتصاد السوق... والخلاصة النهائية أنه لا تأميم ولا اشتراكية ولا يحزنون...!!

يروّج الكتاب لفكرة أصبحت حجر الأساس لسياسة حزب العمال الجديد الاقتصادية.. وهى المزاوجة فى المشروعات بين القطاعين العام والخاص.. وأنه ليس للحكومة أن تتدخل فى الاقتصاد ولا أن تشترى جزءاً من الاقتصاد ليبرر تدخلها للسيطرة أو الضبط على الشركات أو المؤسسات المالية.. (لاحظ أن هناك الآن تراجعاً تاماً عن هذا الخط الرأسمالى المتطرّف بعد الأزمة الاقتصادية العالمية)..

أما المؤلفان فيعتقدان أنهما بفلسفتهما إنما يبشران بمجتمع مثالى تتحقق فيه الكفاءة والعدالة الاجتماعية معاً.. ولكن كيف يكون هذا من الناحية العملية..؟ لا إجابة على هذا السؤال وإنما هناك تأكيد دائم على كلمة سحرية متكررة: الاستقرار.. الاستقرار..! فلا شىء ذا فائدة يمكن تحقيقه إلا بالاستقرار الاقتصادى..!

وهناك حماس منقطع النظير أن تتجنب حكومة العمال أى إجراء يعكر مزاج الأثرياء وأصحاب القوة الاقتصادية والمالية، ونقد شديد لمواقف حكومات حزب العمال السابقة تجاه القضاء على الجريمة.. ومن ثم اقتراح بوجوب تشديد العقوبات وتدعيم السجون.. (تحسّباً لظهور اضطرابات عنيفة من جانب العمال..).

وفى النهاية سوف يذهل القارئ الذى لديه قدرة على مواصلة قراءة هذا الكتاب للمدى الثورى الذى يقترحه.. فإن بناء الفكر النظرى لحركة العمال البريطانية وإنجازاتها فى مائة عام تقريباً تنقلب فى هذا الكتاب رأساً على عقب.. وليس أدل على ذلك من الدور الذى رسمه الكتاب للحكومة العمالية التى انتخبها الشعب وهو دور يمنعها من أن تتدخل فى الاقتصاد لصالح الذين انتخبوها وإنما لتدعيم الأغنياء والأقوياء وتقصر نقمتها وسيطرتها على الناس الذين يعيشون فى قاع المجتمع.. وبهذا الدور كان التأثير على العملية الديمقراطية مدمّراً..

نعم.. قد تستطيع العملية الانتخابية تغيير الحكومة ولكن أى حكومة عمالية منتخبة على أساس فلسفة «مندلسون» و«ليدل» لا يمكن أن تعد بأى تغيير أو إصلاح حقيقى.. وقد حاول اثنان من دعاة الاشتراكية فى حزب العمال تنبيه الحركة العمالية إلى خطر ما هى مقبلة عليه جرّاء سياسة تونى بلير الجديدة.. إنهما «كن كوتس» و«مايكل باريت» فى كتاب نُشر لهما سنة ١٩٩٦ بعنوان The Blair Revelation (انكشاف بلير).. نزعا فيه عن «مندلسون» و«ليدل» الهالة التى أحاطتهما بها وسائل الإعلام وكشفا تدليسهما وزيفهما الفكرى.. كما نبّها إلى بدايات الانحراف الذى ظهر على الحزب منذ عهد جون سميث.. ولكن تحذير القلّة الواعية من أصحاب التوجّه الاشتراكى فى حزب العمال ضاع فى خضم الرغبات العارمة للكثرة التى تشبثت بأمل جديد فى الفوز بالانتخابات بعد حرمان طويل خارج السلطة بلغ ستة عشر عاماً هى مدة حكم مارجريت تاتشر.. وبدأت عملية إغواء للقيادات العمالية باحتوائهم فى جنة الرأسمالية ليذوقوا بعض نعمها.. ففى ١٢ مايو ١٩٩٤ اليوم الذى تُوفى فيه زعيم العمال جون سميث حصلت «باتريشيا هيويت» وكانت السكرتيرة الصحفية لنيل كينوك ثم نائبة لجنة تعديل حزب العمال الجديد.. حصلت على وظيفة مدير مركز أبحاث واحدة من أكبر مؤسسات الاستشارات الصناعية والمالية (أندرسون كونسلتنج)..

وفى صيف سنة ١٩٩٦ عُقد اجتماع فى أكسفورد لمائة من وزراء الظل والقادة من حزب العمال لتحاضرهم مجموعة من خبراء هذه المؤسسة كيف يكونون أصدقاء لرجال الأعمال لا أعداء لهم..

وفى حمى النصر الموعود التى اجتاحت كل ركن من أركان حزب العمال سلم الحزب نهائياً برامجه واستراتيجياته ليرسمها بلير ومندلسون وليدل وبطانتهم...!

وهكذا رأينا الحزب الذى أعلن سنة ١٩٧٩ بأنه فخور بأن يكون اشتراكياً يعلن سنة ١٩٩٧ بأنه فخور بأنه ليس اشتراكياً..!

لم يعد «حزب العمال الجديد» حزباً للعمال على الإطلاق.. حزب جديد حقاً ولكن لا علاقة له بالعمال ولا بمصالح العمال..! وقد كُتب المانفستو الجديد بطريقة أشعرت رجال المال والأعمال بأنه موجه إليهم ومن هنا تداعوا إلى قصعة العمال ليلتهموا وليمتهم الثمينة..!

ومرة أخرى يسقط الاشتراكيون فى وهم جديد: أن هذا الاتجاه الأيديولوجى المستحدث ليس إلا تكتيكاً ذكياً للوصول

«بناء الفكر النظرى لحركة العمال البريطانية وانجازاتها فى مائة عام تقريباً تنقلب الآن رأساً على عقب»

بيتر مندلسون

إلى السلطة ثم يعود الحزب إلى سابق عهده.. ولكن هيهات..! فقد اكتسح العمال صناديق الانتخابات بنصر هائل وأغلبية هائلة سنة ١٩٩٧.. ولكن لوحظ أن بعض من دخلوا على مراكز السلطة لم تكن لهم وجوه عمالية معروفة وإنما وجوه «ليبرال ديمقراط» سابقين، كان منهم: «روجر ليدل» و«بيتر مندلسون» اللذان أصبحا مستشارين (فوق العادة) لرئيس الوزراء لشئون الدفاع والشئون الأوروبية، و«ديريك سكوت» للاقتصاد.. وعدد آخر من المستشارين والخبراء أحاطوا ببلير كما يحيط السوار بمعصم اليد..

بلير يدمّر التقاليد الديمقراطية لحزب العمال:

فى كتاب للصحفى والكاتب البريطانى «جورج مونبيوت» بعنوان: «دولة أسيرة ... Captive state» نشر سنة ٢٠٠٠م، يتضمّن سجلاً بأسماء رجال الأعمال الكبار الذين شغلوا مراكز قوة بالغة التأثير فى حزب العمال الجديد.. ومن بين تأثيراتهم ظهور احتكارات هائلة.. إذ أصبحت شركة واحدة تملك وتهيمن على خدمات الغاز والكهرباء التى تدخل كل بيت فى بريطانيا.. وفى النصف الثانى من كتاب «دولة أسيرة» يصف «مونبيوت» الصراع الخفى بين القوى غير المنتخبة صاحبة المال والأعمال وبين حكومات حزب العمال المنتخبة.. ويناقش أثر حق التصويت فى الاقتراع العام على تطور الحركة العمالية فى بريطانيا.. ويتابع الحكومات العمالية خلال القرن العشرين فيحلل أسباب نجاحاتهم وإخفاقاتهم فى مجال تحقيق الهدف الأساسى المعلن لتحويل بريطانيا من الرأسمالية إلى الاشتراكية.. ثم ينتهى إلى القول بأن هذا الهدف ظل يضمحل تدريجياً حتى أعلن استسلامه النهائى على يد بلير وبطانته.. ويحاجج الجناح اليمينى فى حزب العمال بأن بريطانيا نفسها قد تغيّرت وأن على حزب العمال أن يغيّر سياسته بالتبعية، وأصبحت الأولوية الآن لأى حكومة عمالية عادلة ومهذّبة، أن توازن بين مصالح الأغنياء والفقراء ولا ينبغى أن تكون (بعد الآن) معنيّة بتوزيع الثروة والسلطة..

يقول المؤلف: إن كل ما يراهن عليه بلير الآن هو الاعتماد على كرم وإنسانية الأغنياء فى توزيع الثروة والسلطة وفى إتاحة فرص التعليم والخدمات الصحية.. وبناء منازل مهذّبة للفقراء وتأمين معاشات للعاجزين وكبار السن..! (يعنى عملية تسوّل..!)

وهكذا عادت بريطانيا لتصبح مجتمعاً منقسماً قسمة حادة: بين ملايين كثيرة من الفقراء بلا ملكية ولا كرامة ولا أمل.. محرومون حتى من نتاج عملهم فى الصناعة، وبين قلة ضئيلة تستحوذ على السلطة والثروة جميعاً..

ويرى المؤلف أن هذه القسمة أصبحت تتجلى بوضوح مذهل على الساحة العالمية الواسعة فقد أصبح أكثر من خُمسى سكان العالم يعانون من الحرمان وعدم القدرة على الحصول على ما يسد رمقهم من الطعام.. وأكثر من هذه النسبة عاجزة عن الحصول على ماء نظيف للشرب..

وأن هذه الكثرة الهائلة تعيش جنباً إلى جنب وتحت رحمة قلة قليلة تزداد يوماً بعد يوم قسوةً وثراء.. ولا يتورع هؤلاء عن استخدام ثرواتهم ووسائل إعلامهم وقواتهم الأمنية بل وجيوشهم أيضاً لحماية ممتلكاتهم وامتيازاتهم وسلطتهم الفاشية.. وأبعاد هذا التقسيم اللاإنسانى أكثر من أن يصدّقها عقل.. والقادم على الطريق أبشع وأهول، فإن الهوة بين الأغنياء والفقراء فى اتساع متواصل..!

ويركز كثير من المراقبين على الهوّة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة وهم على حق.. ولكن الهوة بين أغنياء كل دولة وفقرائها أشد وأبشع.. وقد استطاعت هذه القلة الغنية ترويض الأنظمة الديمقراطية والتعايش مع إفرازاتها إذ استطاعت أن تجعل حكوماتها المنتخبة عاجزة.. وجعلت برلماناتها غير قادرة على المحافظة على حقوق الجماهير التى وضعت فيهم ثقتها..!

وأكبر حجة يتذرع بها الأغنياء المحظوظون هى أن الثروة التى يحصلون عليها فى القمة من شأنها أن تنحدر إلى أسفل ليحظى بشىء منها الكثيرون ممن يعيشون على السفح أو فى القاع.. ولكن هذا لا يحدث أبداً لأن الثروة (بقدرة قادر) تندفع كالنافورة فقط إلى أعلى لتبقى هناك فى القمة.. فى قبضة الأغنياء وحدهم ولا تنحدر منها سوى قطرات شحيحة لا تسمن ولا تغنى من جوع..!

لقد أقام هؤلاء الأغنياء فيما بينهم تضامناً حصيناً لحماية أنفسهم رافعين شعار: لكى تحافظ على ثروتك ينبغى أن تتأكد أن البرابرة محجوزون خارج البوابة الحديدية فهؤلاء الذين حرمهم الله من الثروة يجب عزلهم بعيداً عن الأعين ولكن ليس بعيداً عن السيطرة..! ■

كتاب الزاوية

التحدث بنعمة الله

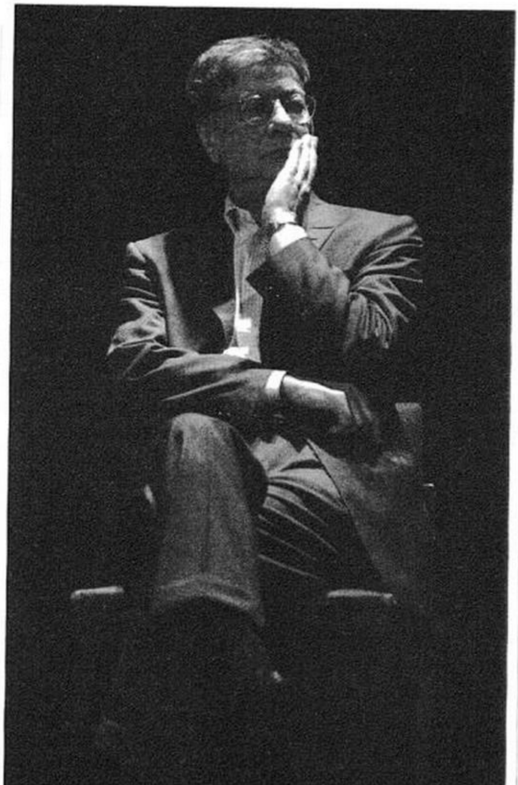
نسب والدى

والدى هو الإمام العلامة ذو الفنون الفقيه الفرضى الحاسب الأصولى الجدلى النحوى التصريفى البيانى البديعى المنشئ البارع كمال الدين أبوالمناقب أبوبكر بن ناصر الدين محمد بن سابق الدين أبى بكر بن فخر الدين عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى. هكذا وجدت هذا النسب فى صداق لابن عم والدى. وأخبرنى ابن عم والدى المشار إليه، واسمه نور الدين على بن جمال الدين عبدالله بن سابق الدين أبى بكر، عن أسلافه أن جدنا الأعلى الشيخ همام الدين كان أحد مشايخ الصوفية وأرباب الأحوال والولايات، وأنه كان فى مبتدأ أمره على طريق غير مرضية، وأنه حج فلما أحرم وقال: لبيك وسعديك، لبيك اللهم لبيك، سمع صوتًا: لا لبيك ولا سعديك. فتاب من ثم وأقلع ورجع إلى بلاده، فأقبل على التزهد والعبادة مدة، ثم حج مرة أخرى، فلما أحرم وقال: لبيك اللهم لبيك، سمع صوتًا: لبيك وسعديك. ولجدنا هذا ضريح بأسيوط يزار ويتبرك به. وأما نسبته بالخضيرى، وهو بضم الخاء وفتح الضاد المعجمتين مصغرًا، فلا أتحقق ما تكون إليه هذه النسبة. وهذا من بدائع قدرة الله أن يعجز العلماء بأنساب الناس عن معرفة أنسابهم ليقفوا عند حدهم ويعترفوا بالعجز والقصور ويقولوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا». وقد وقع ذلك للحافظ الكبير أبى سعد عبدالكريم بن السمعانى، فإنه صنف كتابًا حافلاً فى الأنساب فى ثلاثة مجلدات ضخمة، بين فيه أنساب العلماء لماذا هى، لقبيلة أو جد أو بلد أو غير ذلك. وعجز فى نسب نفسه فلم يدر السمعانى نسبة لماذا.

البحث عن محمود درويش فى كردستان
البحث عن كردستان فى محمود درويش

امتياز دياب

«بين ريتا وعيوني.. بندقية»



[١]

أفاقت مدينة السليمانية وجبالها ما زالت محتفظة بغطاء رقيق من الضباب، بدأ بالتبعثر مع زحف أشعة الشمس، التى ما زالت مبتلة بأمطار تشرين. اغتسلت سطوح البنايات الإسمنتية التى بنيت على عجل، بفضل قانون النفط مقابل الغذاء.

جلس فرهاد على طاولة مع رجلين، كان أحدهما يتصارع مع حبة برتقال، رفضت الاستسلام لسكين غير ملائم لقشرة طرية وقديمة، كانوا يتحدثون عن قانون تعدد الزوجات، مرره للتو برلمان إقليم كردستان، الذى يشترط على الراغب فى زوجة ثانية أن يثبت أن زوجته مريضة وغير قادرة على ممارسة حقوق الزوج أو أن تكون عاقرا. انفجرت البرتقالة بين يدى هيوا، وانتشر عصيرها على يديه ووجهه وثيابه، ولعن الفنادق فى الشرق، التى تدعى أنها خمسة نجوم، وهى لا تساوى نجمتين فى أوروبا.

ثم نظر إلى كومة من الملاعق والشوك، وضعها أحد الخدم فى وسط المائدة، وكأنها ذاهبة إلى التنظيف، وقال: أتوا بمدير من لبنان للفندق، ولكن ما أبعد مستوى الخدمة عن لبنان.

عرفنى هيوا على الرجلين فى وسط الحديث، وكأنى وصلت للتو.

انتهت أغنية (على باب الله يا صنايعية)، وتبعتها أغنية (ريتا) لمارسيل خليفة. قال الرجل الثانى الذى عرف بنفسه قائلاً أن اسمه سواره: هذه الأغنية من كلمات محمود درويش، هل تعرفينه؟

قلت: «طبعاً اعرفه».

ثم انطلق سواره يحدثنى بعينين حادتين صغيرتين، توسطتا وجهاً نحيلاً: «كنت اعتقد أن محمود درويش كردى»، وعندما رأى نظرة الاستغراب والدهشة فى عينى، قال: «بدأت قراءة محمود درويش عندما كان عمرى اثنى عشر عاما، كان صعبا على أن أدرك أن هناك من يعانى مثل الشعب الكردى، فاعتقدت أنه تحدث عن عذاب الأكراد، وفى ذات يوم، وعندما كان عمرى ستة عشر عاما، كنت فى سوق الكتب فى طهران، رأيت كتابا عليه اسم محمود درويش، ولكن باللغة العربية، فسألت البائع، «لماذا كتب على الكتاب باللغة العربية؟ قال لى حينها: لأن محمود درويش عربى من فلسطين».

سكت سواره عن الحديث، ونظر فى عينى وانتظر، ثم قال لى همساً، بكلمات من قصيدة درويش:

«بين ريتا وعيونى .. بندقية».

ثم انحنى ليلتقط حقيبته، وأخرج جريدة عليها صورة محمود درويش، فتحها بين يدين مرفوعتين لكى أرى بوضوح، ثم قال لى : «هل تعرفين شيركو بيكه»؟ ودون أن ينتظر الإجابة، أردف: «شيركو هو محمود درويش الأكراد، كتب هذه القصيدة فى رثاء درويش».

وبحماس ترجم لى:

لماذا مات هذا النهر فجأة؟
لماذا اسودّ تل الزعتر هذا فى طرفة عين؟
لماذا ؟ سقطت قصيدة البدر المتلألئ
من سماء حيفا وغرقت فى البحر واختفت؟
يا ترى!

ثم نظر نحو هيوا وقال: «يمكن لهيوا ترجمة الباقى لك أفضل منى».

لكنه تابع الترجمة وقال:

من هنا
وعلى هذه الأرض المنكوبة لكردستان
من هنا
ومع تبرعم وتساقط أوراق شعرنا
من هنا
وفى هذه الأمسية من شهر أيلول
تذكرت محمود درويش.
يا ترى!

نظر فرهاد متسائلا: «هل تريدين اللقاء مع شيركوبيكه»؟

[٢]

التقيت كاكا شيركو بيكه مرتين، مرة فى مكتبه، ومرة ثانية جاءنى إلى الفندق لنذهب إلى تناول العشاء معاً.

فى المرة الثانية، قلت له مازحةً: «عندما التقيت بك فى المرة الأولى، أهديتنى قصيدة، ولم تكن تعرفنى، هل كتبت لى قصيدة بعدما عرفتنى»؟

سحب من جيب سترته ورقتين، فتحتهما، وقرأت الجزء الأخير :

أنا من الجيل الذى تربى فى السبعينيات على كلمات الشاعر. وكانت قصيدة «سجل أنا عربى» تمثل لنا نحن تلميذات وتلاميذ مدرسة طمرا الابتدائية من قرى الجليل الغربى، النشيد الوطنى السرى الذى تنساب موسيقاه فى قلوبنا وعقولنا وضمائرنا كلما سمعنا النشيد الوطنى لدولة إسرائيل.

وجاء وقت تعرفت فيه شخصياً على الشاعر فى أوروبا، بعد أن عملت فى مهنة الصحافة وانتقلت من فلسطين إلى جنيف فى سويسرا. وجاء وقت شجعنى فيه الشاعر على متابعة تسجيل اللقاءات التى أجريتها، والانطباعات التى عشتها ، فى فلسطين أيام الانتفاضة الأولى عندما قام بنشر تلك الانطباعات فى مجلة الكرمل.

وجاء وقت قام بنشر ما كتبته من لقاءات وانطباعات عن أيام الانتفاضة الأولى والثانية فى مجلة الكرمل.

ثم جاء ذلك اليوم من حزيران الذى كنت فيه فى الجليل وشهدت فيه وداع فلسطين للشاعر.

بعد ذلك بأيام ، وعدت بكتابة مقال للعدد الخاص الذى تصدره إحدى المجلات الأدبية عن الشاعر. وبعد أيام أخرى قررت ألا أكتب ذلك المقال.

وفى أكتوبر الماضى سافرت إلى كردستان العراق فى مهمة صحفية. وفى تلك الرحلة مارست عادتى فى تسجيل لقاءاتى وانطباعاتى بشكل يومى ، وفيما يلى جزء مما كتبت.

أكتب بورقة عشب
فاقرأ غابة.
أرى قطرة مطر
فأسمع زمجرة بحر.
فى كفى حبة قمح
وفى روحى بيادر.
أحمل شعرة من ضفيرة حبيبتى
وبجانبى المحبة
عندى بيت واحد من شعر (نالى)
وأملك كردستان كلها!

كان مطعم أبو سناء مزدحماً، عندما لمحوا شاعر كردستان، وقف معظمهم احتراماً، رفع يده بالتحية دون أن ينظر لأحد بشكل خاص، تبعته رافعة يدى بالتحية وكأنى نجمة مثله، ونظرت إلى الوجوه بإصرار لا أدرى كنهه، لم ألمح وجه امرأة واحدة. عندها لحقت به على عجل. وبسرعة البرق، جهزوا مائدة أنيقة، فى ركنٍ بعيد نوعاً ما، جلسنا على زاويتين متجاورتين.

نظر شيركو نحوى بعينين مبلولتين، وقال لى بعد أن لمس شارباً كان أشقر، أو صار أشقر:

«تحملنى غيمة بيضاء، وتنقلنى إلى الأنفال، وكنت أرى الفتيات والشباب المطمورين تحت التراب، وأرى القمر فوقهم، أرى عذابهم حياً بلحمه ودمه، لم يصل ألم الأنفال إلى العالم العربى وكأنهم رأوا حلماً عادياً، إن ألم مذبحة الأنفال لم يختلط بقلوب الآخرين».

أشعل كاكا شيركو سيجارة للمرة العاشرة فى ظرف دقائق، ثم مال علىّ وهمس بشعر لمحمود درويش: «نسيت أننى قُتلت».

«كانت أمريكا تقول بأن الأنفال من صنع إيران، أمريكا عملت لصالحها، ومصلحتها مع صدام. أمريكا ما زالت تعمل لمصلحتها». «ملف القضية الكردية مفقود، أوباما مهم، لكن السياسة الأمريكية لا تنظر فى القضايا الإنسانية، سواء القضية الفلسطينية أو الكردية».

جاء النادل وغير المنفضة بأخرى نظيفة، وأراد أن يملأ كأس كاكا شيركو ، لكن كاكا صرفه عن ذلك، فانسحب معتذراً.

وضع شيركو يده على يدى التى كانت تمسك بالقلم، وقال لا تكتبى، لم الكتابة؟ دعينا نقرض الشعر، لكنه أضاف: «هناك قضايا لم تحسم بعد، مسألة كركوك، كركوك هى قدس العراق، ومسألة دولة كردية، كردستان ليست سليمانية ودهوك وأربيل، بعد الحرب العالمية الأولى قسمت المناطق بين النفوذ الفارسى والإنجليزى والتركى، كانت الموصل تابعة للدولة التركية، وألحقت بالعراق قسراً، كل هذه التقسيمات تمت بإشراف عصبة الأمم».

ثم نظر شيركو نحوى متسائلاً، «لماذا يعتقد العرب أن كردستان جزء من العالم العربى؟».

لا ينتظر إجابتى ويسترسل، «أنا لا أومن بالمقاومة المسلحة، أنا أومن بالحوار والتوافق. أنا مع الحوار الفلسطينى - الإسرائيلى، يعيبون على الأكراد علاقاتهم مع إسرائيل، بينما هذه العلاقة لا يختلف مستواها عن العلاقة المصرية أو الأردنية مع إسرائيل! هل هذا حلال لهم وحرام علينا؟»

على صوت أم كلثوم (أعطنى حريتى أطلق يدىّ، إننى أعطيت ما استبقيت شيأ).

علت أصوات طربت لصرخة كوكب الشرق، استدار شيركو ونظر حوله مبتسماً وقال: «إن الذين لا يحبون أم كلثوم، ما هم إلا أغبياء القلوب».

انتظر شيركو حتى خفتت الأنات، وتابع: «المثقفون العرب يعتبرون الأكراد جزءاً من الوطن العربى، وهذا فكر محدود، عشرون مليون كردى فى تركيا، ثمانية ملايين كردى فى إيران، ومليون فى سوريا، وأربعة ملايين فى العراق، أى أربعين مليون كردى، صدام وأد ودمر ودفن وذبح مئات الألاف كانوا يعيشون فى أربعة آلاف وخمسمائة قرية، دمرها، وحرق الجبال، حشر ما تبقى فى مجمعات سماها بالمجمعات العصرية، كان عليه تسميتها، مجمعات قسرية، أين كان المثقف العربى حين ذاك؟ وأين هو الآن؟».

اعتقدت بأن شيركو بيكه سيتهاوى أمامى، أسند ظهره على مقعده، وأنصت بأذنه نحوى، بحثت عن شىء لأقوله، وأثناء بحثى، أسعفتنى أم كلثوم: «واعرف حكايات مليانة آهات.. ودموع وأنين».

أغمض عينيه، وكأنه يغفو، لكن، وكأن شفتيه تمتمتا مع ام كلثوم:

يا ما ظلمتو الحب وقلتو وعدتو عليه،
مش عارف ايه...
العيب فيكم، يا فى حبايبكم
أما الحب؟! أما الحب؟! يا روحى عليه.. يا روحى عليه».

ودون أن يفتح عينيه قال: «العرب يعرفون لوركا، ولا يعرفون شاعراً كردياً واحداً، لا يعرفون شيئاً عن الفن الكردى».

ثم فتح عينيه، وقال وكأنه ما زال يتمم كلمات أغنية الأمل لأم كلثوم: «جميع المآسى التى حصلت فى منطقتنا تأتى من الأيديولوجية المتطرفة، الشمولية، ولهذا لن نتوصل إلى أفق رحب، السبب هو الفكر، وليس فى الأشكال الأخرى، فى إيران يقولون كلنا إيرانيون، وفى العراق يقولون كلنا عراقيون، لكن هل هذه هى الحقيقة؟»

صمت شيركو، وأحرق سيجارة بأكملها، قبل أن ينظر لى فى عتاب ويقول: «قصائد الشعراء الأكراد تتغنى بفلسطين وبمحمود درويش، أين كانت الأقلام المناضلة فى مذبحة حلبجة؟ وهذه نقطة سوداء فى تاريخهم، والسؤال: لماذا أنتم صامتون؟ والصمت للأديب والمثقف هو قبر».

قلت لشيركو مدافعة: «محمود درويش كتب ليس للكردى إلا الريح».

رد شيركو: «باللغة انتصرت على الهوية».

قلت للكردى: «باللغة انتقمت من الغياب».

فقال: «لن أمضى للصحراء».
قلت: «ولا أنا...»
ونظرت نحو الريح:
- عمت مساء
- عمت مساء!

واستدرك شيركو بيكه «ليس الجميع، سعدى يوسف، هادى العلوى، هناك الكثيرون الذين رفضوا الصمت، لكن هناك الكثيرين فضلوا الصمت، نزار قبانى لم يكتب جملة واحدة عن الجرائم التى ارتكبت ضد الشعب الكردى، أنا أيضا أوجه الانتقاد إلى الحكومة الكردية بأنها لم تترجم الأدب الكردى إلى اللغة العربية».

«لماذا أصبح الكردى أقرب للمثقف الألمانى منه إلى المثقف العربى»؟ سألنى شيركو.

إلا انه أجاب على سؤاله بنفسه «فى المهرجانات التى تقام فى مصر، لا يدعون شاعراً كردياً واحدا، حتى سليم بركات لم يدع، مع أنه كتب باللغة العربية، وهو كاتب رائع».

فرغ المطعم من زبائنه. لم يكن فى المطعم سوى أم كلثوم التى قالت: «ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم.. بعد أن عز اللقاء.. وإذا أنكر خل خله....»

قال شيركو وهو ينهض «ربما هناك.. فى كل بلد محمود درويش آخر، محمود درويش كردى».

أجابته أم كلثوم: «ومضى كلٌ إلى غايته.. لا تقل شئنا فإن الحظ شاء....»

[٣]

وقفت بنت كردية، تحت ضوء القمر الذى اتكأ على كتف جبل، ولون أكواخ القرية البريئة، أشعلت عود الثقاب فالتهم ثوبها الكردى المبلول بالنفط.

رفرفت طائرة ورقية فوق اللهب، اختطفت روح الجميلة الكردية، وناولتها هدية للقمر، الذى اشتد ضوؤه وتحول إلى شمس، أيقظ سكان الأكواخ الذين تركوا براءتهم فى مخادعهم.

وسألوا ما الخبر؟

قال الأب: تمرد قلبها عليها.

قالت الأم: أراد لنفسه بنتاً مثلها، فقدمها مهراً لأب مثله.

قال الحبيب: الموت لا يعنى لنا شيئاً، نكون فلا يكون.

قال الأب: النسيان ضرورى لذاكرة المكان.

قال الحبيب: الموت لا يعنى لنا يكون فلا نكون.

هذا ما فهمته من فيلم كتبه وأخرجه المخرج الكردى هالكاوت، من بغداد.

«ازدادت حوادث الانتحار بين الصبايا الكرديات، وما أن يهرعوا لمنعها من تمرد قلبها عليها، أو من مقايضتها مقابل صبية مثلها، لتعة والدى الصبيتين، حتى يشتعل عودا ثقاب فى ثوبيهما. ويبقى الحبيب ليحكى قصة الموت على طريقة محمود درويش».

عاد هلكوت من المنفى، ليحكى فى أفلامه قصة موت آخر، لا وقت لأحد ليحكيه للآخرين، ولا مجال فى النشرات الإخبارية لهذا النوع من الموت فى العراق.

رنا هلكوت نحو شاب



وشابة جلسا فى إحدى زوايا المقهى، تشابكت يداهما تحت الطاولة على عجل، بحثت الصغيرة بعينيها لتتأكد بأن أحداً لم يلتقط تلك اللحظة العجولة. لم تلحظ هلكوت الذى سارع ليلتفت نحوى قائلاً: «يخافان الفرح».

نظرت بدورى متلصصة على لحظة حب، تعلقت بين وجهين هائمين على صوت غناء تارا جاف تصاحبها قيثارة:

(هى اران ياران ، دوس ياردنى دى...
يارو نازارام بى نيشان ديدياً).
يا حبى الجميل، يا حبيب الروح
أحلامى فى الليل لا ترتاح دونك
عندما أفكر بك أنوح مرة أخرى..

تنهد هلكوت ، وحول نظراته نحو جبل أزمر، وقال فجأة: «أحن إلى قهوة أمى.. فى صباح بغدادى عادى».

«عندما كتبت هذه السطور مما استذكرته مع هلكوت ، جاءنى خبر وفاة والدته فى بغداد».

[٤]

شوانه ديى لدروازى هوشم أديت
تأتين فى الليل، وتطرقين باب إحساسى

أنشد سامان على جيتاره حزينا على فراق حبيبته، عندما كنا نسير على طريق دوكان، بمحاذاة جبل بيره مكرون. عبرنا أمام قلعة سوسى، التى حولها الأمريكان إلى سجن، هرب منها سبعة أشخاص، ولم يجدوا مكانا للاختباء، فى السهول التى ترامت حول القلعة عند أقدام جبل سارة، ماتت قرى السهول التى سكنت هنا حرقاً.

وغنى شيركو لهذه السهول:
(إنها قصيدة ترتدى الحداد فى تابوت ابنها، وتنام).

تململت سارة فى مضجعها، وتدحرجت منها دمعة لدى سماعها موسيقى(كوردو)، الذى أنت جيتارته بلحن فردى، وشجا صوته باكياً يقول: «كلما قصرت المسافة نحو سارة، انتفض القلب خشوعاً». لذلك الحب الذى اندفن عند أقدامك.. سارة.

دارت الطريق بعد قمة سارة، وتغير المشهد، حيث جلست تلال وكأنها ملفوفة حول بعضها، طلباً للدفء. ثم حاذينا جبل كوسرت،الذى سبقنا إلى قمته متسلقاً صوت شفان:

«إيه يا فرات أى فرات
سر كما أريدك
اجر كما أريدك
أنت تريد الحرية مثلى»

عندما وصلنا إلى خلكان، تسارعت أصابع شفان على البزق وقال:

وايلى مى .. وايلى مى.. وايلى مى
يا ويلاه، يا ويلاه
دابرارابن.. دابرونن
انهضوا.. تقدموا
سارفراسكن.. راى ازداى
ارفعوا راية الحرية

فتح جبل جناروك ذراعيه، وكأنه يريد حماية جبل هيبة سلطان، الذى التحم بظهره تماما.

وقف جنين فى حديقة المطعم، التى أشرفت مصطبتها على مدينة رانية، عند أقدام جبل قنديل.

لم يكن فى المطعم أحد، وكأنه مهجور، جلست وجنين على طاولة فى طرف المصطبة، سألنى جنين بعد الكثير من الصمت، لماذا أردت لقائى؟

قلت له وأنا شاخصة بنظرى إلى قمة قنديل: لكى أسألك، لماذا سموك جنين؟

نظر جنين نحو الجرف الذى يفصلنا عن قنديل، وبصوت طيب قال:كان أبى جندياً فى الجيش العراقى، ذهب مع الجيش العراقى إلى فلسطين عام١٩٤٨ ، كان فى جنين عندما وصلته برقية من أربيل تبشره بخبر مولدى، وأرسل لهم بأن يطلقوا على اسم جنين، إحياء لذكرى تحرير المدينة. وصمت جنين، واعتقدت بأنه سينهض ثم يذهب، ثم بحث فى جيبه قليلاً، فأخرج هاتفه المحمول، وتحدث بالتركمانية، وعندما رآنى أنظر إليه متسائلة، قال لى دون أن يضع يده على السماعة، هذه ابنتى، ثم عاد للحديث بالتركمانية، دقيقة وأغلق هاتفه وهو يقول: ممنون.

يا أخى الثائر، ردد جنين: «أخى الثائر، قصيدة محمود درويش التى مدح فيها الأكراد».

سألت جنين عن سبب حديثه باللغة التركمانية وليس بالكردية، قال بابتسامة أختصرت عشرات السنين من سنين عمره الستين: أنا كردى متزوج من تركمانية، عندما اجتمع مع أبناء عمومتى، نجلس ولا نجد لغة توحدنا جميعاً، منهم من لا يعرف الكردية، أو لا يعرف العربية ويتحدث باللغة الأشورية. كانت دراستنا باللغة العربية، وبالكردى السورانى، الآن يستعملون فقط اللغة الكردية، لكن مع مصطلحات لاتينية.

دقق جنين النظر فى أوراقى ، وتردد لحظة قبل أن يقول: شكراً لياسر عرفات.

وعندما لاحظ أننى لم أفهم عما يتحدث، قال: «ياسر عرفات، هو الذى رفض مناقشة مشروع ترحيل الأكراد، وإرسالهم إلى السودان، كان ذلك ربما فى القمة العربية الثانية، قال ياسر عرفات (لا نريد مناصرة الشعب الفلسطينى وتدمير شعب آخر). أنا عرفت ذلك لأننى كنت أعمل فى وزارة الإعلام، لكننى تقاعدت فى عام ١٩٨٥، بعدها طورت الإذاعة وتليفزيون المستقبل فى كردستان، بمساعدات من فلسطين».

وقف جنين منهياً اللقاء، وقال: «يجب أن أعود للبيت الآن، مشى عدة خطوات ثم عاد وقال «حرام ما يحدث للفلسطينى فى العراق، حرام أن يتشردوا الآن فى الصحراء، كان صدام يستعملهم، أكثر مما خدموه. الأكراد استفادوا من علاقاتهم مع الثورة الفلسطينية، جميعهم تدرب هناك، وعن طريقهم كانت تأتى الأموال إلى بشمركة الجبال، حرام ما يحدث لهم الآن، على الحكومة الكردية أن تستضيفهم فى كردستان، لكى تشكر ياسر عرفات، على الأقل».

قال لى جنين: ذهب أبى مع الجيش العراقى إلى فلسطين عام ١٩٤٨، كان فى جنين عندما وصلته برقية من أربيل تبشره بخبر مولدى، وأرسل لهم بأن يطلقوا على اسم جنين، إحياء لذكرى تحرير المدينة

فى كل منفى من منافيهم بلاداً لم يصبها أى سوء..

صنعوا خرافتهم كما شاءوا، وشادوا للحصى ألق الطيور

وكلما مروا بنهر... مزقوه، وأحرقوه، من الجنين..

وكلما مروا بسوسنه بكوا وتساءلوا: هل نحن شعب أم نبيذ
للقرابين الجديدة؟

رواندوز، مصيف رواندوز، مقابل جبل كورك، ومن وراءه على مدى البصر جبال زوزك وهندرين وخلف كورك شلال بيخال، نزل كامران حافى القدمين ورقص تحت المطر، ونظر إليه رومان وفرهاد و هيوا سعداء بسعادته الطفولية، توقف كامران عن الرقص فجأة وهرع إلى آلة التصوير، ووضع عدسة هائلة الطول، أسند العدسة على كتف رومان وكأنها آربى جيه، وبدأ بتصوير القمر،الذى اعتلى نهاية الجرف المطل طريق هاملتون. كان هيوا يشير بيده إلى كل الجهات على الطريق القديم لهاملتون، وكأنه لا يريدنى أن اغفل عن أية بقعة من جباله التى عشقها، وسكن قممها والده، عندما كان مع البشمركة، يترك مقود السيارة ليتأكد من أننى نظرت بالاتجاه الصحيح،وأنا أصاب بالدوار، لم ينتبه على لونى المصفر تماما،وذلك لدواعى سروره باهتمامى بجمال الجبال.

اقترح رومان بأن نقضى ليلة أخرى فى رواندوز.

تدفقت القصص من فم فرهاد، أحيانا أتابعه، وأحياناً لا أملك ذلك،أسمعه يقول ونحن على حافة خطرة، هنا قتل سعيد عبد الله، أول شهداء سوران، من البارزانيين الذين يتعممون بالعمامة الحمراء.

أما عندما قلت له، بأن جبال كردستان هى أجمل من جبال سويسرا، وكنت صادقة فى ذلك، عندما شرحت له بأن جبال سويسرا هى حقاً أجمل بقاع الأرض، لكن إذا سكنتها، أو جلست مقابلها، تنسى أنها موجودة بعد فترة، لأنها مثل الجميلة الصامتة، بينما هذه الجبال بإمكانى الاستماع إلى أنفاسها، وكأنى نمت ليلة على الشاطئ، وصوت الأمواج يهدهدنى، وهذه الجبال لها صوت هدير البحر. قال لى فرهاد بكل صدق: «أنت مثل الوطن».

ثم تابع هيوا محاولاً ألا يهول الأمور،لكن صوته خانه، وعلا صوته قليلاً، وكأنه الناطق باسم جبال كردستان:

«على هذه الجبال الساحرة، على هذه الجبال القاسية ببردها بوعورتها، وشلالاتها المتجمدة، وثلجها المتجلد، شرد ثلاثة ملايين إنسان، تركوا المدن لتسكنها

الأشباح، صعدوا الجبال، بعد تحرير قصير للبيشمركة للمدن الكردية، الذين استغلوا حالة الوهن التى أصيب بها جيش صدام، بعد فشله فى احتلال الكويت.

جاء انتقام صدام، دموياً، وسقط عشرات الآلاف، من الجوع، من البرد، من المرض، من على الكيماوى،، ودون أن يتوقف هنيوا لأخذ أنفاسه استطرد فرهاد: «استمر العذاب والخوف حتى معركة كورى، على مضيق كورى، وانهزم صدام وأوقفت دباباته».

سكت فرهاد عن الكلام، وأدار لى ظهره، ونظر نحو طريق الألام طريق هاملتون، وقال بصوت خفيض، لكنه واضح: «أنا حبة القمح التى ماتت.. لكى تخضر ثانية وفى موتى حياة ما».

ثم زفر مرة أخرى وقال: وأنت تعود الى البيت بيتك..فكر بغيرك

وأنت تعود إلى البيت بيتك..فكر بغيرك

«أنا فكرت فى فلسطين عندما كنت عائداً إلى البيت»

ركض القمر وراءنا، اختفى أحيانا وراء غيمة مبعثرة، صدح صوت هاشرى متأوهاً:

لا أريد من الحب غير البداية

يغفو الحمام..

بدا شبح مجمع بيرد مكرون، ينظر إلى جبل سارة التى احترقت فى المنام، عندما غنى عزيز:

أكريم بوبختى خوم..

أبكى على حظى.

وتلاعبت الرياح مع أنفاس الجبال، التى خلت سماؤها من العصافير، مرت سحلية تائهة، نظرت قليلاً نحو المنحدر، ثم اختفت فى ثقب، لم يرغب أحد بإزعاج الصمت، وسارت السيارة بهدوء نحو المنحدر.

[٥]

مطعم مظلم فى مدينة أربيل،خلى من النساء، كان الزبائن يتحدثون همساً، كما هو الحال فى جميع أنحاء كردستان،اعتقدت فى البداية أن سمعى قد خف فى هذه البلاد، ولكن حين سمعتهم يردون على كل سؤال أسأله بهشش، أنتبه بأن هذا يعنى أننى تحدثت بصوت أعلى من المسموح به فى كردستان.

قال (زهير وهو عربى عراقى) بصوت أعلى من صوت رامان يرد على تذمره من فقر طلابه للمعلومات العامة، حتى إنهم يعتقدون بأن تشيه جيفارا لاعب كرة: «قل لهم بأنه مقتدى الصدر أمريكا اللاتينية». انفجر الجميع ضاحكين، لفتت قهقهاتهم أنظار الجالسين فى المطعم. سارع رامان بإطلاق الهشهشة مرة أخرى، وقال» غريب بأنهم لا يعرفون تشيه جيفارا ولكنهم يعرفون محمود درويش! . ربما هذا يعود لأن شعار المقاومة الكردية هو الأدب الفلسطينى. الشباب هنا لايعرفون الشعر الجاهلى. بينما الجميع يعرفون محمود درويش ومارسيل خليفة.

قال زهير: «معاناة الفدائى الكردى شابهت حياة الفدائى الفلسطينى. الفرق بينهما، هو أن معاناة الفلسطينى كانت فى الساحل. بينما معاناة الكردى كانت فى الجبال».

التقط د. أحمد الحديث: بين اربيل والسليمانية موجود مائتان وخمسون ألف فلسطينى. قال كاكا مسعود البارازانى، بأن أى فلسطينى فى كردستان هو ضيفى. كنت يوماً فى بيت عبد الرازق، سمعت ابنه يدندن بأغنية أحن إلى خبز أمى، فسألته هل تعرف مارسيل خليفة؟ فقال لى لدى جميع أغانيه وغنى لى سجل أنا عربى، أنا هنا أعامل باحترام أكثر من أى بلد عربى ذهبت إليه فى حياتى».

مال على د. أحمد وهمس: «أرجو ان لا تذكرى اسمى، أنا هارب من بغداد، بعد أن قتل زملائى الأطباء، وكنت آخر من هرب، أتانى شخص ونصحنى بترك بغداد، لان الميليشيات تبحث عن الأطباء، وأنا فلسطينى. فهربت ولم يبق فلسطينى واحد فى بغداد، الميليشيات حولت الهوية الفلسطينية إلى جريمة. فى كردستان العراق الحال مختلف،عندما يستقبل مام جلال السفراء العرب، ويصل دور الفلسطينى بالسلام، يقول له أنا كنت فدائياً فلسطينياً».

سألنى رامان: «هل تعرفى بأن صلاح الدين كان كرديا»؟.

ثم أنشد بهمس: هل خرّ مهرك

ياصلاح الدين.. هل هوت البيارق

هل صار سيفك.. صار مارق

ونقول فلتحيا العروبة

مرى اذاً فى أرض كردستان

مرى ياعروبة

جلس سعيد أغا روستى أمير عشيرة بالك ، على كنبة فى غاية الأناقة ببساطتها، فى غرفة تشبه فى أثاثها مطعما فى موسكو الشيوعية، لكن فى بيت رئيس البرلمان الكردستانى. تعمم روستى بكوفية فلسطينية بيشمركية، حجبت جبهته، وأظهرت عينين حادتين لمعتا ببريق ساهم بإضاءة غرفة الجلوس شاحبة الضوء،حمل فى يده سبحة خضراء بلون زيت الزيتون الطازج، بيد حملت تجاعيد ثمانين عاماً على أقل تقدير، وتمنطق بزنار عريض لفه بأناقة حول خصره النحيل.

رطن بالكردية مع عدنان المفتى رئيس البرلمان، الذى لم تختف ابتسامة لا تتناسب وتعابيره الجدية، سألت كنعان عن موضوع المحادثة؟ قال كنعان وهو يبتسم : «يتحدثون عن حق المرأة بطلب الطلاق، فى حال تزوج زوجها بامرأة أخرى، فى ظل القانون الجديد».

سألته ولماذا يهم الأمير روستى هذا الموضوع؟

كنعان: «لانه يريد الزواج من امرأة ثانية، وهو يقول بان زوجته مريضة».

وسألت كنعان ان يسأل روستى، «أى امرأة ستقبل بالزواج من رجل دخل العقد التاسع من عمره، وهل هو قادر جسدياً على ذلك»؟

رطن كنعان بالكردية مع روستى قليلاً، ثم قال لى: «يعرض عليك الزواج، ومهرك بستان مليء بأشجار الفاكهة».

وسألته «وهل يحق لى الزواج من رجل ثان فى ذات الوقت»؟

ضحك روستى متجاهلاً سؤالى، وقال: «مكانك هنا، انهضى معى الى البيت، وإن كنت زوجة لا تقوم بواجبها نحو زوجها، سأتركك».

وقلت له «ألا يعطينى مهلة للتفكير»؟

قال روستى: «على النساء أن يدعن التفكير».

ذهب روستى مع أبنائه الذين ضحكوا من قلب رائق على والدهم الذى طلب يد ضيفة الشخص الذى كان وراء قانون منع تعدد الزوجات، عدنان المفتى .

جلست مقابل عدنان . وسألته عن علاقة كردستان بإسرائيل، وإذا ما كانوا يعتقدون ان الطريق الى امريكا هى عبر إسرائيل؟

اختفت الابتسامة عن ملامح عدنان الجدية، وقال تاركاً سبحته من يده، وكأن جدية الجواب لا تحتمل التسبيح «لا توجد علاقة كردية مع إسرائيل، ربما كان هناك بعض الاتصالات والتى إن وجدت لن تكون بذات قوة العلاقة الموجودة مع مصر أو الأردن. دخل طبيبان إسرائيليان الأراضى الكردية بعد المذابح فى الستينيات، دخلا فى حين لم تأت مساعدة عربية واحدة، ماذا نقول لهم نحن لسنا بحاجة؟ ونحن نموت»؟.

ودون أن يتخلى عن همسه، الذى اضطرنى أن أغير مكانى وأجلس إلى جانبه فى ذات الكنبة تابع همسه». انقطعت العلاقة العربية مع الأكراد مع عبد الناصر، الذى افتتح إذاعة كردية فى مصر.عبد الناصر التقى طالبانى، ومن خلال علاقات عبد الناصر ذهب إلى بيروت، لكن دعم العرب للنظام العراقى أجهض هذا التقارب، وانقسمت الحركة الكردية.لا توجد علاقة إسرائيلية - كردية، الإسرائيليون ربما يدخلون إلى كردستان، مثلما يدخلون الدول العربية، لكن اتحداك أن تجدى إسرائيليا واحداً فى كردستان، وأنا لم ألتق فى حياتى مع إسرائيلى واحد، لكن التقيت ومحمود عثمان، مع ياسر عرفات فى منتصف الثمانينيات فى برلين الشرقية قبل سقوطها بأربعين يوما وكان محمود درويش حاضراً فى الاجتماع ، طلبنا من ياسر عرفات التدخل وان يرى مع صدام إذا ما كان هناك طريق للحوار، قال عرفات بالحرف الواحد هذا متعجرف ومغرور جداً ومع ذلك سأحاول، وبالفعل ذهب إلى بغداد، وأرسل لنا رسالة قال فيها (كما قلت لكم فى لقائنا الغرور هى اللغة السائدة). ثم بحدة تجاوزت الهمس قال عدنان المفتى: «ليس لنا أصدقاء بين العرب، والأكراد بحاجة إلى أصدقاء، لم يبق لنا عند العرب سوى بعض الشعراء، سميح القاسم صديق الشعب الكردى، هناك قواسم مشتركة بين العرب والأكراد.

[٦]

دعانى حماغا إلى حفل لتسليم جائزة أفضل فندق وأفضل مطعم فى كردستان. كان مكان الاحتفال، على بقعة ناصعة الاخضرار، لا يتناسب اخضرارها والجبال الرمادية المحيطة بها، وكأن الحشيش زرع على عجل لهذه المناسبة، انتشرت موائد مع كراسى بلاستيكية بيضاء، جلس حول الطاولات رجالٌ تتوسط وجوههم شوارب كثة، وصلت بين حافتى شفاههم.

على المنصة المرتفعة . حجلن راقصات بفساتين فسفورية الخضار، أمام شباب تمنطقوا بزنانير رمادية، على السراويل الكردية، واعتمروا كوفيات الفدائى الفلسطينى وفدائيى البيشمركة.

بعد التصفيق، زعق رجل فى الميكرفون بالكردية، ثم فجأة زعق بالعربية»: كتب محمود درويش عن الطفل الفلسطينى فى كردستان، وعن الطفل الكردى فى فلسطين»....

وقفت منتصبة أبحث عن محمود درويش، بين الناس ، ثم على منحدرات الجبال، ثم بحثت على قمة جبل سفين، وبدأت أسمع كلمات لم أفهمها لكن ترعد فى صدرى

هايلى فرمانه...هوار

ثم صوت بكاء و أنين يسكن الأحشاء

ويلولو ويلولو

ولول شفان على أوتار السهول المُقتلعة أشجارها وجبالها المُحترقة والموؤود أهلها

وشىء آخر

فرمالى هوار هوار هوار

وتركت كويا تتنهد ببيوتها المطلية بالطين

وهمست مستجدية :

جانى.. جانى

عاد صدى الصوت ليهوى أمام هيبة سلطان

وصهلت الرياح على أوتار شفان،

تركت سارة نائمة وفى حضنها أطفال تلفعوا فى الصمت

وآباء فى انتظار.. على صخور كورك

وأمهات يشهقن فى عويل مبحوح

وأشجار على سفر

وأنهر تبحث عن الغرق

وبحر غير موجود

ومحمود درويش

ينادى عليه شيركو بيكه: يا أخى!

أنا رفيقك «سميح»

ماذا دهاك؟

لم لا تنهض ■

أعوام محفوظ

الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ (١٠ مجلدات)
دار الشروق ٢٠٠٦

■■ فرغت من قراءة المجلدات العشرة الفخمة التى أصدرتها دار الشروق بالقاهرة عام ٢٠٠٦ وضمنتها الأعمال الكاملة للأديب العربى الراحل الأستاذ نجيب محفوظ، وقد اشتملت المجلدات العشرة على كل ما نُشر للأستاذ نجيب محفوظ من كُتب خلال حياته الطويلة، لم ينقص منها إلا كُتيب «مصر القديمة»، وهو ترجمة لكتاب ألفه كاتب إنجليزى ليس بذى شهرة - اسمه جيمس بيكى James Baikie - ونشره عام ١٩١٢.

ولقد أنفقتُ فى قراءة المجموعة بضعة أشهر، ما أكاد أنصرف عنها إلى قراءة شىء غيرها حتى أكرّ راجعاً إليها، أجوس عالمًا من الجمال والمتعة والحكمة يُغرى والجه بألا يفارقه حتى يذره من أدناه إلى أقصاه.

وها أنا ذا وقد خرجت من هذه الحديقة الغناء - وما أحسب إلا أنه سيكون لى إليها عود بعد عود ما أضاء سراج هذا العُمُر - أطوف مع القارئ الكريم - فى إيجاز، غاية الإيجاز - أرجاء من هذا العالم الزاخر القائم بذاته من أدب الأستاذ نجيب محفوظ، وأضع بين يديه بعض ملاحظاتى وخواطرى، ولعل الدارسين لأدب الأستاذ والمعنيين به يجدون فيما يقرأون من هذا الحديث شيئًا من الفائدة ولو نزرًا، من أيما ضرب كانت تلكمُ الفائدة.

مجموعة «همس الجنون» - بشائر الموهبة:

قيمة هذه المجموعة أنها تحوى بعض الأقاصيص القصيرة التى كتبها الأستاذ نجيب محفوظ فى مطلع حياته الأدبية صدر شبابه، وهى آية بينة على موهبة قصصية لا شك فيها، من حيث إن الموهبة القصصية تتضمن - أو يتضمنها - خيال خصب، وسهولة - وكدت أقول خفة - فى القص، ولحظ لأدق تفاصيل الحياة الإنسانية ومفارقاتها، وبراعة فى ضفر الأحداث ونكثها، والمجموعة - عندى - من أجمل ما كتب الأستاذ نجيب من مجموعات قصصية فى حياته كلها وأكثره إمتاعاً.

الروايات التاريخية الثلاث:

وهى روايات «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة»، وقد أصدرها الأستاذ نجيب تباعاً فى بضع سنين، وتجرى أحداثها فى الأعصر الفرعونية، وهى روايات خيالية فى تفصيلاتها تكسو هيكلاً جاسئاً من الواقع التاريخى. ونهج الأستاذ نجيب فى رواياته الثلاث هذه مزيجا من المنفلوطية والزيدانية: فيه من المنفلوطى عبارته المشرقة ذات العذوبة، ومن جرجى زيدان براعته التى عُرفت عنه فى ضفر الأحداث ونقضها.

ولقد أحسن الأستاذ نجيب صُنعاً بأن انصرف بعد كتابته لهذه الروايات الثلاث عن هذا الفن من القصص، إذ إنه فن - على جمال تلك الروايات الثلاث الذى لا يُجحد - لم يكن بالفن الذى يستوفى موهبة هذا الكاتب القصصية، التى بلغت مداها وتمطت كما يتمطى المارد الجبار فى الفن الذى خُلق له الأستاذ نجيب ولم يُخلق لغيره من فنون الأدب، وهو فن القصص الاجتماعى الواقعى.

روايات الأربعينيات - مرحلة التجويد الفنى - مأساة الإنسان:

وهى خمس: «القاهرة الجديدة» - وكان اسمها قبل «فضيحة فى القاهرة» - و«خان الخليلى» و«زقاق المدق» و«السراب» و«بداية ونهاية». وهذه الروايات الخمس - مع الثلاثية - هى روائع نجيب محفوظ غير منازعة، فلو لم يكتب من القصص غير هذه لضمنت له فى الأدب العربى وفى فن القصة خاصة مكانًا علياً.

وميزة هذه الروايات الخمس - فيما أرى - على ما تلاها من أعمال للأستاذ نجيب محفوظ روح الأناة المهيمن عليها، إذ هى روايات تجرى أحداثها وتتضح معالم شخوصها على هيئة تلذ القارئ الشغوف بالأدب، المحترف لهذا الفن العزيز - فن القراءة - أكثر مما تلذه أعمال مثل «اللص والكلاب» و«الطريق» و«السمان والخريف»، التى تهوى فى مجراها هوياً.

ومن هذه الميزة نفسها كانت لهذه الروايات الخمس ميزة أخرى على ما تلاها من روايات هى متانة اللغة وجودة الأسلوب، ولعل هذا الفارق بين هذه الروايات وبين ما تلاها إنما نشأ من أن الأستاذ نجيباً بعد هذه المرحلة كان قد قارب الخمسين من عُمره ثم جازها، فانتابه - كما ينتاب كثيراً من الناس عند بلوغ هذه السن وربما قبل بلوغها - هاجس أن فسحة الزمن التى بقيت له ليقول ما يريد أن يقول ويُبدع ما يود أن يُبدع - أمست محدودة. وأحسب أن عمل الأستاذ الطويل فى كتابة «سيناريوهات» الأفلام السينمائية قد كان له أثر فى هذا التطور.

وهذه الأعمال الخمسة إن يكن بينها من جامع، فلست إخاله إلا عنصر المأساة الذى يرين عليها جميعاً، وإن شئت فقل: ضعف الإنسان أمام سطوة المارد الجبار، مارد القدر، وهو ما يجعل منها روايات واقعية باستحقاق: إذ حياة الإنسان فى جوهرها مأساة لا شك فيها، وختامها مأساة المآسى وهو الموت، الذى تتساوى فى حضرته الرهيبة كل متشابهات الحياة ومتناقضاتها، وتتكافأ فى ظلاله القاتمة كل القيم من أدناها إلى أسماها، أو تصبح كلها لا قيمة! يطمح الإنسان فيجد من الواقع كبولاً على طموحه تلحقه بهذيان المحمومين (طموحات أحمد عاكف وأحلامه فى «خان الخليلى» - طموح محجوب عبدالدايم فى «القاهرة الجديدة» - طموح حسنين فى «بداية ونهاية»)… يُحب فإذا محبوبه يُفلت من يده ليحب سواه (كما أفلتت حميدة من عباس الحلو فى «الزقاق»، وكما أفلتت نوال من أحمد عاكف فى «الخان»، أو يخونه أقبح خيانة (كما خانت رباب بطل «السراب»)، أو هو يجد نفسه عاجزًا عن الحب نفسه بمعناه الذى يفهمه ويتطلبه منه المحبوب، ومنشأة عجزه ذاك ظروف نشئ فى ظلها لم يكن له يد فى صنعها أو مقدرة على دفعها (كامل روبة لاظ فى «السراب»).

أما الموت الذى ذكرناه فهو بطل مقيت من أبطال هذه الروايات جميعها، لا تغيب ظلاله عن واحدة منها - ما خلا رواية «القاهرة الجديدة»: فى «خان الخليلى» يغول الموت أحد أبطال القصة وهو رشدى عاكف، الذى يقضى بعد إصابته بداء السل وهو فتى فى ينع فتوته ومحب فى وهج حبه. وفى «الزقاق» يهلك - بأيدى بعض الجند الإنجليز - عباس الحلو الفتى البائس والمحب الذى عبث به. وفى «السراب» تهلك أم البطلة كامل روبة. وهى من أرق شخصيات نجيب محفوظ وأدناها إلى قلب القارئ - هلكة تحفظ القارئ على البطل الذى قسا عليها قسوة لم تكن تستحقها، كما تهلك زوجه رباب… وفى «بداية ونهاية»، تهلك الفتاة البائسة المحرومة نفيسة مُلقية بنفسها فى غمار النيل، ضحية لمجتمع لا يرحم، ولمقادير قدرت عليها - منها أنها كانت عُطلاً من حلية الجمال - لم يكن بملكها أن تغيرها أو تقفز من فوق جدارها المنيع، ولن يفهم القارئ هذا الإجمال إلا إذا قرأ الرواية فى نصها.

الثلاثية - الفلسفة المحفوظية:

هى روايات ضخمة صدرت فى ثلاثة أجزاء عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧، مع أن الأستاذ

أنفقتُ فى قراءة المجموعة بضعة أشهر، ما أكاد أنصرف عنها حتى أكرّ راجعًا إليها

... الروائية

خالد محمد ياسين أبو الهيجاء



فرغ من كتابتها قبيل انقلاب يوليو عام ١٩٥٢ . ويبلغ عدد الأئمة من شخوص الرواية نحو الأربعين، وتدور حوادثها على امتداد نحو ثلاثة عقود، من أخريات الحرب العالمية الأولى إلى أخريات الثانية. فهى على هذا من نوع الروايات التى يسمونها روايات الأجيال، والتى كان الأستاذ نجيب محفوظ يضرب لها مثلاً من أدبنا العربى الحديث رواية «شجرة البؤس» للدكتور طه حسين، التى أملاها فى لبنان عام ١٩٥٤ .

والجزء الأول من الثلاثية «بين القصرين». وهو أطول أجزائها وأجملها . يبدأ من شهر أكتوبر عام ١٩١٧ وينتهى فى أعقاب ثورة عام ١٩١٩ . وجزؤها الثانى «قصر الشوق». وهو يلى الأول فى الروعة . يبدأ عام ١٩٢٤ وينتهى يوم وفاة سعد زغلول فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٧ . أما جزؤها الثالث «السكرية». وهو أقصر أجزائها وأقلها تلاحماً وأطولها فى الفترة الماضية التى يجرى فيها . فيبدأ من منتصف الثلاثينيات وينتهى عام ١٩٤٤ . وأسماء الأجزاء الثلاثة هى أسماء أحياء قديمة فى القاهرة تجرى فيها أحداث الرواية.

ولا تزال الثلاثية معدودة بين أفضل ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ إن لم يكن أفضله على الإطلاق، والجزء الأول منها هو أفضلها عندى، لأنه الجزء الذى خلص للقص، فلم يكد يعمد فيه الكاتب إلى بسط فلسفة خاصة أو فكرة، على نحو ما فعل فى الجزءين اللذين تلياه.

ففى هذين الجزءين، يعرض الأستاذ نجيب فلسفة فى قضية الوجود، يعرضها من خلال بطله كمال أحمد عبدالجواد الذى لم نعرفه فى الجزء الأول إلا صبياً شكساً ظريفاً. وهذه الشخصية فى الرواية هى - عندى - نقطة ضعفها الكبرى، وذلك أنها قد تظهر. بل لا بد أن تظهر . بمعيار النهج الواقعى الذى كان ينتهجه الأستاذ نجيب فى كتابته لهذه الرواية خاصة شخصية نموذجية، بمعنى أن كل مفكر حر مستنير، يطلع على شىء من الفلسفة، فإن ذلك صائر به لا محالة إلى الإلحاد واحتقار الأديان والهزء بالأنبياء، وليس هذا لعمرى من الحق فى شىء.

وما بالقارئ من حاجة إلى كبير فطنة ليعرف أن هذا الفكر إنما هو فكر الأستاذ نفسه، وذلك أنه عاد فبينه أوضح تبيان فى روايته

الضخمة «أولاد حارتنا» التى كتبها بُعيد صدور ثلاثيته، والتى سنخصها بحديث وجيز.

فهذه الرواية.. «أولاد حارتنا».. تلخص على ضخامتها فى كلمات معدودات: أن الديانات الكتابية - بله غير الكتابية - جميعها أساطير، وأن فكرة «الله» نفسها على هينتها التى جاءت بها الديانات فكرة سخيفة، وأن العلم هو دين هذا الزمان الذى لا دينَ غيره، والذى قضى، أو ينبغى أن يقضى - على سخف الأديان الذى كبل عقول البشرية وأضل تصوراتها ألوفًا من السنين. كما قضى «عرفة»، رمز العلم والمعرفة فى هذه الرواية - على «الجبلاوى» الذى رمز به الأستاذ نجيب إلى الله تبارك اسمه كما صورته الديانات الكتابية.

وأنا إنما أنقد فلسفة الأستاذ نجيب فى ثلاثيته لا عن تدين، ولا عن عقيدة راسخة فى النفس يسوؤنى ويؤلمنى أن يرميها رام بالسخف وأن يزرى بها مزر، وإنما أنتقدها بمقياس النهج الذى انتهجه الأستاذ فى كتابة جل ما كتب - وفى هذه الرواية خاصة - وهو النهج الواقعى. وأن الأستاذ ليبلغ من إغراقه فى واقعيته فى الثلاثية أن يسف أحيانًا ويدير على ألسنة شخوص روايته من هجر الكلام ما تنقبض له نفس القارئ المهذب، ولا أعرف له مسوغًا من فن القص نفسه، ولا من النهج الواقعى فى القصص، ودع عنك الكثير جداً من المواضع التى يقتبس فيها الأستاذ الجليل آيات كريمة من القرآن وعبارات من الحديث الشريف هازئًا ساخرًا، معلقًا بها على معان مبتذلة، جنسية وغير جنسية، ما كان أجدر الكاتب الكبير أن يربأ بالقرآن وحديث النبى عن حمأتها. وذلك - مثلاً - كالذى جاء على لسان أحد أصحاب ياسين: «الخمار للخمار كالبُنيان يشد بعضه بعضاً»!

وغير كمال يجعل الأستاذ نجيب فى ثلاثيته غلمة لم يبلغوا العشرين من سنيهم أصحاب فلسفات راسخة، ويُلقى على ألسنتهم سيلاً دافقًا من الهُزء بالأديان والملائكة والنبى نفسه. فهذا أحد ابن خديعة شيوعى، يزعم متفكها أنه لا يعبد الله، وهو لعله لم يبلغ العشرين سنًا، وهذه صديقته سوسن. فتاة شيوعية ابنة عامل مطبعة - تسخر من أن يذكر لها نبى الإسلام فى معرض اقتران الجهاد فى سبيل المبدأ بأخذ الحظ من مُتع الحياة، فتتساءل ساخرة: أى نبى؟ وتذكر مفضلاً عليه كارل ماركس «الذى عكف على تأليف «رأس المال» تاركًا زوجه وأولاده للجوع والبهدلة».

أما كمال ففتى لم يكد يبلغ العشرين، وهو بعد اطلاعه على











«الفلسفة» يُنكر الأديان جملة، ويُعلن إعلانًا لا رجعة فيه أنه لن يكون من المصلين ولا صائمى رمضان، ويربع على هذه الفلسفة إلى آخر الثلاثية، وقد انسلخ من عُمره سنون وسنون، كما ظل الآخرون كذلك على فلسفاتهم. وما أدرى - والله - أى فلسفة هذه التى أتيح لفتى فى العشرين أو دونها أن يقرأها ويهضمها ويكون لها من قوة الأثر فى نفسه وعقله ما يدوم على حال إلى سن الكهولة! فهذا - وأيم الله - أثقب ذهنًا من المسكين أبى حامد الغزالى!!

وأين يقع ذلك كله؟ فى أحياء القاهرة العتيقة..

وأنا أعلم علم اليقين أنه ما من مثقف - وربما غير مثقف - لم يعش فى صدر شبابه هذه الحيرة التى عاشها كمال، ولم يشك فى بعض أحيانه فى كل شىء، ولم يمتحن عقله وضميره بهذه الأسئلة الخالدة عن الله، والدين، وعالم الغيب، وغاية الوجود، ومعنى الألم، والقدر والجبر... ولكن كم من نموذج مثل كمال هذا يمكن أن يعثر به الإنسان؟ نموذج غلام لا يبلغ العشرين، يزعم - أو يزعم له الأستاذ نجيب - أنه قرأ واطلع على الفلسفة، ينتهى إلى الإلحاد واحتقار الدين وعباداته وشعائره، ويصبح ما بين عشية إلى ضحاها وماء حياته الخمر، وخبزها لحوم الغوانى، وتغبر عليه على معتقده هذا الجديد سنون من بعد سنين؟

وأنا أزعم - ولعل لى من التجربة ما يُعطينى الحق أو بعضه فى أن أزعم - أن حيرة المفكر المثقف الحق لا يمكن أن تكون نهايتها الإلحاد، على هذا النحو القاطع اليسير الذى شاءه الأستاذ نجيب لبطل روايته، وأزعم أن حجة الإيمان لن تبرح أقوى من حجة الإلحاد، وأن أحير الحائرين - فى بيئتنا الإسلامية خاصة - لن يغلب الإلحاد على الإيمان فى نفسه وعقله، أو أنهما - الإلحاد والإيمان - سيظلان على درجة من القوة واحدة فى نفسه، فلا تبرح تجده طوراً أويًا إلى كنف الدين، وآونة ضاحيًا فى عراء الشك والإلحاد، أما أن ينسلخ عن دينه كله فجأة - صنيع كمال - وينفض يديه منه آخر الدهر كأن الدين عنده لا يعدو أن يكون ثوبًا بلى فاستعاض عنه بغيره، فهذا فيما أرى فيه عن الواقع جنف.

ومما يتصل بهذا الخط الفكرى - وينبغى أن أنبه هنا إلى أننى لا أحاكم فكر الأستاذ فى جوهره أى نوع من المحاكمة وليس لى موقف منه فى بحثى هذا غير موقف الحياد المطلق - «ظاهرة» نلحظها فى هذه الرواية وفى كثير غيرها مما كتب الأستاذ وهى السخرية العميقة بكل ما يسمونه أخلاقًا.

فالأستاذ نجيب مولع فى هذه الرواية وغيرها بانتقاء أكثر أبطاله من أخس النماذج البشرية (أذكر محجوب عبدالدايم وحسنين كرشة وياسين وسعيد مهران وعيسى الدباغ وصابر سيد سيد الرحيمى - وهؤلاء جميعاً من روايات صدرت كلها بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٤)، وما أرى ذلك إلا مقصوداً قصداً، وهو فرع فيما أرى من السخرية بالدين، إذ إن الأخلاق عنصر من عناصر الدين أصيل، هذه واحدة، ثم إنها من أخص خصائص بنى الإنسان وأرفعها، ولما كان الإنسان عند الأستاذ وعند سائر الماديين لا يعدو أن يكون حيوانًا راقيًا، أو سلالة قردية، إذ هو بمقتضى نظرية التطور evolution التى وضع أساسها داروين قبل مائة وخمسين سنة أخو الغوريلا والشمبانزى، نماه وإياها أب واحد - لما كان ذلك كذلك فمن السخف أن يميز على سائر البهائم بهذا الشىء الذى هو فى حقيقته أعز وأنفس ما امتاز به الإنسان، ألا وهو الخلق، وهو معنى أعم فى الدين وارتباطه بسر أسرار هذا الكائن البشرى: الإرادة.

فمن يقرأ رواية الأستاذ من غير العرب يسر إلى نفسه اعتقاد بأن الشعب المصرى كله شعب سكير خمير، فالصغير والكبير، والأنثى والذكر، والصالح والفاسد - كلهم لا متاع لهم أشهى من الكأس و«المزة»!

ويتصل بهذه الناحية إغراق الأستاذ الشديد فى وصف الحالات الجنسية والانجذاب البهيمى للذكر والأنثى أحدهما إلى الآخر، وأحسب أن أكثر من قرأوا الثلاثية لم يفطنوا إلى المغزى البعيد الذى قصد إليه الأستاذ من وراء ذلك، وهو مرتبط أوثق ارتباط بفلسفته المادية، إذ هو ولا ريب هجوم من جانب آخر على الناحية الخُلقية عند الإنسان. فالإنسان كما يظهر من رواية الأستاذ ليس أكثر من بهيمة: تعرض الأنثى للذكر - أى ذكر - فلا يكون منه إلا أن ينزو عليها دون تلبث أو تلدد، كما ينزو الليث على اللباة فى الموسم المعلوم، ويعرض الذكر للأنثى فلا يكون لها من هم إلا الظفر به وقضاء لُباناتها على يده، أو على جسده على الأصح. وليس ينكر امرؤ ما لغريزة الجنس عند الإنسان وسائر الأحياء من خطر، ولكن الأستاذ قد أسرف فى هذه الناحية إلى حد ممجوج: فياسين - أحد النماذج الخالدة للإنسان عند الأستاذ نجيب - يذهب إلى أم مريم ليخطب إليها ابنتها فتغويه الأم، ويتخذها خليلة أياماً معدودات، وهى كانت من قبل خليلة لأبيه! ثم يحتويها ويرجع فيخطب ابنتها ويبنى عليها. والسيد أحمد نفسه - أبو ياسين - يتعلق بزنوبة العوادة ويكترى لها عوامة على النيل، ثم تتزوج زنوبة من ابنه ياسين، فيكون شعور السيد القصى - على خلاف ما قد يتوهمه القارئ - شعور الارتياح، ويعد ظفر ابنه بالمرأة التى عذبته هو واستعصت عليه زمنًا له هو: ما دام ياسين ابنه!

والقاص لا يُطلب إليه أن يكون واعظًا خلقيًا، ولكنه ليس له من الجانب المقابل أن يُشهر معوله ويُعمله فى أساس الأخلاق هدمًا، لا لشىء إلا ليثبت فلسفة مادية، ويرى أن هذا الإنسان إن هو إلا بهيمة لا تمتاز عن العقارب والقنافذ والمعزوبنات آوى إلا بميزات بيولوجية هى عند التحقيق عرضية، وأن الدين والأخلاق الإنسانية إن هى إلا خرافات سخيفة وخيالات سقيمة خيل إلى الإنسان أزمان كان طفلاً يحبو فى مدارج الحضارة أنها شىء!

وتُلقى شجرة الحزن بظلالها الكئيبة على الثلاثية كما ألقت بها فى روايات الأربعينيات، ولا نفتأ بين الحين والحين

تسمع حفيف أوراقها اليابسة على غصونها الجاسئة. وقد هزتها ريح الأقدار، يعزف لحن الأسى الخالد الذى وُلد مع الإنسان يوم وُلد.

ففى نهاية الجزء الأول من الثلاثية يقضى الأستاذ نجيب محفوظ بلا رحمة على شخصية من أحب شخصيات الرواية إلى القارئ وهو فهمى ابن السيد أحمد عبدالجواد، طالب الحقوق النجيب المفعم بالروح الوطنى، الذى يقتل برصاص الإنجليز. فتى فى فوعة الفتوة وأملا يهتز رونقًا وبهجة ويفيض تبشيرا ووعدًا. فى مظاهرة سلمية سارت فى أعقاب ثورة عام ١٩١٩، وبموته ينتهى الجزء الأول من «الثلاثية». وقد بلغ الأستاذ نجيب فى الفصل الأخير من هذا الجزء ذروة الذرى فى فنه القصصى. ولا سيما وهو يصف السيد أحمد عبدالجواد وهو يتلقى النبأ الجلل ثم وهو يروح به إلى بيته.

وقريب من تلك المأساة مأساة عائشة إحدى ابنتى السيد أحمد. التى قضى المرض على زوجها وابنيها فى نهاية الجزء الثانى، ثم قضت ابنتها الوحيدة الباقية. نعيمة. فى الجزء الأخير وهى على فراش الولادة، فآلت إلى حال هى أبعد ما تكون عن الحال التى يراها عليها القارئ فى الجزء الأول من الرواية، حال الفتاة المنعمة المكسال، المدللة بصباها الغض وجمالها الخالب.

وحتى السيد أحمد نفسه ـ بطل الثلاثية الأول غير مدافع ـ يقضى عليه الأستاذ نجيب بميتة بائسة فى أخريات الجزء الثالث عقب غارة من غارات الحرب العالمية الثانية.

ومما يلحظه القارئ لا محالة فى الجزء الأول من الثلاثية خاصة. «بين القصرين». ولا نجد له نظيرا فى تواتره فى عمل آخر من أعمال الأستاذ نجيب محفوظ هذه التشبيهات التى يكيلها الأستاذ فى أثناء سرده كيلاً، وكأنما هو يؤدى امتحانًا فى فن البلاغة! وهى تشبيهات وإن تكن فى عمومها موفقة دقيقة فإن فن القصة لا يفتقر إليها، ولا ينتقص شيئًا من جماله أن تعز فيه، بل إن كثرتها على النحو فضول غير محمود.

وثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ حد كبير فاصل بين مرحلتين من مراحل الإنتاج الروائى للأستاذ: مرحلة الأعمال المجودة التى سبقتها والتى ذكرناها آنفًا، ومرحلة أعمال الإيقاع السريع. إن صح التعبير. التى لحقت بها، وفى الثلاثية ملامح من المرحلتين، كأنها كانت نهاية مرحلة وبداية أخرى، وقد يؤكد هذا أن الأستاذ أخلد إلى الراحة بعدها فسلخ بضع سنين لا يكتب شيئًا.

«أولاد حارتنا» ـ الفلسفة المحفوظية بوضوح أشد:

هى أول ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ من قصص بعد الثلاثية، وقد نشرها مسلسلة فى صحيفة «الأهرام» فى أخريات الخمسينيات من القرن المنصرم، ولم يتنبه القارئون أول الأمر إلى حقيقة مغزاها، وهو سرد سير الأنبياء الثلاثة الكبار موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ومن قبلهم أبيهم آدم فى صيغة روائية إطارها الحارة القاهرية على حالها التى كانت عليها فى النصف الأول من القرن العشرين، واتباع ذلك بما يبين منه أن العلم قد قضى على عهد الديانات وأضحى هو ولا سواه. أو ينبغى أن يضحى. الدين الجديد الأوحد للبشرية.

ولا ريب أن دافع الأستاذ نجيب إلى كتابة هذه الرواية إنما كان دافعًا فكريا صميمًا: فهو قد كتبها ليفصح عن فكر ارتآه، ولم يجد صيغة هى أوفق له وأطوع بين يديه من الصيغة الروائية، ولعله لو لم يكن كاتبًا روائيًا لما فكر فى صياغة ذلك الفكر على صورة من الصور.

والرواية من الوجهة الفنية عمل ممتع وجميل، ولكن لأن الأستاذ لم يكن مطلق الخيال فى كتابتها فقد جاءت موهبته فيها مكبوحة على نحو لا خفاء فيه، فلم تنطلق انطلاقًا فى هذا العمل الجليل إلا قليلاً.

أعمال الستينيات ـ العهد الناصرى ـ عبقرية رسم الشخصية ـ الحوار فى قصص محفوظ ـ فن الأقصوصة:

وعددها عشر، وهى: «اللص والكلاب»، «السمان والخريف»، «دنيا الله»، «الطريق»، «بيت سيئ السمعة»، «الشحاذ»، «ثرثرة فوق النيل»، «ميرامار»، «خمارة القط الأسود»، «تحت المظلة»، وهى. مع «أولاد حارتنا». جماع ما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ فى العهد الناصرى، وأربع منها مجموعات قصصية.

و(السمان) المذكور فى عنوان الرواية الثانية هو النطق العامى المصرى لضرب من الطيور، ينطقونه بكسر السين وتشديد الميم، وهو طائر السمانى. بضم السين وتخفيف الميم مقصورًا، وهو المسمى بالإنجليزية quail، ونسميه نحن فى بلاد الشام (الفرى). بكسر الفاء وتشديد الراء ـ ويقال إنه هو طائر السلوى المذكور فى القرآن الكريم.

وهذه الأعمال آيات بينات على نضج فن الأستاذ القصصى، بمعزل عن اللغة التى كتبها بها وعن سرعة التواتر التى تجرى بها أحداثها. فالأحداث فى هذه الروايات تجرى فى سلاسة وقوة كما تجرى الأحداث فى رواية الحياة، بغير تكلف ولا فضول، وشخوصها تتضح من خلل السرد والحوار والحوادث اتضاحًا ينسى القارئ أنها شخوص من نسج خيال مؤلف صناع، ويترك لها فى نفسه وخياله من الأثر مثل ما تتركه الشخوص الحية التى يخالطها فى حياته الواقعة. وليست المسألة ههنا مسألة الإطناب فى رسم الشخصية وتوضيحها، ولكنها مسألة الموهبة والقدرة على التصوير بالإطناب كمثله بالإيجاز، فـ «عم مهران» مثلاً فى «اللص والكلاب»، وهو أبو بطل الرواية سعيد مهران، وهو متوفى فى الرواية لا يذكر إلا استنكارًا ـ لا تزيد جملة ما ذكر به فى الرواية كلها على أسطر معدودات، ولكنه على ذلك شخصية حية فى خيال القارئ لا تكاد تقل حياة ووضوحا عن شخصية ابنه نفسه، التى لم تغب فى صفحة واحدة من صفحات الرواية. وقريب من هذا يمكن أن يقال عن شخصية (الجد) فى «السراب».

ومن أصالة موهبة هذا الكاتب أنه يخيل إليك أحيانًا أن الشخصية تخرج من بين يديه لتحيا حياتها الذاتية، وما ذاك إلا لقوة وضوحها وصدق تصويرها، فسعيد مهران بطل «اللص والكلاب» ـ مثلا. يتبدى للقارئ من اللماعات قليلة متفرقة فى الرواية رجلاً نهمًا أكولاً، ولست على يقين أكان الكاتب واعيًا لهذه الخلة عند بطله أم أنها صورت نفسها بنفسها بقوة الخلق وإلهام الموهبة؟!

















أما الحوار فى أدب الأستاذ نجيب محفوظ، فجانب من أكثر جوانبه إمتاعًا، وهو يتسم. على العموم. بالاختصار والحسم وشىء من الظرف والسخرية ينسى معها القارئ نفسه، وهذا هو الروح العام الذى يطبع حوار نجيب محفوظ فى كل ما كتب من أعمال هذه المرحلة وما تلاها، وهو الروح الذى ينقص حظه من الواقعية. على متعته التى لا تنكر: إذ هو نغمة تكاد تكون واحدة، أو صدى من صوت واحد، لم يفلح الكاتب. ولعله لم يفطن. فى أن يضفى عليه شيئًا من التلوين، وهذا أثر آخر. فيما أرى. من آثار معالجة كتابة «السيناريو» السينمائى، فكاتب السيناريو يخط ما شاء من حوار على الورق عارفًا أو غير عارف بأن ممثلاً سينطلق به ويبث فيه من روحه ما يجعل له امتيازًا من كل حوار سواه. فى السيناريو عينه. يجرى على ألسنة غيره من الممثلين، وليس الشأن كذلك فى قصة أدبية تكتب لجمهور القارئين.

وأعمال الستينيات هذه ينبغى أن تدرس وأن تفهم فى ضوء الفترة التى كتبت فيها. فترة الحكم الناصرى. التى قد يطول الكلام فيها إلى غير ما نهاية، وقد كانت فترة تحولات اجتماعية كبرى فى المجتمع المصرى، شهدت فيها البلاد لونًا من الحكم وضربًا من الزعامة لم تعرفهما من قبل، وذاقت فيها حلاوة أمجاد، وتجرعت مرارة هزائم.. وما من ريب فى أن روايات مثل «اللص والكلاب» و«السمان والخريف» قد كان لها من المذاق والإيحاء عند قارئ الستينيات ما لن يكون لها شبهه عند قارئ شاب يقرؤها فى هذه الأيام.

وقد يختلف الناس فى تفسير بعض مغازى هذه الأعمال اختلافًا كبيرًا، فرواية «الشحاذ» عندى ـ مثلاً ـ تصوير لقلق إنسان الحضارة، الذى شبع من لحم الحياة المادية المترفة حتى غثت نفسه، فتلفت من حوله يبحث لروحه ولجسده عن زاد جديد، أو يبحث عن قيمة للحياة أو فى الحياة، إن كان لتلك القيمة من وجود!

ولقد سجلت مرحلة الستينيات هذه نبوغ الأستاذ نجيب محفوظ فى كتابة القصة القصيرة، فهو فارس من فرسانها المعدودين فى

أدبنا العربى الحديث، ولعله أن يكون كذلك فى الآداب العالمية قاطبة. وكثير من قصص الأستاذ القصيرة ليست محض «حكى» قد يقرأ للتسلية وإزجاء الفراغ كما قد يخيل لبعض الناس، ولكن فيها عبراً من أجل عبر الحياة ودروساً يستشفها القارئ من أعز دروسها، ففى مجموعة «خمارة القط الأسود» على سبيل المثال تجد أقصوصة (الخلاء)، وعبرتها سخف فكرة الانتقام والتعارض الأبدى بين مشيئة الإنسان ومشيئة الأقدار. وفى أقصوصة (المتهم) من المجموعة عينها تجد كذلك لغز القدر حاضراً بين يديك إن كنت عنه من الغافلين، وتجد العجيبة الكبرى التى يعيشها بنو البشر منذ خلقهم الله وإلى اليوم لم يتعلموا منها، وهى أنهم يتخيلون أكثر مما يحسون ويفكرون، ويسيرون حياتهم وفقاً لما يتخيلون ويتوهمون، فيصيبهم الخسار ويصيب غيرهم ممن لا ذنب له. (وإنما أعنى هنا موقف الفلاحين الذين أصفقوا على أن بطل الأقصوصة هو الذى داس الشاب بسيارته، برغم أنهم لم يشهدوا الحادثة، وإن السائق، كما يعلم قارئ الأقصوصة، لبرىء).

أعمال السبعينيات. العهد الساداتى. عبقرية صوغ الأسماء. (الفتوة) فى أدب نجيب محفوظ:

وهى اثنا عشر عملاً: «حكاية بلا بداية ولا نهاية»، «شهر العسل»، «المرايا»، «الحب تحت المطر»، «الجريمة»، «الكرنك»، «حكايات حارتنا»، «قلب الليل»، «حضرة المحترم»، «الحرافيش»، «الحب فوق هضبة الهرم»، «الشيطان يعظ».

وهذه المرحلة فى سيرة الأستاذ الأدبية تشبه سابقتها فى الظهر شبهاً غير قليل، فنحن نجد ههنا نسبة المجموعات القصصية إلى الروايات الطويلة هى عين النسبة فى الحقبة السابقة، ونجد التواتر السريع فى القص، ولعله ههنا قد زاد سرعة. ولكن بين أعمال الحقبتين اختلافاً بيناً نجم من أن هذه الأعمال الاثنى عشر قد كتبت فى عهد جديد غير العهد الناصرى، وهو عهد الرئيس أنور السادات الذى اختلف عن عهد سلفه - ولا سيما بعد حرب أكتوبر - اختلافاً بيناً. بل إن من أعمال هذه الحقبة عملاً - هو رواية «الكرنك» - كتب نقداً لمعايب النظام السابق، وفى طليعتها ما هو معروف مشهور مما وقع فى ذلك العهد من تنكيل بالمناوئين وبكل من ارتيب فى ولائه تنكيلاً انتهكت فيه حقوق الآدمية أشنع انتهاك.

ونلحظ فى أعمال هذه الحقبة ولا سيما فى المجموعات القصصية أن موهبة

















الكاتب وخياله قد خفا - مع الشيخوخة التى هى مظنة الثقل - فطارا أحياناً إلى ما وراء أفق المعقول (أقاصيص مجموعة «شهر العسل»)، وهى ملاحظة ستتوكد فيما تلا هذه الحقبة من أعمال، وستنيض آخر الأمر إلى أحلام خالصة هى «أحلام فترة النقاهة» التى اختتم بها الأستاذ نجيب محفوظ حياته الأدبية، وسنتحدث عنها فى آخر هذا الحديث.

وكتاب «المرايا» بين هذه الأعمال ليس برواية، وإنما هو فصول وجيزة كتبها الأستاذ فيما يبدو عن أناس عرفهم فى واقع الحياة، بعضهم قد يعرفه القارئ مثل «عبدالوهاب إسماعيل» كما سماه المؤلف، فهذا هو الأستاذ سيد قطب ما فى ذلك عندى من شك. وهذا الكتاب قد يثقل على القارئ - ولا سيما من غير المصريين - بكثرة فصوله وتقاصرها وزحام الأسماء التى سميت بها. ولكنه قد يكون مناسبة صالحة للحديث عن جانب من عبقرية الأستاذ نجيب محفوظ فى فنه الأدبى، لا أعرف أن أحداً قد أشار إليه، وهو عبقريته العجيبة فى اختراع أسماء الشخصيات، وهى آية من الآيات على أصالة موهبة هذا الكاتب

القصصية التى لا يمارى فيها ممار، فهو يختار للشخصيات الرئيسة والثانوية أسماء تعجب كيف اتفقت له، وتأتى ممتزجة بروح الشخصية امتزاجاً لا انفصام له، حتى لو أنك جربت أن تختلق للشخصية اسماً غير الذى اختاره الأستاذ لها لأعياك ذلك: سعيد مهران - رءوف علوان - أحمد عبدالجواد - كمال - حميدة - أمينة - عباس الحلو - السيد رضوان الحسينى - أحمد عاكف - عيسى الدباغ - حليمة الكبش - إحسان شحاتة - زينب دياب - عاشور الناجى... إلخ. أى اسم هو أوفق من أى اسم من هذه الأسماء للشخصية التى اختير لها؟ وقد يظن ظان أننى أقول هذه المقالة بنوع من تأثير العادة، ولكن دونك روائياً آخر هو صاحب رواية «رد قلبى» المشهورة، وهى رواية ضخمة فى مثل نصف حجم الثلاثية، وانظر الاسم الذى اختاره لبطل روايته «على عبدالواحد»، فأين هذا الاسم الساذج المصنوع من أسماء نجيب محفوظ بلا استثناء لواحد منها، وأين هو من الشخصية التى ألصق بها من أسماء الأستاذ نجيب محفوظ من شخصياته؟! ومما يشهد لهذه الملاحظة أن الأفلام السينمائية التى أخذت عن روايات الأستاذ نجيب وأقاصيصه احتفظت كلها للشخصيات بأسمائها التى جعلها الأستاذ لها.

وأشهر أعمال الأستاذ فى هذه الحقبة هو ولا ريب روايته الضخمة التى أسماها «الحرافيش»، وكانت من أحب أعماله إليه، وقد صدرت عام ١٩٧٧، وهى مجموعة من الروايات القصيرة المتوالية، أبطالها فتوات تحدروا من السلف ذى القصة العجيبة الذى تبدأ به الملحمة وهو عاشور الناجى، وقد كان فتوة طيباً يسخر قوته فى إنصاف المظلوم والانتصاف من الظالم، وأخذ المال من الموسرين وإراحته على المقترين.

أما «الحرافيش» التى سميت بها الرواية فهى - كما سمعت من حديث إذاعى للأستاذ نجيب - كلمة تطلق على الرعاع والفقراء من أبناء الحارات الشعبية، وهى منحوتة من كلمتين: (الحارة + فيش)، فهؤلاء فى الحارة ولكنهم من هوان شأنهم كأنهم ليسوا فيها!

ولم يحفل كاتب قصة مصرى بهذه الشخصية الشعبية - شخصية الفتوة - كما حفل بها وكتب عنها الأستاذ نجيب، سواء أكان ذلك فى الروايات الطويلة كـ «الحرافيش» و«أولاد حارتنا»، أم كان فى كثير من القصص القصيرة مثل

مجموعة «حكايات حارتنا» وغيرها. والفتوة - كما يصوره نجيب محفوظ - رجل شديد البأس، غليظ القلب، بذىء اللسان، لا يتورع عن فعل شىء أو التنكيل بإنسان إذا ما تجاسر على المساس بهيبته أو تحدى سلطته، ولا يزعه شىء عن نول شهواته ومآربه، ولا سيما إن كانت الشهوة والمأرب امرأة ذات حسن، ويحيط به ثلة من الأعوان الأذناب الذين يتقنون فن الملق، والذين يتفرقون ويتوارون فى العادة إذا ما سقط فتوتهم، أو ينضمون إلى فتوة جديد.

وقد أراد الأستاذ لهذا العمل أن يكون ملحمة كما أسماه، وأحسب أنه لم يوفق إلى ما أراد كل التوفيق، فالرواية تبدأ بداية طيبة، ولكن أحداثها تتسارع من بعد، والعهود التى تجرى فيها تتمطى وتطول، بل إنها تفقد بساطتها أحياناً وتزل إلى خيال غريب لا صلة له بنوع الواقع الذى تصفه، وذلك مثل التأملات الفلسفية للفتوة المسمى بجلال صاحب الجلالة، فمثل هذه التأملات كثيرة فيما أرى على شخصية شعبية ساذجة من هذا النوع.

أعمال الثمانينيات. نوع من التجديد الطبيعة فى أدب نجيب محفوظ:

وعددها أربعة عشر، أربعة منها مجموعات قصصية، وهذه الأعمال هى: «عصر الحب»، «أفراح القبة»، «ليالى ألف ليلة»، «رأيت فيما يرى النائم»، «الباقى من الزمن ساعة»، «أمام العرش»، «رحلة ابن فطومة»، «التنظيم السرى»، «العائش فى الحقيقة»، «يوم قتل الزعيم»، «حديث الصباح والمساء»، «صباح الورد»، «قشتمر»، «الفجر الكاذب».

ويلفت النظر فى هذه المجموعة ما عمد إليه الأستاذ نجيب فى بعضها من تجدد، نجد لبعضه أشباهاً فى مراحل ماضية، ونجد بعضه جديداً تمام الجدة. وكأن الأستاذ فى هذه الحقبة - وقد كانت هى الحلقة الثامنة من سنى عمره - قد كان يبحث فى أغوار نفسه وموهبته فى لهفة وعجل عما عساه قد يكون متبقياً فيها من منابع للإبداع، عارفاً بأن ما تبقى له من فسحة العمر جد قليل.

وأول ما يلحظ على أعمال هذه المرحلة قصر النفس وتسارع إيقاع الأحداث، وحسبك برواية «عصر الحب» على هذا مثلاً، حتى إن القارئ قد يعجب كيف يكون كاتب الثلاثية وكاتب هذه الروايات القصيرة واحداً! ولكنه عند التأنى لا ينبغى له أن يعجب، فليس فتى فى الثلاثين أو كهل فى الأربعين كشيخ فى السبعين أو فى الثمانين، ليسا سواء فى كل ناحية من نواحى النفس والعقل والجسد. وروايات هذه المرحلة - على قصرها النسبى - تمتد على مساحات من

الزمن شديدة الاتساع: فرواية «الباقى من الزمن ساعة» رواية جيلين لا جيل واحد، وهى تبدأ من عقد معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا على عهد الملكية وتستمر إلى زمن عقد اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، أى أن الرواية تمتد على فسحة من الزمن تربو على الأربعة عقود. ورواية «قشتمر» تمتد على زمان يكاد يكون ضعف ذلك الزمان، إذ إنها تبدأ عام ١٩١٥ وتستمر إلى وقت صدور الرواية عام ١٩٨٨!

وإذا ما أخذنا الروايات الاجتماعية الواقعية من روايات هذه المرحلة، فهذه الروايات فيما أحسب ليست خير ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ وعندى أن رواية «أفراح القبة» هى خير ما كُتب فى هذه المرحلة من روايات هذا الطراز الذى برع فيه الأستاذ ما لم يبرع فى غيره.

وفى هذه الرواية يعيد الأستاذ نجيب تجربة فريدة فى القص عرفنا نوعاً منها من قبل فى رواية «ميرامار» ـ وهى من أعمال الستينيات ـ وذلك أن أبطال القصة يروونها فى فصول متتابعة، كلٌ فى موقعه وزاويته، فتتقاطع الروايات وتكتمل جوانب الصورة تدريجياً عبر الفصول. وهذا نهج فى القص يشهد للكاتب بالبراعة وقوة الصنعة، ويلذ القارئ ما فى ذلك من شك.

ولهذه الرواية ناحيتها التربوية، فهى تُظهر أثر الظروف التى يُنشأ تحت وقرها الإنسان فى شخصيته وفى حياته كلها، وهى ظروف لا يد له فى صوغها ولا مقدرة على دفعها، بل لا إدراك له فى سنى طفولته الغضة بأن هذه الظروف مما ينبغى أن يدفع ومما يقدر على دفعه أو لا يقدر. والرواية تشبه من هذا الجانب رواية «السراب» التى صدرت قبلها بثلث قرن. وهى تعرض جوانب مشرقة من إنسانية الإنسان، بخلاف روايات مثل الثلاثية لا تكاد تعرض من الإنسان إلا إلى الجانب الحيوانى البحت، وكأن هذا الجانب هو حقيقته كلها التى لا يفترق بها عن أية بهيمة، وقد ينحط بها عن البهيمة.

فشخصية (حليمة الكبش) مثلاً ـ وهى أم بطل الرواية (كرم عباس يونس) ـ شخصية تستحق احترام القارئ وتهيج فى نفسه شعور العطف والرحمة: فلقد قست عليها الحياة أشد قسوة فعملت فى مسرح، واغتصبها صاحب المسرح، وعندما جاءها عباس يونس خاطباً آثرت أن تتركه يقف على الحقيقة وكانت على خداعه لو شاءت من القادرين، ولم تستسلم من بعدُ للغواية عندما ألقت بحبالها. وهذه الشخصية بلا امتراء من أشرف وأرق شخصيات الأستاذ نجيب محفوظ فى أعماله الروائية كلها.

وثمة عملان من أعمال هذه المرحلة يخرجان عن الخط الاجتماعى الواقعى الذى سار عليه الأستاذ نجيب فى المراحل السابقة، ويكادان يلحقان بالنمط الأسطورى الذى نعرفه فى سفر «ألف ليلة وليلة»، وهذان العملان هما «ليالى ألف ليلة» و«رحلة ابن فطومة».

فـ «ليالى ألف ليلة» تحوى أقاصيص على نمط حياكات «ألف ليلة وليلة»، وهى تستخدم شخصيات من تلك الحكايات القديمة نفسها كالسندباد والإسكافى معروف، مع عرض أحداث جديدة وإعادة بعض أحداث رويت فى «ألف ليلة وليلة» كمثل حكايات السندباد عن مغامراته وراء البحار. وهذه الرواية تشهد للأستاذ نجيب محفوظ بأنه كان لا يزال عند كتابتها وقد نيف على السبعين محتفظاً ببراعته كقاص وبخصب خياله الروائى.

أما «رحلة ابن فطومة» فرواية رمزية لسنا ندرى إلى أى عهد من الزمان ولا إلى أى البلاد ينتمى بطلها محمد قنديل العنابى الشهير بابن فطومة ـ كما دعاه إخوته لأبيه ـ ولكن من البين أن أحداثها تجرى فى عصر إسلامى سبق العصور الحديثة: ففى صفحاتها الأولى ذكر للوالى والحاجب. والبلاد التى يرتحل إليها بطل الرواية بلاد خيالية: دار المشرق، دار الحيرة، دار الأمان... وفى الرواية نقد لا يخفى لواقع الأمة الإسلامية ومُباينة حياتها لما يقتضيه دينُها وشريعتُها، وفيها نظرات وآراء فى الاجتماع والسياسة والدين. وفى الرواية نوعٌ من النسبية قد يذكر القارئ برواية «رحلات غاليفر» الخالدة: وذلك أن كل مجتمع يعتد نفسه الأصل والقاعدة وما عداه هو الفرع والشذوذ، ففى كل بلد يحل به البطل يؤكد له أهله أن قانونهم وشرعتهم هما القانون والشرعة المثليان!

وطلاقة هذه الرواية من حدود الزمان والمكان يبدو أنه كان حالة عامة انتابت فن الأستاذ نجيب بعض انتياب فى هذه المرحلة، وكأنه قد ضاق بالخط الواقعى المتزمت ورأى ألا جُناح فى أن ينفلت الفن من قبضته القاسية بعد انفلات: فرواية «عصر الحب» ـ وهى من القصص الاجتماعى الواقعى ـ كذلك لا نعرف على وجه الدقة حدود الزمان الذى تجرى فيه. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن «حضرة المحترم» ـ من أعمال السبعينيات ـ وكأن الأستاذ كان فى ذلك مستجيباً لطبيعة المرحلة العُمرية التى كان يمر بها، وهى مرحلة الشيخوخة، فلقد يَعمد بعض الشيوخ أحياناً إلى شىء من الخفة أو العبث، يعتاضون بهما عن عجز الجسد ووهن العظم، وقد يُعيدون النظر ـ فى ضوء الشيخوخة الباهت العميق ـ فى بعض القيم التى كانت قبل عندهم حقائق أو مسلمات.

أما «أمام العرش» فليس برواية، ولكنه حوارات متخيلة تدور فى محكمة أوزوريس ـ إله العالم الآخر عند الفراعنة الذى يعتده بعض علماء المصريات محور الديانة الفرعونية بأسرها ـ مع نخبة من حكام مصر وأكابر رجالها بدءاً بمينا موحد القطرين ورأس الأسرة الفرعونية الأولى وانتهاء بأنور السادات الذى كتب الكاتب بعيد اغتياله. وفى تلك المحكمة يسأل أوزوريس أولئك الرجال ويحاورهم، ويحاور بعضهم بعضاً، ويقضى لأكثرهم بالخلود، ويذهب ببعضهم إلى الجحيم، ويرسل بعضهم إلى مقام التافهين، ويعطى بعضهم ـ مثل الرئيس جمال عبدالناصر ـ ممن عاشوا بعد الأعصر الفرعونية تزكية قد تكون نافعة له أمام محكمته الدينية الخاصة التى ستُعقد له من بعدُ على حدة بمقتضى عقيدته الدينية التى كان يدين بها فى حياته الدنيا. فهذا الكتاب إنما هو نوع من التقويم ـ من وجهة نظر الكاتب ـ لأبرز شخصيات مصر التاريخية، وهو يبين عن ثقافة الكاتب التاريخية، وقد قرأ الكاتب ـ كما نعلم من سيرته ـ تاريخ مصر الفرعونية فى صدر شبابه.

ومما يلحظ فى الكتاب أنه أسقط كل حكام الأسرة العلوية بعد رأسها وسلفها محمد على، وقد دام حكمها أكثر من مائة سنة، فلم يجعلهم ممن حوكموا. ويلحظ فى الكتاب كذلك أن الكاتب قد فضل فى تقويمه الرئيس السادات على الرئيس عبدالناصر تفضيلاً أبين من أن يدل عليه.

أما «العائش فى الحقيقة» فعمل بين أعمال الأستاذ نجيب فريد، فإذا ما اعتددنا روايات «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» روايات تاريخية، فهذا السفر ينقلب معه الوصف، إذ هو تاريخ روائى، وهو يحكى قصة الفرعون الشهير إخناتون ـ أمنحوتب الرابع أو أمينوفيس الرابع كما يسمى بالإغريقية ـ وهو صاحب الحركة الدينية المشهورة فى التاريخ المصرى العتيق، تلك الحركة التى أراد بها أن يلغى ديانة آمون إله طيبة (الذى أضحى الإله الأعظم لمصر فى عهد الدولة الحديثة الذى تلا طرد الهكسوس من البلاد) وغيره من الآلهة المتكاثرين الأقل شأناً، ويستبدلها بديانة توحيدية ابتدعها، الإله فيها قرص الشمس آتون.

والرواية عبارة عن بحث واستقصاء يقوم عليهما ـ بُعيد انقضاء عهد إخناتون ورجوع الأمور فى مصر إلى ما كانت عليه ـ فتى مصرى اسمه مرى مون من أسرة علية من مدينة سايس، يسعى بتزكية مكتوبة من والده إلى لقاء أكابر الشخصيات المصرية التى عاصرت الملك الراحل وحركته، مثل كبير آلهة آمون، وماى قائد حرس الحدود، وحور محب قائد الجيش المصرى، وآى الشيخ والد نفرتيتى، ونفرتيتى نفسها زوج إخناتون ومناصرته فى حركته، وينتج من ذلك البحث والاستقصاء رواية واضحة عن ذلك الفرعون العظيم وعهده وحركته الدينية. والرواية ـ وإن يكن أساسها تاريخياً صرفاً ـ إلا أنها تحمل رؤية الكاتب نفسه، الأستاذ نجيب محفوظ وتصوره للأحداث والشخصيات التى تتناولها الرواية، وهى رؤية وتصور تشهد بخيال روائى خصب وبراعة فى فن القص بمعناه الأشمل، لا بمعناه الضيق من حيث هو سرد لأحداث تتتابع، فالرواية من قمة تُحفة فنية أدبية، ولكنها ليست بوثيقة تاريخية أو شبه تاريخية.

وتتذبذب آراء من سُئلوا فى الرواية ما بين قدح الفرعون الهال وثلبه أشنع ثلب إلى الثناء عليه أطيب ثناء. أما رأى الأستاذ نجيب محفوظ نفسه فى إخناتون فأعرفه من حديث له إذاعى سمعته يصف فيه الفرعون الراحل بأنه «أعظم نبى فى التاريخ»!

وكما انتقد الأستاذ نجيب محفوظ فى المرحلة الماضية عهد الرئيس عبدالناصر فى رواية

















«الكرنك» بعد مهلك ذلك الرئيس نجده فى هذه المرحلة التى نتحدث عنها ينتقد خلفه الرئيس أنور السادات بعد مقتله كذلك بسنوات معدودات، وذلك فى رواية «يوم قُتل الزعيم»، فالزعيم ههنا هو الرئيس السادات نفسه، الذى تجرى الرواية فى عهده وتنتهى مع نهايته، ففى الرواية نقدٌ جلى وإن يكن موجزًا للحقبة الساداتية وما عاناه المصريون فى أثنائها من محن بلغت أوجها فى الغلاء الذى جاء مع «الانفتاح»، وفيها نبز قاس للرئيس الراحل يجرى على ألسنة الأبطال من مثل وصفه بالبهلوان، وبأنه يتزيا بزى هتلر ويعمل عمل شارلى شابلن!

ونلحظ فى روايات هذه المرحلة أن الأستاذ نجيباً قد عاد فيها أكثر من مرة - على ألسنة أبطال الروايات - إلى استعراض ونقد عهدى الرئيسين عبدالناصر والسادات.

وما أحب أن أفرغ من الحديث عن أعمال هذه المرحلة ولم أعرض بالذكر لعمل منها أراه من أجمل وأثرى ما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ، وذلك هو كتابه «حديث الصباح والمساء»، وليس هو برواية كمثل جُل روايات الأستاذ، ولكنه تاريخ مُقتضب لعائلة مصرية فى بضعة أجيال، يبدأ من عهد حملة نابليون وولاية محمد على قبل مائتى سنة ويستمر إلى حين صدور الرواية فى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم. وينبغى التنبيه ههنا إلى أمر ذى خطر، وهو أن القارئ إن تناول هذا الكتاب ليقرأه عجلاً كما تعود أن يقرأ سواه من كتب الأستاذ فهو لن يطيق المضى فى قراءته أكثر من صفحات معدودات: إذ سيدركه ملل شديد، وسيكل ذهنه ويعيا من تتابع الفصول والشخوص والأحداث والصور، وسيجد نفسه غريقًا فى وابل من الأسماء له أول وليس له آخر! ولكن الأمر لا يعود كذلك إذا ما جعل القارئ إلى جانبه من بدء قراءته صحيفة أو صحائف يرسم عليها لنفسه شيئًا فشيئًا - تبعاً لما يظهر له من قراءته - أجمة نسب لهذه العائلة المتشعبة الفروع. ومما يزيد من ثقل الرواية وعدم انتظام صورتها لأول الأمر أن الكاتب يؤرخ لأفراد العائلة على حسب ترتيب أسمائهم الهجائى، فلا يجرى العصور من ثمة على نسق. والكتاب كما ذكرت ليس رواية بالمعنى الفنى التقليدى، وإنما يصح أن يُعد قطعاً إنشائية تلذ القارئ بطلاوة أسلوبها وبعض أحداثها ومواقفها التى يقتضيها الكاتب اقتضاباً.



ويبدأ الكاتب هذه البداية الشعرية الجميلة: «فى السماء زرقة صافية، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ، وأديم الميدان العتيق يُشرق بنور الشمس»... ومن سمات أدب الأستاذ نجيب محفوظ التى لا نجد مناظراً لها عند معاصريه من كتاب القصة المصرية مثل هذه الالتفاتات إلى الطبيعة، وعلى قلتها وتفرقها ووجازتها فى أعماله الروائية، وهى تُضفى على العمل ولا ريب ظلالاً رقيقة من الجمال. وأى شىء أحب إلى الإنسان وأخلب للبه من مشاهد الطبيعة؟

بقية الأعمال - روح الظرف فى أعمال الأستاذ نجيب - أدب الأحلام:

وهى ستة: «أصداء السيرة الذاتية» - «القرار الأخير» - «صدى النسيان» - «فتوة العطوف» - «أحلام فترة النقاهة» - «المسرحيات».

وهى كلها مما يمكن إلحاقه بالمجموعات القصصية، فليس من بينها رواية واحدة. وما فى الأمر من عجب: فقد كان الأستاذ فى هذه المرحلة قد بلغ من الكبر عتياً، وضعف سمعه وبصره، وأصيبت يده اليمنى بشبه شلل إثر الحادث الغادر الذى تعرض له من مجرم جهول أثيم فى خريف عام ١٩٩٤.

أما «الأصداء» فلست أدرى ما الصلة بين هذه القطع الوجيزة وبين سيرة الأستاذ الذاتية، ولعل كل إنسان قادر على أن يعُد كل خاطر يخطر له صدى من أصداء سيرته الذاتية! وعندى أن الكتاب يأتى فى ذيل كُتب الأستاذ من جهة القيمة: فما هو غير قطع موجزة بعضها غامض لا معنى له، وبعضها يبلغ من شدة وضوحه وضحالة معناه أن يضحى هو وسابقه سواء!

أما المجموعات القصصية فيظهر منها أن موهبة الأستاذ القصصية كانت لا تزال على حظ من القوة لا بأس به وهو فى سنه تلك العالية، وأن ملكة الفكاهة التى يعرفها قارئه حق المعرفة كانت لاتزال كذلك على حال طيبة، وهى تظهر فى أقصوصة (العودة) من مجموعة «القرار الأخير» وأقصوصة (الأرض) من مجموعة «صدى النسيان».

وما ينبغى أن تفوتنا الإشارة لهذه المناسبة إلى أن روح الظرف تشيع فى كل ما كتب الأستاذ نجيب محفوظ، وهى سمة أصيلة من سمات أدبه، لا نكاد نجدها بهذا الوضوح وهذه الأصالة عند قصاص آخر غير الأستاذ توفيق الحكيم. ويحسب القارئ أن يذكر محاورات ياسين النسوية مع نفسه وهو يرصد بعض النساء - فى الثلاثية - أو غزله مع بعض فرائسه منهن، أو يذكر حديثه مع بعض صحبه عن حديث الزعيم سعد زغلول إليه فى جنازة أخيه فهمى، والزعيم قد عاش ومات ولم يقع له على ياسين بصر!

أما مجموعة «المسرحيات» فمن البين أن الأستاذ كتبها فى شيخوخته وأن بعضها ضُم من أعمال له صدرت من قبل، وهى كلها (تجارب) ما أحسب أن الأستاذ أصاب فيها كبير نجح، إذ هى من أثقل ما كتب وأغمضه، ولا يمكن مقارنتها بحال - ولو من أشد البعد - بمسرحيات الأستاذ توفيق الحكيم القصيرة، أستاذ المسرح العربى الأدبى الحديث. وقارئ هذه المسرحية يحار أيلحقها بعبث الشيخوخة الذى أشرنا إليه آنفاً أم يعتدها ضرباً من مسرح اللامعقول؟!

ولأن الحوار فى المسرحية هو الركيزة الأولى، ولأن الأستاذ نجيباً كانت موهبته قصصية عامة ولم تكن موهبة حوارية - جاءت هذه المسرحيات شديدة الثقل على القارئ والإعنات له.

ونخلص إلى العمل الأخير «أحلام فترة النقاهة».

وقصة الأستاذ نجيب محفوظ مع الأحلام تسبق صدور هذا الكتاب - عام ٢٠٠٤ - بزمن طويل، ففى «خان الخليلى» نجد حلماً طريفاً - وليس يخلو حلم من طرافة - يراه البطل الكهل أحمد عاكف. ومن بعدها فى «اللص والكلاب» نجد حلماً آخر للبطل سعيد مهران، ثم نجد حلماً آخر فى «الطريق» يراه بطل الرواية السكندرى صابر سيد سيد الرحيمى الذى كان يبحث عن أب له ظل يحسب إلى عهد جد قريب أنه ثاو تحت الرجام!

ثم نجد فى آخر مجموعة «رأيت فيما يرى النائم» التى صدرت عام ١٩٨٢ سبعة عشر حلماً مصدرة كلها بعبارة (رأى فيما يرى النائم).

وهذه الأحلام تُعجب القارئ بما فيها من طرافة، وهى فرعٌ من موهبة الأستاذ نجيب القصصية الأرنة وخياله الخصيب.

أما مجموعة «أحلام فترة النقاهة» فعمل فريد للأستاذ يستحق به أن يُسجل فى تاريخنا الأدبى بصفة أنه مُبدع نوع جديد من الأدب هو أدب الأحلام، فالمجموعة كلها أحلام صرفة يعرف مذاقها كل فرد منا نوع بنى الإنسان، حيث تتداخل الأزمنة والأمكنة، ويتلاقى الأحياء والأموات وجميع المتشابهات والمتفارقات على صعيد واحد. وهذه المجموعة للأستاذ هى - فى المقام الأول - معرض لنشاط الخيال، فمن هذه البابة وحدها قد تكون متعة للقارئين. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

حياتى

تأليف: أحمد أمين
القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٨



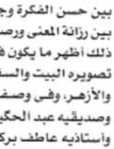
قال طه حسين عن هذه السيرة الرائعة لواحد من أهم رموز النهضة العربية الحديثة: «إذا لم يكن أحمد أمين مثلاً رائعاً للجد المنتج، والنشاط الخصيب، والمثابرة التى لا تعرف كللاً ولا مللاً، والمقاومة التى لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً، والثقة التى لا تعرف شكّاً ولا تردداً، فلا ينبغى للمصريين أن ينتظروا مثلا رائعاً من أى مواطن آخر».

وقال عنها أحمد حسن الزيات: «يجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ، وربما كان ذلك أظهر ما يكون فى كتابه «حياتى»، فإن تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتّاب والأزهر، وفى وصفه لأبويه وأخويه، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور، لنماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل، وينبض بروح العاطفة، ويزهو بألوان الفن».

■

تحدى البديهة: الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد

ستيفن لاندسبيرج
More Sex Is Safer Sex: The Unconventional Wisdom
ترجمه من الانجليزية للعربية مجدى عبد الواحد عنبة
كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ٢٩٤ صفحة



لا يهدف علم الاقتصاد إلى دراسة المال وإنما يهدف إلى دراسة القيمة، وتحدد قيمنا كل شىء، وهنا وفى هذا الكتاب سيجد القارئ كل شىء. يثبت ستيفن لاندسبيرج فى هذا الكتاب أنه أفضل من أى شخص آخر فى أن يجعل من علم الاقتصاد مصدرا لاهتمام غير الاقتصاديين.

يستخدم لاندسبيرج أسلوبا استفزازيا ومازحا فى مهمته لإظهار كيف أن فهم الاقتصاد سيغير الطريقة التى تعيش بها حياتك اليومية. يستخدم لاندسبيرج فى هذا الكتاب حسابات المنفعة والتكاليف ليجادل لمصلحة التنميط العرقى لارتكاب الجرائم أو لإعطاء سبب لتبرير عدم وجوب مبالاتنا بسرقة متاحف العاصمة العراقية بغداد، وهو بذلك يحتفل بكل ما هو مخالف وأصلى وغريب.

يجبر لاندسبيرج القراء المنطقيين على مواجهة أوضاع غير مريحة عن طريق وضع عدة حلول للمشاكل المثيرة مثلما يحدث فى الفصل الأول من الكتاب حيث يجادل بأن على المواطنين الذين يتحلون بالعفة أن يتحللوا أخلاقيا وبالتالى يضعفون من فرصة الإصابة بمرض الإيدز.

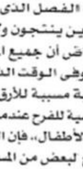
تستنتج فصول الكتاب من دون إصرار كما يستهجن الكاتب أنه «ليس من السهل الفصل بين الأسباب والآثار». ويشك المرء فى أن عالم اقتصاد آخر يمكن أن يفضح بسرعة الكثير من حجج لاندسبيرج مثل ذلك الفصل الذى يمدح فيه البخلاء (الذين ينتجون ولا يستهلكون) على افتراض أن جميع الموارد محددة ونهائية.

وفى الوقت الذى يقوم فيه بعرض قضية مسببة للأرق وهى «أنه دائما توجد مناسبة للفرح عندما ينجب الآخرين المزيد من الأطفال»، فإن القارئ ربما سيكون فى مزاج لبعض من المسلمات القديمة.

■

الولايات المتحدة الأمريكية بين القوة الصلبة والقوة الناعمة

رفيق عبد السلام
أوراق الجزيرة - مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة - قطر ٢٠٠٨



تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على واقع القوة الناعمة الأمريكية، وصلتها بظاهرة الهيمنة الواسعة التى كانت ومازالت تتمتع بها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على إثر تراجع القوى الأوروبية التقليدية التى كانت تستأثر حظوظ السيطرة على مقدرات العالم. كما تعمل هذه الورقة على رصد المتغيرات الحاصلة فى المناخ الدولى العام عقب صعود المحافظين الجدد إلى سدة الحكم، ثم أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتأثير هذه المتغيرات فى النفوذ الأمريكى فى الساحة الدولية ورؤية شعوب العالم، وخصوصا فى منطقة الشرق الأوسط، لدور القوة الأمريكية ومدى مشروعيتها الأخلاقية والمعنوية. ورغم أن مصطلح القوة الناعمة يعد من المصطلحات المحدثة فى مجال الحقل الأكاديمى والخطاب السياسى والإعلامى إلا أنه قد شهد انتشارا واسع النطاق منذ أن صك الباحث والسياسى الأمريكى جوزيف ناى Joseph Nye هذه الكلمة بداية تسعينيات القرن المنصرم.

■

إزيدورا... والأتوبيس وقصص أخرى

محمد سلماوى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



تحتفل «الدار المصرية اللبنانية»، من خلال هذا الكتاب، بربع قرن من السرد القصصى للكاتب الكبير محمد سلماوى، فقد صدرت المجموعة القصصية الأولى لمحمد سلماوى عام ١٩٨٣م بعنوان «الرجل الذى عادت إليه ذاكرته»، ثم تتابعت بعد ذلك مجموعاته القصصية: «كونشرتو الناى» فى عام ١٩٨٨م، و«باب التوفيق» فى عام ١٩٨٤م، و«رسائل العودة» فى عام ٢٠٠٠م، و«وفاء إدريس» فى عام ٢٠٠٢، و«شجرة الجميز» فى عام ٢٠٠٢م.

وقد تنوعت المجموعات القصصية لمحمد سلماوى ما بين الواقع والخيال، وما بين الحاضر والتاريخ، وما بين الموضوعات الاجتماعية والسياسية والعاطفية الحالمة، كما تنوع أيضاً الأسلوب الفنى الذى انتهجه فى كل من هذه القصص ما بين السرد الواقعى والقصص الرمزى والواقعية السحرية.

وتقدم «الدار المصرية اللبنانية»، فى «إزيدورا... والأتوبيس» بعض أجمل القصص التى وردت فى المجموعات القصصية، التى صدرت لمحمد سلماوى، بالإضافة إلى بعض القصص الجديدة التى لم تنشر من قبل، والأخرى التى نشرت فى الصحف والمجلات، لكنها لم تصدر فى أى من المجموعات السابقة، وهى قصص يجمع بينها أنها شاهدة على موهبة أدبية متميزة فى السرد القصصى لكاتب كبير نتمنى له دوام الإنجاز فى السنوات المقبلة.

■

أدباء ومفكرون

عبدالرشيد الصادق محمودى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ١٦٠ صفحة



كتبت هذه المقالات التى تتناول مجموعة من رجال الأدب والفكر فى أوقات متفرقة، ونشرت فى مصادر صحفية مختلفة. وهى إذ تجمع هنا تنشر على حالتها الأولى باستثناء تعديل بعض العناوين، بحيث تطابق ما كتبه المؤلف أصلاً بعد أن غيرها رؤساء التحرير لتناسب الأغراض الصحفية.

ورغم أن المقالات تعالج قضايا أدبية وفكرية وتتضمن فى بعض الأحيان تحليلاً ونقداً لأعمال الأدباء والمفكرين المعنيين، فقد استهدفت القارئ العادى منذ البداية ولم تكتب للمتخصصين. ولذلك حرصت فيها على أن أبتعد قدر الإمكان عن أسلوب الدراسة الجاف، وأن أضفى على الكتابة طابعاً أدبياً أو ذاتياً (يتعلق بشخصى وميولى ورؤيتى للأشياء). وأرجو أن أكون قد نجحت فى ذلك وأن تفوز هذه المقالات لدى القراء بوصف «المقالة الأدبية» التى لا تتخلى عن مهمة الإمتاع الفنى.

ومما ساعد على اتباع هذا الأسلوب ودفع إليه أننى عرفت بعض أولئك الأشخاص، وأردت إذن أن أكتب على سبيل التذكر أو العرفان بالفضل أو التحية والتكريم، وأن أرسل صورة محسوسة بقدر الإمكان للأديب أو المفكر المعنى. والأمر شبيه إذن بما يحدث عندما تشعر بالوحشة فتستدعى صورة صديق ليؤنسك، أو عندما تشعر بالبهجة فتستدعى صورة للصديق احتفالاً به وبالحياة التى سخت به عليك.

غير أننى لم أهجر ذلك الأسلوب «الأدبى» حتى فى حالة الأدباء أو المفكرين الذين لم أعرفهم معرفة شخصية. فأنا لم أعرف مثلاً زكى مبارك، ولكننى عرفت كتابته وأنا مازلت طفلاً وفتنت بقدرته على إطلاق الأحاديث ذات الشجون، وبمرحه الجارف وجموحه وبوهيميته الفنية وكسره

للحواجز القائمة بين الأنواع الأدبية. وهو مازال ماثلاً في ذاكرتي ومخيلتي، ومازال نموذجه حاضرا في عالمي الأدبي مثله مثل النماذج الأدبية المستقاة من كاتب مثل زكي نجيب محمود أو عثمان أمين. كذلك لم أعرف علي عبدالرازق، ولكنني أردت في حالته أن أعبث ببعض من كتبوا عنه لولعهم بالنظريات «الشيطانية» في تفسير الأعمال الأدبية.

وأنا لم أعرف وجيه غالي، ولكن ظروفاً قاسية جمعت بيني وبينه وأقامت بين الطرفين علاقة وثيقة وإن كانت متوترة. فقد عشت في لندن وفي المنطقة التي كان يسكنها وانتحر فيها في الستينيات من القرن الماضي، وعرفت روايته وأطرافاً من حياته في ظل هزيمة ٦٧ وما أعقبها من كوارث على الصعيد القومي والوطني والنفسي. ووجيه غالي ينتمي إذن إلى عالم في المكان والزمان أعرفه جيداً. وأججت قصته منذ البداية فضولي بقدر ما أثارت نفوري - لأسباب شرحتها في المقالات المخصصة له. ولكني رأيت أن أعاند شعوري بالنفور وأخضع «شياطين» وجيه غالي لسيطرة الكتابة. وحاولت إذن أن أفهمه من داخل عالمه فهماً «جوانياً» وفقاً للمصطلح الذي صكه أستاذنا الدكتور عثمان أمين. أو كما يجاهد الروائي في فهم شخصيات قصته أياً ما كان موقفه الأخلاقي أو السياسي منها.

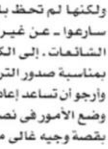
وقد كتبت هذه المقالات بالاستناد إلى شهادات بعض الأحياء الذين شهدوا أحداث القصة واشتركوا فيها. وبناء على تقص شامل وتمحيص للمصادر والوثائق الأصلية، ونشرت في صحيفة «القاهرة»، ولكنها لم تحظ باهتمام الكتّاب الذين سارعوا - عن غير علم واعتماداً على الشائعات - إلى الكتابة عن وجيه غالي بمناسبة صدور الترجمة العربية لروايته. وأرجو أن تساعد إعادة نشر المقالات هنا على وضع الأمور في نصابها وتبديد ما أحاط بقصة وجيه غالي من غموض ولغط.

■

ما فعله العيان بالميت

تأليف: بلال فضل

القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



يقول الكاتب الساخر بلال فضل في تقديم هذا الكتاب: «طلبت مني دار الشروق مشكورة مأجورة أن أكتب نبذة عن نفسي كما جرت العادة، التي يزعم أهل دار الشروق أنها عادة حسنة، وأزعم أنا أنها ليست كذلك.

الكذب خيبة، هذا ليس موقفاً مبدئياً ضد حق النبذة في الوجود. فالحقيقة ببساطة أنني بعد لأي «لأيت» نفسي عاجزا بالجملة والقطاعي عن كتابة تلك النبذة المتمنعة، وأنا الذي ما شكوت يوماً بفضل الرب من كتابة نبذ الغريب قبل نبذ القريب.

لذلك وبدلا من إعلان فشلي قررت أن أتمرد على مشيئة دار الشروق فأنبذ فكرة كتابة أي نبذة عن نفسي، ليس غرورا لا سمح الله ولا ثقة إن شاء الله، بل لسبب بسيط. هو أنك بعون الله لو قرأت قصصي التي تضمها هذه المجموعة ولم تعجبك فلن تجدي أي نبذة في الدنيا في تعويضك عن وقتك الذي ضاع وفلوسك التي راحت. ولن تكون بحاجة إلى من يقول لك نبذة عن المؤلف، بل إلى من يشد على يدك ويقول لك عوضك على الله.

أما إذا قرأت قصصي وأعجبتك كما أظن. فأظن عيباً جداً أن تطلب بعد ذلك نبذة عني. وفي الحالتين. حصلت لنا البركة.»

■

عباس العقاد

في تاريخ الصحافة المصرية

أ. د. راسم محمد الجمال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. ٢٠٠٨.

٤٠٠ صفحة



إنني منذ بلغت سن الطفولة، وفهمت شيئاً يسمى المستقبل، لم أعرف لي أملاً في الحياة غير صناعة القلم، ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة.

هذه العبارة التي كتبها العقاد عن نفسه، تظهر عشقه المبكر للصحافة، التي مرت علاقته بها بمراحل متعددة وذلك هو موضوع الكتاب المهم «عباس العقاد» في تاريخ الصحافة المصرية، من تأليف الأستاذ الدكتور «راسم محمد الجمال» وصدر حديثاً عن الدار المصرية اللبنانية، في طبعة أنيقة وفاخرة، تليق بعملاق الفكر العربي في القرن العشرين عباس محمود العقاد.

يحتوي الكتاب على عشرة فصول أحاطت بتاريخ العقاد الصحفي وتأثير الصحافة في فكره، وعلاقته بالصحافة الحزبية، إلى أن استقر أخيراً كاتباً صحفياً مستقلاً. نشر معظم كتبه على حلقات في الصحف المصرية، فقد كان العقاد شخصية صحفية تتسم بالاتساع والشمول، الذي جمع في داخله عناصر متناقضة، جمعت بين القوة والعنف من جانب، والسخرية والفكاهة من جانب

افتتاحيات.. لماذا أنشر؟

مجلة الآداب

بيروت: العدد ١٢ (ديسمبر ٢٠٠٨) - السنة ٥٦



أنشر لأنني لا أعرف مهنةً أخرى أعيش منها بشرف وكرامة (غير التعليم الذي أكرهه).

أنشر لأن أبي وأمي أورثاني كميات هائلة من الكتب والمجلات، وأورثاني معها مستودعاً رطباً ورفوفاً صدئة وصناديق ونستون ومارلبورو مليئة وفارغة. ولا يخلو الأمر أيضاً من بضعة صراصير وفئران اقتاتت على وجودية سارتر وإباحية مورافيا وكولن ويلسون زمناً طويلاً.

أنشر لأنني أعجز عن الكتابة أحياناً، أو لأنني أقرأ مادة تعبر عما كنت سأقوله بنفسي فإذا بها تقوله بجمال أكبر أو قوة إقناع أعظم.

أنشر لأني أبلغ أحياناً قمة التشاؤم من الوضع العربي، أو لأنني أحلق أحياناً عند ذروة التفاؤل (والحالة الأخيرة لا تتعدى الهنيهات).

أنشر (وأكتب) لأنني مازلت أومن بدور للكلمة في مواجهة أعداء الحرية، كالعسكر ورأس المال والناطقين باسم الله. وبكلام آخر: أنشر كي أسهم في «نشر عرض» القامعين والمنافقين وتجار المرأة والوطن والدين.

أنشر، طولاً وعرضاً، من بيروت إلى أستراليا، ومن العربية إلى اليابانية، كي لا يصدق اللبنانيون أن بلدهم هو صانع الحضارة (يعني السيفيليزاسيون) الأوحد، وخاتم أنبيائها، ومحطم أرقامها القياسية. أو كي لا يتوهموا أن العالم بأسره منقسم إلى معسكرين: ١٤ آذار و٨ آذار.

أنشر (وأترجم) لأن الآداب الأخرى التي أنشرها (وأترجمها) تثري لغتي العربية، التي لا أرى لي وطناً ولا حياة خارجها.

أنشر (وأكتب) كي تعرف ابنتاي الصغيرتان أن العربية لم تتحول (بعد) إلى ديناصور منقرض على شاشات حاسوبهما الصغير، وأن ثمة كتباً لاتزال تصدر فعلاً بلغات غير «الإنجليش» و«الفرانسيه».

أنشر كي أسهم في ألا تبقى هذه المهنة النبيلة في يد ناشرين، كثير منهم خدم سلاطين، وتجار بلا قلب ولا رسالة، وقراصنة جشعون، ومزورون نصابون، ومذهبيون، وطائفيون.

أنشر كي أعزز الخيارات العلمانية والقومية - اليسارية وسط طوفان التنظير للواقعية والقطرية و«الليبرالية»، ولأدفع قدماً بالأدب الراقي الممتع والجريء في خضم الرداءة والاستسهال والقيود.

أنشر لأن لا نشر أو ناشرين، كما أنه لا حرية بلا كتابة. فلو لم يكن ثمة ناشرون صلبون لما عرفت الثقافة العربية «نقد الفكر الديني» لصادق جلال العظم (دار الطليعة)، و«الإسلام في الأسر» للصادق النيهوم (دار رياض الريس)، و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ (دار الآداب)، و«أحد عشر كوكباً» لمحمود درويش (دار الجديد)، و«هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني (مجلة الآداب)، وعشرات الإبداعات الجديدة الممنوعة في أوطانها في الأمس القريب واليوم.

أنشر لأني أحب أن أشرك الآخرين في قراءة ما يصلني من مواد، سواء للمجلة أو للدار (هاكم أحد الأسرار: أحياناً أنشر مادة لا لأنني أحببتها، بل لأنني أحسست بأن غيري قد يحبها: فإن حصل ذلك بعد النشر فعلاً، زهوت بنفسي وسعة صدري).

أنشر وفاءً وحباً لمن اعتبروا النشر جزءاً متمماً لعملهم في الكتابة والثقافة والسياسة، فعانوا الرقابة وإتلاف الكتب والنفي والتهميش.. ثم غادرونا وهم يخشون أن يلتفتوا إلى الوراء.

سماح إدريس

آخر، وبين التفكير العميق في أحيان كثيرة، وبين السطحية في بعض الأحيان، وبين الديمقراطية والاستبداد بالرأي، وبين الوقار والتهييج والمهاترات.

اعتمدت الدراسة التي امتدت إلى أربعمائة صفحة من القطع الكبير، كما يقول المؤلف د. راسم محمد الجمال، على تحليل كتابات العقاد السياسية في الفترة من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩٦٤، وعلى المراحل التاريخية والسياسية التي تناولت تطور الحياة السياسية في مصر خلال تلك الفترة.

ستون عاماً، إذن، قضاها العقاد يكتب للصحافة بدأت، وهناك عوامل ساعدته على الاستمرار في الكتابة متألقاً متوهجاً، منها: عوامل عقلية وثقافية، وأخرى مزاجية ونفسية، عوامل بيئية من جهة ثالثة.

لم يقع د. راسم محمد الجمال في مأزق عشق الشخصية التي يكتب عنها، كما تعودنا من المؤلفين الذين يكتبون عن شخصيات فكرية فيقعون في هواها ويلتمسون لها الأعذار، ويضعونها في مصاف القديسين الذين لا يخطئون، فالمنهج العلمي المنضبط الذي اتبعه المؤلف، رغم إعجابه بالعقاد، لم يمنعه من القول: إن العقاد لم يكن يتوخى الحق دائماً فيما يكتب. فالحقيقة أنه كان يستغل عمق فكره في تبرير وجهة نظره، أو موقف الحزب أو الجهة السياسية التي يؤيدها مهما يكن موقفها من القضية التي يدور حولها الرأي، كما اتسمت بعض كتابات العقاد بالسطحية خصوصاً في عقد العشرينيات من القرن الماضي، عندما كان يعالج بعض القضايا الاقتصادية والاجتماعية، أو القضايا المتعلقة بسياسة مصر الشرقية ويمكن إرجاع ذلك ـ في رأي المؤلف، إلى أنه لم يكن يصدر في هذه الكتابات عن ثابت أو عن معرفة حقيقية بها.

هذا الكتاب مرجع موسوعي لا غنى عنه، لمعرفة رحلة العقاد الصحفية، وتطور فن الصحافة في مصر.

■

كيف تبيع أي شيء لأي إنسان: مهارات البيع والتعامل مع العمل

تأليف: جو جيرارد، ستانلي براون

ترجمة: أحمد عبد الوهاب

القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٨



- ضاعف ما تبيعه ٢٥٠ مرة.
- حول الصفقة الخاسرة إلى خطة للمكسب التالي.
- تعرف على الطرق الخمس التي تحول بها الصفقة من مجرد احتمال إلى عملية بيع وشراء.
- تعلم وضع عقبات البيع وراء ظهرك أنت والعميل لإنهاء الصفقة بنجاح
- بع بالخسارة واصنع بذلك حظاً سعيداً

استطاع جو جيرارد عبر سنوات عمله الـ ١٥ لدى شركة «فورد» أن يحقق رقماً قياسياً عالمياً، أدخله موسوعة «جينيس» ببيعه لعدد ١٣٠٠١ سيارة لعملاء أفراد. لم يكن جيرارد حاصلا على شهادة متخصصة في المبيعات، لكنه تعلم بتواجده في معمعة العمل اليومية أنه لا يمكن تعويض الصورة الكلاسيكية لرجل المبيعات. وأصر دائماً على القول بأن البناء على المبادئ الأساسية للثقة مع العميل، والعمل الدءوب، سيمكنان أي شخص أن يحقق ما وصل إليه هو.

هذا الكتاب الذي تصدّر لسنوات طويلة قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، ساعد الملايين من القراء أن يصلوا لأهدافهم، كما سيحدث معك أنت أيضاً. يضع جو جيرارد أمامك الوصفة التي تستطيع بها أن تحقق الحد الأقصى للبيع في كل صفقة، باستخدامه لتقنيات وضعها هو وعُرفت باسمه وحقق بها إنجازه القياسي، الذي تستطيع تحقيقه أنت أيضا.

■

غاندي ـ السيرة الذاتية: قصة تجاربي مع الحقيقة

مهنداس كارامشاند غاندي

An Autobiography:-Gandhi The Story of my Experiments with Truth

ترجمه من الإنجليزية للعربية محمد إبراهيم السيد

كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ٥٤٤ صفحة



يُعد غاندي من أكثر الشخصيات الملهمة في العصر الحديث. يسرد غاندي في سيرته الذاتية قصة حياته وكيفية تطويره لمفهوم الساتياجراها أو «المقاومة السلمية»، وهي مجموعة من المبادئ التي تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية في آن واحد ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل من خلال إبراز ظلمه أمام الرأي العام. وقد كانت الساتياجراها بمثابة المحرك لنضال الشعب الهندي من أجل الحصول على الاستقلال، ليس ذلك فحسب بل وكانت المحرك الرئيسي للعديد من عمليات المقاومة السلمية في القرن العشرين.

لقد كان غاندي يبحث عن الحقيقة المتجلية في الإخلاص للإله. كما عزا نقاط التحول في حياته والنجاحات التي حققها والتحديات التي واجهها إلى إرادة الإله. كانت لمساعيه للتقرب أكثر من تلك القوة الإلهية عظيم الأثر في سعيه نحو الصفاء من خلال الحياة البسيطة والعادات الغذائية والتحكم في شهوات النفس واللاعنف. لذلك أطلق غاندي على كتابه «قصة تجاربي مع الحقيقة»؛ ليكون مرجعاً لمن يرغبون في اتباع نهجه من بعده.

■

أفغانستان
عودة طالبان واحتمالات المستقبل

مطيع الله تائب

مركز الجزيرة للدراسات

الدوحة ـ قطر ٢٠٠٨



إن أي محاولة لفهم قضية شائكة بحجم الأزمة الأفغانية، تتطلب وقوفا طويلا أمام مكونات الصراع وخلفيته والعناصر المؤثرة في استمراريته وتحديد دور كل عنصر من العناصر الفاعلة. وإذ تتزاحم الأسئلة حول عودة طالبان إلى المعترك الأفغاني، وأسباب هذه العودة وحجمها وتأثيرها على مستقبل أفغانستان والمنطقة، نجد أنفسنا أمام سيناريوهات متعددة وتوقعات شتى، ترسمها حقائق الواقع وحسابات كل طرف. وما يزيد من تعقيد اللوحة الأفغانية كثرة الخطوط المتداخلة، بعد أن تحولت إلى ساحة رئيسية لما يسمى بالحرب على الإرهاب، وأصبحت أول حقل تجارب لعمل حلف الناتو خارج أوروبا، كما تحولت إلى ساحة للصراع على النفوذ والسيطرة على منابع الطاقة في المنطقة بين الولايات المتحدة وأوروبا والصين وروسيا. هذا بجانب استمرار أهمية أفغانستان في الملفات الإقليمية /الدولية الساخنة، مثل الملف الإيراني والصراع الهندي - الباكستاني وملف المخدرات.

وتشكل حركة طالبان رقما صعبا في هذه اللوحة المعقدة، بعد أن كانت كابول وواشنطن وعواصم دولية أخرى تتحدث عن ذهابها بلا عودة في أعقاب انهيار نظامها بفعل القصف الأمريكي العنيف وتقدم قوى المعارضة نحو العاصمة كابول، بعد شهرين فقط من هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م. وضمن هذا السياق تطرح أسئلة كثيرة نفسها لفهم هذه العودة وحجمها وأسبابها وآثارها على أفغانستان وعموم المنطقة. ولمحاولة تفسير ما يجري في الواقع الأفغاني تسعى هذه الدراسة المختصرة إلى استكشاف القوى والحقائق التي قد تساعد على فهم خلفية الصراع في أفغانستان.

كما تستهدف هذه الدراسة إلقاء بعض الضوء على تكوين طالبان كحركة، وعلى تاريخها وحاضرها، مع التركيز على أسباب عودتها الحالية إلى الساحة الأفغانية، وحضورها القوي والملموس في الجنوب والشرق الأفغاني. وتحاول هذه الدراسة في محورها الأخير استشراف المستقبل، عبر التطرق إلى السيناريوهات المحتملة للأزمة الأفغانية، في ضوء ما يجري من متغيرات على الصعيد الأفغاني نفسه، وعلى صعيد المنطقة والعالم بشكل عام. لقد ركزت الدراسة على حركة طالبان كعنصر رئيس في منظومة المعارضة المسلحة التي تقود العمليات العسكرية ضد حلف الناتو والجيش الأفغاني، ولم يتم التطرق بالتفصيل إلى بقية الأطراف، ولاشك أن هذه مجرد محاولة أولية لفهم الأزمة الأفغانية وتعقيداتها الراهنة، وأن الإلمام الشامل بهذه الأزمة ومكوناتها يتطلب المزيد من الدراسات المستفيضة.

■

حرب اللغات والسياسات اللغوية

تأليف: لويس جان كالفي

ترجمة: د. حسن حمزة

مراجعة: د. سلام بزي ـ حمزة

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٤٤٦ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



صورة التعدد اللساني تعود، في اللاوعي، إلى أسطورة بابل. ذلك أن التعددية اللسانية البعيدة عن الفهم، باعتبارها ثراء، هي معيشة على أنها التباس أو خلط بين اللغات، وعلى أنها عقاب إلهي يوقف بناء البرج، وذلك بوضع عراقيل للتواصل بين الشعوب. هذا هو خيال اللسانيين الذين يحاولون إيجاد استعمال للغة وحيدة داخل حدود الدول أو ابتداع لغات كونية اصطناعية.

اعتماداً على تحقيقات ميدانية، وعلى دراسة حالات أفريقية ولاتينو - أمريكية وأوروبية وآسيوية، يحلل المؤلف رهانات السياسات اللسانية ويدعو إلى احترام التنوع اللساني.

■

الدفتر السياسى والدينى.. قراءة عصرية

د. زهير محمد جميل كتبى
المملكة العربية السعودية ـ مكة المكرمة: توزيع دار مصر المحروسة، ٢٠٠٨ ، ٢٠٠ صفحة



صدر كتاب الدفتر السياسى والدينى قراءة عصرية للكاتب السعودى الدكتور زهير محمد جميل كتبى. والكتاب هو بعض المقالات الصحفية الجريئة والشجاعة التى كتبها ونشرها المؤلف فى جريدة السياسة الكويتية، وأثار بعضها الكثير من المشاكل والمعارك فى الصحافة بين مؤيد ومعارض.

تناولت المقالات عدة موضوعات كانت الكتابة عنها فى الماضى تدخل تحت نطاق «الخطوط الحمراء»، مثل مقالة «هل المسلمون أفضل أمة؟». أكد المؤلف أننا لسنا أفضل ولا نملك مقوماتها، بل نملك عكس مقومات القوة من الكذب والنفاق والرياء والضعف والمهانة. ثم يتناول دور وسيطرة شهوة المال والحكم فى هذه الحياة. ويتناول فى عدة مقالات دور الفساد العربى عبر شخصية القائد العربى الأموى الحجاج بن يوسف الثقفى، وكيف أفسد فى تاريخ أمتنا العربية وذكر المؤلف نماذج كثيرة ومتعددة لفساد الحجاج وخاصة قتل الأبرياء من المدنيين المسلمين. ثم يتناول موضوع غلو وتعصب المثقف الدينى وعدم قبوله للرأى الأخر، وتعنده فى مواقفه وأرائه. ثم يتناول بالحديث عن قضية مهمة وهى مشاركة الرعية فى الإصلاح فى الوطن، ثم يميل لتناول موضوع حيوى وحساس وهو طاعة ولى الأمر، ويصر الدكتور زهير كتبى على عدم طاعة ولى الأمر إلا بشروط حددها فى هذا الكتاب وفق منظور إسلامى . ثم مشيرا الى أن من حق أى مواطن نقد السلطة. و يكتب عن موضوع المؤسسة الدينية الخليجية، مذكرا بكثير من مواطن الفساد والضعف والتجاوز فى تلك المؤسسة وعدم تطورها.

ويؤكد مؤلف الكتاب أن الإقدام على الاجتهاد والخطأ فى الكتابة والنقد والتحليل هو واجب دينى ووطنى وثقافى ومبدئى على كل مثقف وكاتب. وأن الكاتب النظيف مأجور على جهده واجتهاده وفعله ومحاولته الوصول إلى الصواب. ويدعو فى الكتاب إلى الحوار والمتابعة والتقويم والمراجعة والمناصحة والنقد من قبل أهل الثقافة والفكر والقلم، ويقول إنها بؤرة الفاعلية فى الساحة العربية.

■

القلعـــــة

تأليف: أنطوان دى سانت إكسوبرى
ترجمة: أحمد على بدوى
القاهرة ـ دار الشروق ٢٠٠٨



القلعة هى حكاية أمير ورث مملكة عن أبيه. ومن خلال تأملاته فى أحوال شعبه يصحبنا فى رحلة فلسفية ممتعة فى أغوار النفس الإنسانية يقدم لنا فيها خلاصة خبرته وتجاربه.

ومع أن أنطوان دى سانت إكسوبرى اشتهر بروايته الجميلة «الأمير الصغير» والتى نشرت بأكثر من مائة وخمسين لغة عبر العالم كله إلا أن كثيرا من النقاد يعتبرون رواية القلعة هى رائعته الحقيقية والتى جمع فيها فلسفته وحكمته التى استغرقت عمرا بطوله.

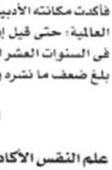
ولد أنطوان دى سانت إكسوبرى عام ١٩٠٠ بفرنسا وكان طيارا ومغامرا جاب بقاع العالم كله بطائرته الصغيرة، وكتب العديد من القصص والروايات. نشر له منها ١٠ روايات قبل أن يلقى حتفه إثر سقوط طائرته أثناء رحلة جوية فى شمال إفريقيا عام ١٩٤٤.

وقد نشرت روايته القلعة بعد وفاته فأكدت مكانته الأدبية البارزة على الساحة العالمية؛ حتى قيل إن حجم ما كتب عنه فى السنوات العشر التى أعقبت وفاته قد بلغ ضعف ما نشره وهو على قيد الحياة.

■

علم النفس الأكاديمى المعاصر
الشباب المعاصر وأزماته
دراسات نفسية ميدانية

أ. د. محمد حسن غانم
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨ ، ٤٣٢ صفحة



الشباب المعاصر وأزماته.. دراسة نفسية ميدانية، كتاب يطرح سؤالاً مهماً، عن دور علماء النفس والاجتماع فى التصدى للمشكلات التى يعانيها الشباب، وفى تفسير الكثير من الظواهر التى تسود المجتمع المصرى، ويتهم فيها الشباب، الكتاب يأتى ضمن سلسلة مهمة خصصتها الداران، مكتبة الدار العربية للكتاب، والدار المصرية اللبنانية لعلم

أوراق بحثيـــــة



الوضع الفلسطيني.. الأزمة والمصالحة ومستقبل الحركة الوطنية

بشير موسى نافع
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة – قطر ٢٠٠٨

بين التاسع والرابع عشر من يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حسمت مجموعات من الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والقوة التنفيذية الموالية للحركة، الصراع الدائر منذ شهور في قطاع غزة بالقوة العسكرية.

وكانت المناطق الفلسطينية الواقعة في نطاق الحكم الذاتي شهدت توتراً متزايداً منذ فوز حماس في الانتخابات التشريعية في مطلع ٢٠٠٦، ومن ثم تأهلها لتشكيل الحكومة الفلسطينية.

وصل هذا التوتر ذروته في الاشتباكات التي شهدها قطاع غزة خلال الأسابيع السابقة على عقد اتفاق مكة.

جانب من هذا التوتر يعود إلى الحصار السياسي والاقتصادي الذي فرضته الدولة العبرية والقوى الغربية عامة على المناطق الفلسطينية بعد فوز حماس وتشكيلها الحكومة؛ ولكن الجانب الذي لا يقل أهمية عن ذلك يعود إلى سعي قوى وشخصيات داخل حركة فتح والطبقة الفلسطينية الحاكمة منذ أوسلو، وسعي قيادات ومؤسسات أمنية داخل سلطة الحكم الذاتي إلى تقويض دور حماس في الحكم واخراجها نهائياً من جسم السلطة.

أثار حسم الصراع في قطاع غزة لصالح حماس ردود فعل سياسية سلبية، فلسطينياً وعربياً ودولياً. كما أثار جدلاً فكرياً حاداً في الساحتين الفلسطينية والعربية. فقد شابت عملية الحسم تجاوزات بالغة من الطرفين، سواء من القوات الموالية لحماس أو تلك التابعة للأجهزة الأمنية؛ كما مثلت لحظة مؤلمة أخرى من الاشتباك الفلسطيني - الفلسطيني، وأضافت انقساماً فلسطينياً وطنياً إلى الانقسامات العربية الداخلية المتفاقمة في العراق ولبنان و لكن دلالات الحسم السياسية هي الأهم بالتأكيد. سواء فيما يتعلق بالموقع الذي تحتله القضية الفلسطينية عربياً وإقليمياً ودولياً، أو بعملية التحول المرتبكة التي تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية ودور القوى الإسلامية السياسية ومستقبلها في هذه العملية. لقد قادت حركة التحرر الوطني الفلسطيني «فتح» النضال الوطني الفلسطيني منذ سنة ١٩٦٩؛ وبالرغم من التعددية السياسية والأيديولوجية التي تتسم بها الساحة الفلسطينية، كانت فتح هي من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضي، ولكن دور فتح أخذ في التراجع منذ الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وفعلا قدم فوز حماس في الانتخابات التشريعية الأخيرة في الضفة والقطاع مؤشراً ملموساً على التراجع الفتحاوي وعلى صعود التيار الإسلامي السياسي. وهناك مؤشرات عديدة أخرى تشير إلى أن حجم ودرجة التحول بين فلسطينيي الشتات لا يقلان عنهما في الضفة والقطاع.

اتجهت الأزمة السياسية التي ولدتها عملية الحسم في قطاع غزة نحو التعقيد، سواء لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية في إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، أو للضغوط التي تمارسها الإدارة الأميركية والحكومة الإسرائيلية على رام الله، أو لأن المفاوضات الجارية منذ نهاية ٢٠٠٧ حول تسوية نهائية ما للصراع على فلسطين تتطلب استبعاد حماس عن مواقع القرار للسلطة الفلسطينية، وأصبحت هذه الأزمة، بذلك، مفتوحة على احتمالات عدة. ولكن من الخطأ التعامل مع الأزمة الفلسطينية باعتبارها مجرد حلقة جديدة في سلسلة التداعيات التي عاشتها الساحة الفلسطينية منذ انتصار حماس في الانتخابات التشريعية. هذه أزمة ذات جذور عميقة في التاريخ السياسي الفلسطيني؛ ومن غير الممكن التوصل إلى قراءة صحيحة للحظة الفلسطينية الراهنة، وللتحول الذي يشهده المجتمع الفلسطيني واتجاهاته، بدون قراءة السياق التاريخي لبروز حركة فتح والاتجاه الإسلامي الفلسطيني، وبدون استطلاع دقيق لشروط التحولات السياسية في السياق الفلسطيني. وبالنظر إلى أن صيف ٢٠٠٨ شهد بدايات حوار وطني لمعالجة الأزمة وعواقبها، فإن من الصعب تصور إعادة بناء اللحمة الوطنية الفلسطينية بدون إعادة نظر في النهج السياسي لقيادة سلطة الحكم الذاتي، لحركة فتح، ولحركة حماس على السواء.

تستعرض الدراسة تاريخ حركة فتح «من الفكرة الى التحرر الوطني إلى السلطة»، وكذلك تشكيل حركة حماس، وصعودها الحثيث في الساحة الفلسطينية، ثم كيف كان الطريق الى الأزمة الحالية، والى أين نحن ماضون بعد ماجرى من انقسام.

النفس الأكاديمى المعاصر، تحت إشراف الناشر محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية اللبنانية، وبهيئة تحرير مكونة من الأستاذ الدكتور مصطفى سويف، ود. خالد عبدالمحسن بدر، وفى تقديمه لهذه السلسلة يقول الناشر محمد رشاد إنها راعت أن تنقل إلى القارئ أحدث المعلومات التى استقرت فى الموضوعات التى تتصدى هذه الكتب لمعالجتها وهو أمر لا تزال المكتبة النفسية فى أشد الحاجة إليه، كما تقدم هذه السلسلة كل ما يعتبر إسهامًا جادًا فى العلم سواء كان هذا الإسهام مصرى المنشأ أو عربيًا أو عالميًا، والجدير بالذكر فى هذا الصدد. والكلام لمحمد رشاد - أن لدينا الآن من أهل الاختصاص من ترقى إنجازاتهم إلى مصاف إنجاز العلماء الكبار فى العالم.

يحتوى الكتاب على خمس دراسات كبرى، الأولى بعنوان الصورة المدركة للطالب العدوانى فى المجال الدراسى، لدى عينة من طلاب المدارس الثانوية، بينما جاءت الثانية تركز على السلوكيات المراد تعديلها لدى عينة من طلاب وطالبات الجامعة، فى سياق نفسى اجتماعى، وخصصت الدراسة الثالثة لاتجاهات الشباب نحو الزواج وقضاياه التى باتت ظاهرة وملحوظة مثل ارتفاع معدلات العنوسة، وزيادة حالات الطلاق، وتناقش القضية الرابعة ظاهرة ختان الإناث وعلاقته ببعض متغيرات الشخصية، أما الدراسة الأخيرة فهى أزمات الحياة بشكل عام، وكيفية معالجتها.

■

محب

تأليف: عبد الفتاح الجمل
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



سيدرك القارئ أن وراء هذه الكتابة محبة فريدة، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية، وبالطبيعة فى جميع صورها. إن عبد الفتاح الجمل يمارس حواسه الخمس فى فنه، مجتمعة دائمًا متآزرة، تتبادل القوى والدلالة بأسلوب ساحر لا ينفد جماله أو ثراؤه. إنه يريد أساسًا أن يمسك بالحياة، وأن يصنع بالفن حياة موازية لها، وهذا هو هدفه الأول ومقصده الأعلى.

وهكذا، تصبح سيرة «محب» عملًا فنيًا فريدًا، يمسك بالحياة وبالطبيعة إمساكًا يجعل الحياة طبيعة، والطبيعة حياة، ويحيلهما معًا إلى مادة فنية واحدة تتلقاها النفس، فتعيشها لتبقى فيها وكأنها تجربة مباشرة أو ذكرى عزيزة غائرة، قد تنتمى هذه السيرة التى كتبها المؤلف لقريته إلى فن القصة القصيرة أو الرواية، ولكنها فوق ذلك تسجيل حى للقرية بتاريخها وجغرافيتها ولسكانها من بشر وطير وحجر وبلغاتهم جميعًا.

■

العوامل الخمسة لخلل العمل الجماعى

باتريك لينسيونى
The Five Dysfunctions of a Team
ترجمة من الانجليزية للعربية محمد عبد الرءوف العوجى
كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ١٩٤ صفحة



فى كتاب «العوامل الخمسة لخلل العمل الجماعى» The Five Dysfunctions of a Team، يعرض لينسيونى من جديد قصة عن أفضل السبل لقيادة فريق عمل ناجح تماثل فى روعتها وإفادتها كتابيه السابقين اللذين حققا أعلى المبيعات، وهما The Five Temptations of a CEO و The Four Obsessions of an Extraordinary Executive، غير أنه هذه المرة يتحول بكل طاقته الإبداعية القصصية والفكرية إلى عالم فريق العمل الملىء بالتعقيد والغموض.

ففى هذا الكتاب، تواجه كاثرين - المديرة التنفيذية الجديدة - أصعب أزمة قيادية من الممكن أن تواجه قائدًا فى بداية عمله، ألا و هى محاولة توحيد فريق عمل فى حالة من الفوضى تهدد بانهيار المؤسسة بأكملها. فهل يا ترى ستنجح فى مهمتها؟ أم سيتم طردها من العمل؟ هل ستنهار المؤسسة؟ إن الحكمة الأبدية التى تنتهى إليها تلك القصة التى حاك لينسيونى خيوطها ببراعة فائقة هى أن القيادة مهمة تتطلب قدرًا من الشجاعة بقدر ما تتطلبه من بصيرة نافذة.

ومن خلال أحداث القصة، يكشف لنا لينسيونى عن أخطر خمس نقاط ضعف تصيب كيان كل فرق العمل - حتى أفضلها - بالخلل والتصدع، ثم يرسم لنا نموذجًا للفريق الناجح من خلال خطوات عملية تعين الفريق على تخطى العقبات وبناء كيان قوى متماسك.

وكما هو الحال مع كتب لينسيونى السابقة، فقد نجح فى نسج قصة ممتعة ومشوقة تحمل رسالة مؤثرة - على الرغم من بساطتها البادية - إلى كل قائد يكافح من أجل تكوين فريق عمل فذ.

■

نقد العقل العملى

إمانويل كَنْت
ترجمة: غانم هنا
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٢٩٥ صفحة

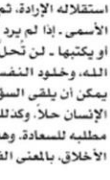


شغلت العلاقة بين العقل العملى والعقل النظرى كل من تابع كَنْت، منذ ظهور نقد العقل العملى قبل مائتى عام، لكن أوسع النظريات المعاصرة فى الأخلاق انتشارًا تضع هذا الموضوع جانبًا لتأخذ بانتقائية تضفى على أبحاثها صفة التجديد، من دون العودة إلى هذه القضية الأساسية فى الفلسفة الكنتية. هكذا فعلت «أخلاق الخطاب» ليورجن هابرماس ونظرية جون رولز فى العدالة، وكذلك نظرية الأخلاق النفعية وغيرها. من لم يرغب، أو لم يستطع أن يتبع الأخلاق الكنتية، لأسباب تعود إلى أيديولوجية أو إلى مواقفه الدينية أو الاجتماعية أو حتى السياسية، لابد من أن يعترف لكَنْت، بشكل عام، بأنه ثبت أن للأخلاق، بكل بساطة، قانونًا موضوعيًا، وأن لها صفة مميزة هى قابلية مسلماتها للتعميم، وأن أصلها الذاتى يقع فى استقلاله الإرادة، ثم إن إشكالية الخير الأسمى - إذا لم يرد الإنسان أن يتناساها أو يكتبها - لن تُحل إلا عن طريق وجود الله، وخلود النفس، والحرية. وبذلك يمكن أن يلقى السؤال حول تعيين إرادة الإنسان حلاً، وكذلك حول تعيين عقله مطلبه للسعادة. وهذا هو مجمل موضوع الأخلاق، بالمعنى الفلسفى النقدى.

■

يحدث فى مصر الآن

تأليف: يوسف القعيد
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨



يقول الناقد الكبير د. على الراعى عن هذه الرواية «يحدث فى مصر الآن»: عمل روائى فى المحل الأول، تسجل له بساطته الشديدة فى الفضح واللذع والتندر، ويحمل فى أرجائه أنفاسًا من فن جوجول فى «المفتش العام»، وشيئًا من كابوس كافكا فى «المحاكمة»، وشبهًا قريبًا من توفيق الحكيم فى «يوميات نائب فى الأرياف». ومع كل هذا الانتساب، يظل للعمل طابعه الخاص. قدرة يوسف القعيد على الفضح دون زعيق، والإدانة دون خطابة، والانحياز إلى جانب الفقراء والمعدمين دون تحيز لهم.

إن «يحدث فى مصر الآن» «هجائية سياسية ممتازة تنبع من القرية المصرية موضوعًا وشكلًا وتثبت أن الرواية السياسية تستطيع أن تكون ضاحكة حينًا، ساخرة حينًا، دون أن تفقد شيئًا من جديتها، بل لعلها تزيد من عمق هذه الجدية بالتناول الذى يبدو سهلًا ولكنه لا يلبث أن يغوص إلى أعماق القارئ».

■

التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولى الكتاب السنوى ٢٠٠٨

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية والذى يصدره معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى «سيبرى»، ٢٠٠٨، ٩٤٢ صفحة



يعتبر الكتاب السنوى التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولى الذى يصدره معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى (سيبرى)، أبرز التقارير الدولية الاستراتيجية، كمرجع شامل للتطورات العالمية فى كل شأن يتعلق بمصير السلام على الأرض.

يوثق هذا الكتاب - المرجع، فى تقارير شبه مسحية وبيانات وجداول وإحصاءات دقيقة، مجمل التطورات فى العام ٢٠٠٧، فى شتى مجالات الأمن، والصراعات، والإنفاق العسكرى والأسلحة.

وهو يسعى إلى توفير مصدر موثوق، ومستقل، يمكن لمراكز القرار، والبحث، والقراء المعنيين، الرجوع المطمئن إليه، لبيان أوضاع العالم السياسية والاستراتيجية والأمنية، وماذا دار خلال السنة المعنية من حوارات ونقاشات، وما صدر من قرارات وما تشكل من لجان، تُعنى بالصراعات، وكيف حُلّت (إذا كانت قد حُلّت).

وللعام السادس على التوالى، يقدم مركز دراسات الوحدة العربية إلى القارئ العربى، فى هذا المجلد، الطبعة العربية، وذلك بالتعاون مع المعهد السويدى بالإسكندرية. وتبقى الطبعة العربية، لهذا الكتاب السنوى، محافظة، إلى درجة عالية من المسئولية والحرفية، على ما جاء فى النص الأصلى للكتاب (باللغة الإنجليزية)، وهو نهج يلتزم به مركز دراسات الوحدة العربية فى إنتاجه الفكرى، مما يُبقى المعهد موصولاً مع القراء العرب.

OBRAS COMPLETAS I: POESIA¨ CUENTO¨ NOVELA

الأعمال الكاملة ١ : شعر، وقصة ورواية

Hernandez Efren

488 pp. $ 44.75

Mexico

FCE..2008



يجمع الجزء الأول لهذا الكتاب بين الشعر والقصة والرواية لأعمال الكاتب المكسيكى «إيفرين إرنانديث»،كما يراه الناقد وكاتب المقال اليخاندرو توليدو: «لديه اتجاه هامشى وله موهبة نادرة، .

فاتجاه وموهبة الشاعر تنتج كتابات مثيرة وموحية للبانوراما الأدبية بالقرن العشرين فى المكسيك أى أنه عمل لا غنى عنه على مر الزمن وفقاً لذوق ورأى الأجيال الجديدة من القراء والنقاد.

■

Movimiento de mujeres. Mujeres en movimiento

حركة نسائية ، نساء في انقلاب

Bego´na Zabala

292 pp. euro 7

Txalaparta, 2008



فى هذا العمل يرجع المؤلف بيجونيا ثيبادا بنظرته لثلاثين سنة للوراء حيث منظمة الانقلاب النسائى فى إقليم الباسك . إنها قصة شخصية وجماعية من تاريخ متطلبات النساء وإنجازاتهن. فمن أجلهن اختارت المؤلفة اثنى عشر طلبا نادين بها مرات كثيرة فى مظاهرات أو مطبوعة فى الدعاية لمعالجة الكثير من القضايا الهامة لنضال المرأة :

«يسقط العمل»، «لا يوجد عنف بدون تشهير»، «لا يوجد عداء دون رد» oli, oli ola «المرأة ستنتصر»، «الكى والكنس لجميع الناس»... هكذا قدمت المناقشات والمجادلات عن قضايا الاضطهاد من جانب السلطة حيث تكون فى: العمل والأمومة والحرب والعنف والبغاء ولا سيما الحركة النسائية.

■

Los Premios Grammy 1958-1982 "25 a´nos de música"

جوائز جرامي ١٩٥٨ -١٩٨٢ ، ٢٥ عاماً للموسيقى،

Xavier Gállego. F, 2008, Lenoir

256 pp. euro 23



أول كتاب مرشد لجوائز Grammy بأمريكا الشمالية من عام ١٩٥٨-١٩٨٢ وفقاً لمصنفات الموسيقى الحديثة (بوب،روك، جاز، البلد، ريجبى،...إلخ) .

«فى هذه الطبعة التى تغطى فجوة الأدب الموسيقى ببلاد إسبانيا، نستطيع أن نكتشف هنا معلومات عن ماهو الجرامى وما يضمنه كما نكتشف بيانات عن أحداث فى كل مرة يتم فيها تسليم الجوائز. ونستطيع أن نعرف من هم المرشحون والفائزون ونستطيع معرفة أهمية الفائزين بالجوائز وغير المعروفين بالأكاديمية . فكتاب «جوائز جرامى» لا يترك أحداً إلا وشد انتباهه . ها أنتم لديكم الفرصة للمعرفة أكثر».

■

HERMANAS

الأخوات

خوسفينا الديثوا

Aldecoa, Josefina

232 pp. euro 38.18

Alfaguara, 2008



يعيشان إيزابيل وأنا مع بعضهما منذ بضع سنين . فبالرغم من أن طفولتهما معاً تأثرت بالأم الحاضرة دائماً معهما فى ذهنهما على الرغم من غيابها، فكل أمنياتهما المتنوعة بين أيديهما: السعادة والعائلة من جهة والحرية والاستقلالية من جهة أخرى، مما رسم طريقة حياتهما ومصيرهما.

فى المستقبل تقع الأختان فى حب نفس الرجل مما يؤدى لوجود منافسة بينهما ويضع علاقتهما فى خطر.

تطلق الكاتبة عنان أفكارها المنعكسة والمذكرة فى قصة هاتين الأختين اللتين تمثلان بشكل بارع نوعين من النساء حيث وضعت حالة الأختين فى سلسلة من التعقيدات ومشاعرهما المتماثلة والمختلفة وخبراتهما المشتركة وخبرات كل واحدة فيهما على حدة، مما يخلق مشاعر مركبة ومعقدة بنهاية مفاجئة أو غير متوقعة.

■

LA DAMA AZUL

السيدة الزرقاء

SIERRA, JAVIER

400 pp. euro 19.20

Planeta, 2008



لا يوجد عمل خيالى كشف عن كثير من الحقائق الخفية .. فالعمل الروائى لتاريخ إسبانيا الغامض يضع تحت المراقبة صحفية، وجاسوسة تعمل بالمخابرات بأمريكا الشمالية، ومجموعة مختارة لحكمة الملك بالفاتيكان وتواجههم بواسطة العمل بمراقبة المعلومات عن إمكانية إضعاف إيمان ملايين المسيحيين.

يبدأ اللغز فى أمريكا عام ١٦٢٩ عندما وصل لأول مرة الفرانسيسكان إلى المكسيك الجديدة واكتشفوا أن أحدا ما سبقهم .

الهنود الحمر الذين رحبوا بقدومهم، حكوا لهم عن السيدة الزرقاء الغامضة التى جاءت لمقابلتهم خلال شهور.

أعطى بابا أوربانو الثامن والملك فيليب التاسع أوامر بإجراء استقصاءات عنها وانتهوا بأن هذه السيدة الغامضة ليست إلا راهبة تعيش حياة الرهبنة من سوريا التى بشمال إسبانيا تدعى الأخت ماريا María Jesús de Agreda خيسوس دى أجريدا ويبدو أن تترك زنزانتها أبداً ، أصبحت قادرة على أن تظهر لبعد أكثر من ١٠ الاف كم . ولكن كيف فعلت هذا ؟، عن طريق مرض الحمى من اجل إخفاء سر الراهبة ووجود Coronovisor أو الجدول الزمنى للمراقبة، فهو اختراع عبقرى متطور فى عهد بيو الثانى عشر فى روما من أجل استعادة الصور وأصوات الماضى وغموض امرأة وقعت فى اشتباك بين العمل لدى قسم الدفاع ورؤيتها غير العادية اللذين يتلاقيان معاً، جعل الرواية بها إثارة أكثر . حيث يوجد أشخاص يستطيعون أن يكونوا فى مكانين فى نفس الوقت، فأحداث الرواية بها غموض وأسرار.

■

Epistolario Mara´nán-Unamuno-Ortega

رسائل مارانيون - أونامونو - أورتيجا

Edición crítica de Antonio López Vega

308 pp. euro 23.90

Espasa, 2008



يجمع هذا الكتاب جميع الرسائل لأهم كتاب ومفكرى القرن العشرين بإسبانيا : جريجوريو مارانيون، ميجيل دى أونامونو، وخوسيه أورتيجا إى جاسيت. كما يشير أنطونيو لوبيث بيجا فى دراسته إلى مقدمة لأول مرة رسائل كاملة ومحللة فى كتابه.

قام لوبيث بيجا بتحريرها حيث إنه مؤرخ والسكرتير الحالى لمؤسسة مارانيون التى من خلالها استطاع أن يصل لتلك الرسائل مباشرة .

■

Los papeles de agua

أوراق الماء

Antonio Gala

450 pp. euro 22

PLANETA, 2008



يرجع أنطونيو جالا لقصص الحب العظيمة عن طريق أوراق الماء.

لم تكن قط السيدة «أسونسيون مورينو» سهلة الفهم، وحتى عندما أصبحت كاتبة باسم ديانيرا الأركون الناجحة بكتابتها، حتى انتصرت احداهما على الأخرى وقررت ديانيرا الذهاب إلى البندقية بإيطاليا لتحدد مصيرها بحياتها .

فكتابتها على أوراق مذكرتها بالبندقية كانت من أجل فهم نفسها من خلال مضى الأيام ومع مرورها أهملت نفسها .

تعكس هذه المذكرة امرأة تحاول أن تعيش من خلال كتابتها بعد أن تركت من قبل ذلك ، نوعا من الكتابة الأدبية التى تخدم فقط الأدب» . فإنها امرأة استطاعت أن تنسى نفسها عندما اكتشفت فى النهاية أنها لم تعش الحياة أبداً.

يعتبر هذا الكتاب اعترافا دون حياء.

فلم تعرف الكاتبة النور إلا عند هروبها منه لتحديد مصيرها.

■

Espejos
Una historia casi universal
مرايات
تاريخ عالمي
Galeano, Eduardo
364 pp, euro 19
Seglo Xxi De Espaa, 2008
Editores, S.A.



بعد أربع سنوات نشر الكاتب جاليانو عمله الجديد الذى يستعرض فيه تاريخ الإنسانية حتى اليوم والذى يكتبه من منظور أحداث وأشخاص غير معروفين فهم ليسوا بالصحف اليومية أو فى الصور. فكما هو مذكور بالعنوان الثانوى الذى يحكى عن تاريخ عالمى وعن إحصائية عامة بالعالم التى تظهر مضيئة بواسطة هذا الكاتب القادر على ربط الأحداث اليومية والأحداث الفعالة والشكاوي بشكل أكثر بساطة وبما لديه من الفكاهة وبأبرع ما لديه من سخرية . ففى هذا الكتاب يتم إدماج الحكايات التى تحملنا كما لو أننا عناوينها، كالمشار إليها من «مؤسسة الذكور»، «إحياء يسوع»، «سنوات خوانا دى لوكا»، أو «التعليم فى عصر فرانكو»، حتى «الحقوق المدنية لألعاب كرة القدم».

■

Te daré la tierra
سأعطيك الأرض
Lloréns, Chufo
752 pp, euro 21
Plaza & Janés Editores, S.A, 2008.

بارشلونا



بارشلونا بالعصور الوسطى بين أسوارها قصتان كلتاهما عن الحب والطموح : حيث تحكى عن شاب فلاح يريد أن يغير مصيره، فأمله الوحيد هو أن يعيش حياة رغدة وأن يصل للمدنية ويهذا سيكون جديراً بحب فتاة مدينة الكورنيا ولكن علاقات غرامية لكونت بارشلونا تضع المدينة فى خطر سياسى.

رواية «سأعطيك الأرض»، تتحد فيها البراعة والخيال والتاريخ لتوضح الحياة الرغدة المنعشة لمدينة بارشلونا حيث تصبغ فيها المعاهدات والنسب ومكائد القصر والطموح التجارى والتعايش بين مختلف الأديان، بمشاعر اكثر توهجاً؛ كالعاطفة والصداقة والحسد والشرف والانتقام . فهى رواية عاطفية وبها طموح مما يجعل القارئ يخوض عصر بدايات بناء مدينة بارشلونا.

■

La Casa de Dostoievsky
بيت دوستوفسكى
Jorge Edwards
336 pp, euro 23
Planeta, 2008



الرواية حائزة على جائزة Iberoamericano Planeta-Casa América للرواية عام ٢٠٠٨ فهى رواية عظيمة معاصرة لجورجى إدوارد، تتحدث عن الحب والشعر والالتزام السياسى.

تتحدث الرواية عن كاتب وشاعر شاب أفنى حياته كلها بين الشرب وعلاقته الغرامية بسانتياجو فى شيلى بعد الحرب.

عشق تيريزا وذهب على أثرها إلى باريس فى الستينيات، فكلاهما يحبان بعضهما فى السر، ولذلك هما فى خطر دائم خوفاً من انكشافه.

و بعد وقت انتقل إلى كوبا حيث عاش هناك فى أوقات سياسية مضطربة وثورية كما أنه خاف من الرجوع إلى بلاده بشيلى لأنه سيقع فى يد الديكتاتور بينوشيه.

هذه الرواية معاصرة للأجيال الذين لديهم التزامات وطموحات نحو حريتهم، فهم يدفعون ثمن طلبهم للحرية التى دائماً ما ترى على أنها شىء ليس من حقهم ويجب العقاب عليه من قبل المدعين بأنهم أصحاب الفكر السياسى السليم .

فالرواية تكريم للشعر والإبداع الفنى . فهى من أروع روايات جورجى إدوارد الذى يمتاز بأسلوب بارع ونضجه ككاتب يكشف الجوهر الأدبى لهذا الكاتب البارع الذى له اهمية كبيرة بأدب أمريكا اللاتينية.

■

El documento Salda´na
وثيقة سالدانيا
Pedro de Paz
300 pp, euro 19.18
Planeta, 2008



تحكى الرواية عن الطامح ميجيل كورتيس الذى يقبل جميع أنواع العمل ولكن فى حدود القانون. فقد تلقى فى يوم طلبا خاصا؛ وهو استعادة ووضع وثيقة قديمة مكتوبة من قبل رجل اعمال شهير فى بدايات القرن الماضى.

وعلى أساس العرض الاقتصادى السخى، قبل «كورتيس» بالمهمة التى ستحمله إلى الاختراق فى لعبة المرايا المثيرة للقلق حيث ستوصله إلى لا شىء، وسينتهى به الأمر إلى الخرافة التراثية الفنية المختفية فى بدايات نشوب الحرب الأهلية الإسبانية والتى فقدت للأبد ..

■

EL PAPA MAGO
بابا ماجو
RUIZ MONTA NEZ MIGUEL
576 pp, euro 21.50
EDICIONES MARTINEZ
ROCA, S.A.,2008



تحكى الرواية عن فرنسا الحالية بمنطقة شامباين.

يكرس أمير مدينة ديفينشى «بيير دوبوا» حياته للبحث عن ماكينة تعمل على تغيير الألفية والمخبأة منذ آلاف السنين حيث اخترعها الأب سيلفيستر الثانى، بابا الماجو . ولكن بعد أيام من اكتشافها، اختفى بيير دوبوا .

فاختفاؤه المفاجئ أدخل ابنته والمخبر فى دوامة من الأحداث الخطيرة مما حملهما لكثير من البلدان المختلفة ومغامرات غرامية .

الرواية «بابا ماجو» تعتبر رواية مليئة بالألغاز والإثارة تدخل القارئ فى عصر غير معروف ومثير لسنة ألف . ويقدم لنا أحد الأشخاص المهمين وغير المعروفين وهو الأب سيلفيستر الثانى.

■

El ao que mi abuelo vio llover
العام الذى رآه جدى ممطراً
Toms Molina
280 pp, euro 18.5
Planeta, 2008



التغير المناخى فى إسبانيا

رواية «العام الذى رآه جدى ممطراً» يضع أمام القارئ الشواهد والبيانات عن المشاكل التى تعانى منها إسبانيا عن التغير المناخى والمشاكل التى يجب مواجهتها بإسبانيا والعالم عامة كنتيجة للتزايد السكانى والتغير المناخى وكافة تقلبات عصرنا . وجميع الأشياء الرئيسية لمعرفة ما الذى يحدث بإسبانيا حالياً.

بدون انتحاب والتنبؤ بكوارث، هاهنا قصة الظروف الحالية بإسبانيا وظروف مستقبلها، فى عمل لا يقترح البحث عن حلول ولكن يقوم بحلها.

■

El judo de Shanghai
يهودى شنجهاى
Emilio Calderón
320 pp, euro 21
Planeta, 2008



الرواية حائزة على جائزة فيرناندو لارا للرواية. وهى مليئة بالإثارة والمغامرة والعاطفة والحب أثناء الحرب العالمية الثانية . بعد عام ١٩٤٣، أسس الجيش اليابانى الذى حكم مدينة شنجهاى كاملة، وحدة الجيتو اليهودية بالعالم التى لم تكن فى أيدى النازية .

وصول العريسين ليون ونورا اليهوديين من بلد، Blumenthal إلى شنجهاى عام ١٩٣٩ عندما كانت هذه المدينة ميناء لفرانكو وكانت لاتزال محتفظة بجمالها الساحر، حيث إنهم منعزلون بالتحديد فى هذه المنطقة لأنهم ليس لهم وطن.

يجب على العروسين مقابلة الكولونيل فوكودا، رئيس المخابرات البوليسية اليابانية، واللذين من أجلهما حكى مع نوبى بيرفومادة Nube Perfumada المثيرة جنسياً التى تعمل كعبدة للجيش اليابانى والتى أصبح لها دور رئيسى فى هذه الرواية المثيرة والعاطفية.

■


مع الرقم السرى المجانى
XXXX
الكل بيتكلم أرضى
الكل مرتاح و مرضى
animation ADVERTISING
باستخدام الرقم السري المجاني عن طريق ١١١ أو موقعنا على الإنترنت ومن غير ما تحتاج تروح للسنترال تقدر:
تشترك أو تلغي خدمة المباشر
تشترك أو تلغي خدمة الاتصال الدولي
تشترك أو تلغي أي من خدماتنا (الإظهار، الانتظار، المانع الكودي...)
ترسل تلغراف من أى مكان فى العالم
تنقل خط تليفونك لمكان آخر
تضمن السرية التامة لبيانات خطك ولفواتير تليفونك
اتصل بـ ١١١ لمعرفة أقرب مكان للحصول على رقمك السرى المجاني
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
www.telecomegypt.com.eg